



تأريخ المشرق في تحلية علماء المشرق

تأليف:

فالح بن عيسى السبكي

الجزء الأول

مقدمة وتحقيق:

د. أحمد الحسن السامح

مع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة

تاج الفهرق في تحلية علماء المشرق

تأليف:

خالد بن يحيى السبلوي

الجزء الأول

مقدمة وتحقيق:

العلامة الحسن السائح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد ، فان عظمة الامم تعتبر بافكارها التي يبدعها ابناءؤها وعلمها
الذي يتسلسل في اجيالها ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

وما الحضارة الا مظهرا حيا وترجمانا عمليا لهذه العظمة ونتائج
مباشرة للافكار والقيم ، فاذا انطلقت الافكار والقيم والمعاني من منهج
خلقي قويم ، وسلوك نظيف مستقيم ، شمخت عند الامة وقتها حضارة
عالية اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها .

وان الكتاب والقلم لأعظم عامل في حفظ الافكار ونقلها من السلف
الى الخلف ، ومن أمة الى أخرى عبر العصور والاجيال .

فاذا ضعفت الامة وخفت نجمها وبزها في ميدان المجد والعظمة
غيرها ، بقيت الكتب والاسفار أعظم مورد وأصدق شاهد على سابق
الامة وماضيها .

وان الامة الاسلامية التي بقي لها من زاهر حضارتها ، وشامخ
مجدها رصيد من الثروة الهائلة ومن المعاني والقيم والافكار بحيث
نستطيع ان نجزم معه على ان أمة غيرها لم توازها او تقاربها في ذلك
الميدان الرحب الذي ضاق عنه غيرها .

وان دورة التاريخ وعجلته السائرة حين تدفع العرب والمسلمين اليوم للنهوض وتحتم عليهم الجد والعزيمة لولوج حلبة التقدم والرفق لتوجب عليهم أن يستلهموا تراثهم العظيم ومجدهم العريق ، فلا بقاء لامة قطعت الحاضر عن الماضي ، وبنت دون أساس ضارب في شعاب الزمن وارحاء الاصاله على الحاضر دون الماضي أو العكس .

ولهذا قامت في أرجاء العالم الاسلامي جهود فردية - غالبا - لبعث التراث ونشره ، واهتمت بعض الحكومات العربية بذلك مشكورة وأولته العناية الخاصة .

وفي هذا الميدان عقد اتفاق هام - له ما بعده ان شاء الله - بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الامارات العربية المتحدة الغاية منه تحقيق ونشر بعض عيون هاتك الذخائر التي لا تقدر بثمن ، وكم يكون أبناء العربية وقراءها سعداء اذا كان هذا الاتفاق نقطة انطلاق تحتذى للتعاون بين العرب والمسلمين .

والكتاب الذي نقدمه اليوم هو (الرحلة الحجازية المسماة تاج الفرق في تحية علماء المشرق لمؤلفه خالد بن عيسى البلوى) يعد ثمرة من ثمار هذه الاتفاقية المباركة التي سيثمر ويستمر عطاؤها وانتاجها بحول الله وقوته .

وختاما نسال الله تعالى أن يرعى ملك المغرب الهمام جلالة الحسن الثاني وأخاه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل النهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة اللذين رعىا هذا الفضل الجارى ، والنفع الدائم وأن يوفقهما في ميادين البر والاصلاح وخدمة الاسلام والمسلمين انه نعم المولى ونعم النصير وهو على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير والحمد لله رب العالمين .

صندوق أحياء التراث الاسلامى
المشترك بين حكومة المملكة المغربية
وحكومة الامارات العربية المتحدة

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اشتهر المغاربة والاندلسيون بتأليف كتب الرحلات ، ويرجع ذلك لبعدهم عن مكة المكرمة ، ورغبتهم في أداء فريضة الحج ، والتطلع الى مراكز الثقافة الاسلامية ، ومن أبرز كتب الرحلات المشهورة في الادب العربى ، رحلة البلوى المسماة بتاج المفرق ، لمؤلفها خالد بن عيسى البلوى ، أحد كتاب القرن الثامن الهجرى ، الذى يكاد مؤرخو الفكر المغربى والاندلسى أن يتفقوا على أنه كان قرنا خصب الفكر ، كثير الانتاج عميق البحث ، غير أن ما تبقى بين أيدينا من آثار مفكره ضئيل جدا لا يكاد يذكر بالنسبة لما خلفوه من الانتاج الفكرى فى هذه الحقبة ، ومع ذلك فقد احتفظت لنا الخزائن المغربية بكثير منه وهذا برهان على مدى ما بذله المغاربة من نشاط علمى فى ميدان المعرفة ، وربما كان واجبنا الاول العمل على بعث هذه المخطوطات وابرازها ، لا لنزدهى بمآثر الاقدمين ، بل لان ذلك ضروري لبناء نهضتنا العلمية الحديثة على أساس متين ، وجعل النهضة التى نشيدها امتدادا طبيعيا لماضيها ، ووفاء صادقا لحضارتنا ، وهذا ما دفعنى لنشر ما يمكن نشره من مخطوطاتنا الكثيرة ، وللأسهام بنشر رحلة البلوى ، لانها تؤلف حلقة من سلسلة الرحلات التى عرف بها المغاربة والاندلسيون منذ فجر التاريخ الاسلامى ، فليست هذه الرحلة أقل شأنًا فى جوانبها الجغرافية والتاريخية والادبية والاجتماعية من رحلات ابن رشد وابن بطوطة والعبدرى والعياشى وغيرهم ، بل هى فى بعض جوانبها من أقوى

الرحلات لان مؤلفها كتبها أثناء رحلته الى المشرق فوصف ما شاهد من الاقطار ، وتحدث عن اتصل بهم من الرجال ، وقيّد مذكراته ، وكتب مؤلفه هذا أثناء رحلته ، فلما عاد الى الاندلس نقحها وأطلع عليها رجال الفكر والثقافة ، ومن غريب الصدف أن يكون البلوى رحل في السنوات التي رحل فيها ابن بطوطة ، وكان ابن بطوطة بغرناطة عندما كان المؤلف بلوشانة ، واذا كان ابن بطوطة لم يكتب رحلته أثناء رحلته وانما سجل ملاحظات ضاعت له في سفره ثم أملى رحلته على ابن جزى من ذاكرته ، فان البلوى كتب رحلته بدقة متناهية وبذلك فقد جنبنا بعض الاغلاط التي وقع فيها ابن بطوطة ونستطيع بهذه الرحلة أن نمحص أقوال ابن بطوطة وما ذكره من رجال العلم والتصوف الذين اتصل بهم أثناء سفره ، وهكذا تعتبر رحلة البلوى محكا صادقا لرحلة ابن بطوطة .

ومن جهة أخرى فالكتاب يعطى صورة لصناعة النثر الاندلسي وتطوره في القرن الثامن ، فالـمؤلف أسلوبه الذي ينم عنه ، وهو أسلوب يعتمد على الطريقة الفاضلية في الشكل وأداء المعنى بأسلوب مزخرف ، وتكرار الجملة عنده لا يستوحيه السجع وانما يستوحيه الشرح والبيان ، وهو بالاضافة الى أسلوب ابن الخطيب المشرق ، وأسلوب ابن خلدون المحكم يعتبر أسلوبا له ذاتيته ومكانته .

وأیضا فقد اهتم كثير من المؤرخين بوصف الحياة الفكرية وتجلى عملهم في تراجم الاعلام أما البلوى فأضاف الى هذه الناحية وصف الحياة الاجتماعية اذ هو يعرض لتجربته الخاصة ، واتصالاته برجال الفكر ، والرواية عنهم .

وأخيرا فقد أردت أن أسهم بتحقيق هذه الرحلة في ذلك النشاط العلمی ، الذي تضطلع به جامعاتنا المتوثبة نحو احياء التراث . كما أنني اقتنعت بوجهة نظر مؤلف الرحلة فيما قصد اليه من التأليف ،

ورأيت من واجبي أن أنشر هذا المؤلف لتعم به الفائدة كما أرادها
البلوي إذ يقول : (هذا تقييد ، أطلعه عون من الله وتأييد ، قصدت به
ضبط موارد الرحلة الحجازية ، وذكر معاهد الوجهة المشرقية . وألممت
مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء ، الذين يطئون ذيول
البلاغة ، ويجرون فضول البراعة ، ولهم كلام يتألق منه شعاع الشرق ،
ويترقرق عليه صفاء العقل ، وألمعت بذكر نبذ من فوائدهم ، واختيار
طرف من أناشيدهم . . ثم يقول : دعوت الله أن ينفع به كل من
يلتمس النفع في المطالعة أو الكتابة) ومما سبق نرى أن البلوي ذكر
البلاد التي مر بها وتحدث عن حياتها الحضارية . ثم هو بعد هذا ، عمد
الى التحدث عن مشاهير العلماء بالبلاد التي مر بها . وجالسهم ، واستمع
اليهم واقتبس من آدابهم وعلمهم . وأودع كتابه كثيرا من آثارهم
الادبية ، فالكاتب على هذا موسوعة تاريخية أدبية وجغرافية اجتماعية .
تصف البلاد العربية وصفا صادقا في حقبة معينة . لهذا كان خليقا
بالنشر ، ولهذا لم أتردد في اخراجه الى عالم النور عندما حانت الفرصة
بتحقيقه ونشره .

منهجي فى النشر

كان من الواجب على أن أقابل بين النسخ المختلفة على نحو ما يفعل المحققون كافة ، ثم أعرض للتعريف ببعض الشخصيات التاريخية مستعينا فى ذلك بالمصادر الأصلية ، وأفسر الغامض فى المخطوط – قدر الامكان – من نحو وبلاغة ولغة لان المخطوط عريق فى الادب وفنونه .

ووجب أيضا أن ألقت النظر الى أن بعض الكلمات وأثبتها بما هى فى النسخ المنقول عنها حين تتفق عليها ، ولا شك أن القارئ سينتبه اليها بسهولة ، ولكنى اثبتتها كما هى حفاظا على اتفاق النسخ ، لان الناسخين أخذوا عن النسخة الاولى التى اذا كانت بها هذه الهنات فهى تعطى صورة عن ثقافة حفيد المؤلف .

هذا وعندما كنت أحقق المخطوط خالجتى عدة أفكار ، كتحقيق تراجم بعض الاعلام والكلام على بعض المؤلفات التى يشير اليها البلوى ، وتعاليق عن الاجازات وأثرها فى طريقة التعلم فى المغرب والمشرق وموضوعات أخرى تتعلق بالاماكن التى زارها البلوى ، ولكنى لاحظت أن هذا سيؤدى الى اخراج الكتاب فى جزئين وسأشغل القارئ عن مسامرة الرحالة ، حيث أجره الى الدرس والتفكير بدل أن أدعه يتجول مع البلوى فى رحلته ، لذلك فقد اختصرت من التعاليق جهد الاستطاعة . .

أصول الكتاب

توجد عدد نسخ مخطوطة من كتاب رحلة البلوى ، منتشرة في عدة بلدان عربية وأوربية ، كالمغرب والقاهرة وباريس ولندن واسبانيا .

أما النسخ التي بالمغرب ، فإن (الخزانة العامة) بالرباط تتوفر على نسخ أربع جيدة ، وقد كان جل اعتمادى على هذه النسخ الأربع لا لأنها في متناول الباحث فحسب ، بل لاشتغالها على عدة مميزات ، اذ هى أكثر من سواها وضوحا ، وفصولها كاملة ، واخطاؤها قليلة . وقد دعانى واجب البحث الى الرجوع الى غيرها من النسخ فكثيرا ما رجعت الى نسخة جامعة القرويين كلما اعترضنى ابهام أو الشك بسبب ما ، ومن الضروري أن أعرض بشئ من الايجاز لبيان بعض هذه النسخ الخطية ، مبتدئا بنسخ مكتبة الرباط .

فالنسخة الاولى من هذه النسخ الأربع ، التى نشير اليها فى البحث برقم (1) مكتوبة بخط مغربى حسن مجوهر ملون ، حيث نجد كل صفحة محاطة باطار زخرفى يحتفظ ببهاءه ورونقه ، ولكن مما يدعو الى الاسف أن الارضة قد اعتدت على كثير من الاوراق ، وبهامش هذه النسخة تصحيحات قليلة ، ربما كانت من عمل الناسخ لتشابه الخط بين كتابة النسخة وكتابة هذه التصحيحات .

وطول الصفحة بهذه النسخة (220 مليمترا) وعرضها (175 مليمترا) ، وبكل صفحة 23 سطرا . وبكل سطر 14 كلمة تقريبا ، وتقع النسخة المذكورة فى 132 ورقة ولم يذكر بها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ .

والنسخة الثانية (وهى التى أشرت إليها برقم (2) مكتوبة بخط مغربى حسن ، ومجدولة بطغراء مذهبية ، وتجليدها جيد حسب فن التجليد المغربى التقليدي القديم ، وطول الصفحة بهذه النسخة (28ر0 مليمترا) ، وعرضها (22ر0 مليمترا) . وهى خالية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، كما أن بها وثيقة مذيلة بابتياعها مؤرخة سنة 1297 هجرية ، ونرى بهوامش هذه النسخة تعليقات وتصحيحات قليلة وهى لغير الناسخ ورقمها بخزانة الرباط 65 .

والنسخة الثالثة (التى أشير إليها برقم (3) قد نقلت من الخزانة الكتانية ضمن مجموع من الكتب بالخزانة العامة بالرباط . وهذه النسخة تشتمل على 282 صفحة ، وبكل صفحة 24 سطرا وبكل سطر نحو 12 كلمة . وتمتاز هذه النسخة عن كثير من النسخ بوضوح خطها ووجود ترجمة للبلوى مختصرة ، من كتاب نيل الابتهاج .

ولم يذكر بها اسم الناسخ الذى ذكر أنه نقلها عن مخطوط يوثق به ممن انتصب لذلك سنة 1242 هـ والنسخة مكتوبة بخط مغربى مجوهر مما يدل على أن الناسخ مغربى ورقمها بخزانة الرباط 291 .

والنسخة الرابعة (التى أشير إليها برقم 4) مكتوبة بخط مغربى حسن مجوهر ملون وهى مجدولة بدون طغراء ومجلدة تجليدا مغربيا تقع فى 353 ورقة يشتمل كل منها على 26 سطرا اذ طول الورقة 210 مليمترا . وعرضها 130 مليمترا .

ومن النسخ الهامة لمخطوط هذه الرحلة تلك النسخة التى تحتفظ بها خزانة جامعة القرويين ، اذ أن هذه النسخة — على حد تعبير الناسخ — تمثل نسخة حفيد المؤلف التى عجز الباحثون عن الوصول إليها . ويقول الناسخ : (بلغت المقابلة — على قدر المستطاع — على نسخة حفيد المؤلف خالد بن أحمد الذى أكملها من نسخة جده فى اليوم الواحد والعشرين من شهر صفر سنة 819 هـ) . وهذه النسخة متوسطة الحجم

قد كتبت بخط مغربي على ورق سميك وفي أولها بتر ، ولم يذكر فيها اسم الناسخ . وربما كتبها أكثر من واحد لتغير مدادها وطريقة نسخها . ويشتمل هذا المخطوط على 124 ورقة وفي كل ورقة 23 سطرا وطول الورقة 275 مليمترا . وعرضها 210 مليمترا . وقد عرف « بروكلمان » هذه النسخة وتكلم عنها كما نوه بنسخة مكتبة باريس الأهلية .

كما توجد نسخة من هذا المخطوط بالمكتبة الزيدانية بمكناس قد كتبها كاتب يدعى الحسن بن علي المصطفى بن المختار القرشي . وهو يذكر أنه نقلها من نسخة المؤلف نفسه تلك التي فرغ من كتابتها في اليوم الخامس والعشرين من شهر صفر سنة 776 هـ والناسخ قد نقلها سنة 1269 هـ وإذا صح ذلك كانت نسخة المكتبة الزيدانية ترجع إليها جميع النسخ التي ذكرناها لأنها نقلت رأسا من نسخة المؤلف . إذا يذكر أغلب نقلها سنة 1269 هـ وإذا صح ذلك كانت نسخة المؤلف . إذا يذكر أغلب النساخ أنهم نقلوا أما عن حفيد المؤلف وأما عن نسخ قد نقلت عن نسخة الحفيد . وأن الباحثين لم يعثروا على نسخة الحفيد حتى يومنا هذا ، تلك النسخة التي قد نقل عنها الناسخون ، ومن هنا كانت نسخة المكتبة الزيدانية المنقولة رأسا عن المؤلف — كما يذكر التاريخ — تعويضا لدى الباحثين عن نسخة الحفيد المفقودة الآن .

أما النسخة التي توجد بخزانة القصر الملكي بالرباط فيظهر أنها صورة طبق الاصل من النسخة الثانية الموجودة بالخزانة العامة بالرباط والتي ذكرتها آنفا . كما توجد نسخ شخصية لبعض المهتمين بالرحلات وبخزانة العياشي وغيرها ، وذكرها مؤلف كشف الظنون دون ذكر المؤلف مما يدل على أنها كانت معروفة بخزائن المشرق .

تلك هي بعض الجهود التي بذاتها في سبيل الاطلاع والبحث والمقارنة بين نسخ هذا المخطوط الجليل الذي أرجو أن أكون قد وفقت في نشره نشرًا علميًا جامعا لينتفع به كما انتفع بأصله .

مقدمة

ترجمة البلوي

الجانب التاريخي لرحلة البلوي
الجانب الأدبي في رحلة البلوي
الجانب الجغرافي للرحلة
الجانب الوثائقي للرحلة

معجم

بأسماء المؤلفين المغاربة في فن الرحلات

- قبيلة البلوين .
- من هو أبو البقاء ؟
- نشأة البلوى وتنقلاته .
- دراسة البلوى .
- شيوخ البلوى .
- تأليف البلوى .
- أخلاق البلوى .
- شاعرية البلوى .
- المناصب التي شغلها البلوى .
- اتصالات البلوى .
- رحلات البلوى .
- الرحلة الحجازية .
- مصادر كتاب الرحلة .

قبيلة البلويين

ينتمى خالد بن عيسى البلوي (1) مؤلف الرحلة الى قبيلة البلويين المنتشرة في عدة بلاد اسلامية كجزيرة العرب والاندلس والمغرب وهي قبيلة عربية صميمية من قضاة اليمن (2) هاجرت من اليمن الى الحجاز قبل الاسلام ، وفي ظلال هذا الدين نامت الدعوة الاسلامية وكانت من أنصار الرسول عليه السلام وكتب لها شرف المشاركة في عدة غزوات وكان منها الانصاري كعب بن عجرة بن عدى رضى الله عنه والمجذر بن زياد الذي أظهر بطولة نادرة يوم بدر وعبد الله بن سلمة والنعمان بن عمرو بن عبيد بن وائلة البلوي البصري .

ومن أعلام البلويين الاندلسيين أبو عامر محمد بن عامر البلوي الطرطوشي (3) صاحب كتاب الشفاء في الطب ومنهم الأديب الشهير أبو يحيى البلوي الغرناطي الذي اتصل بلسان الدين بن الخطيب ، ومدحه بقصائد عدة منها لاميته التي مطلعها :

عللوني ولو بوعد محال وصلوني ولو بطيف خيال
ورائيته التي مطلعها :

لا عذر بي عن خدمة الاعذار ولئن نأي وطني وشط مزارعي
ومنهم القاضي الخطيب علي ابن أحمد بن داود البلوي الغرناطي الذي ارتحل الى تلمسان ثم الى المشرق فرارا من سوء حالة الاندلس في تلك الحقبة .

(1) البلوي : مفرد بلى كعلی ، والبليّة الناقة يموت صاحبها فتشد الى قبره حتى تموت .

(2) ابن حزم (جمهرة انساب) العرب تحقيق بروفنصال (واللباب) في تهذيب الانساب لابن الاثير ج 1 ص 144 .

(3) توفى سنة 559 وهو غير أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي المتوفى (520 هـ 1126 م) صاحب كتاب سراج الملوك .

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله البلوي ولد سنة 552 وتوفي سنة 623 ، نسبه ابن الآبار (1) الى بلسنة ونسبه الرعيني (2) الى قرطبة وقال كان سلفه يعرفون فيها ببني علي ، وكان عدلا موثقاً .

ومنهم أبو محمد عبد الصمد بن أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي الرجاء البلوي ولد سنة 534 وتوفي سنة 619 (3) ومن مشاهير بيت خالد بن عيسى البلوي نفسه أخوه القاضي أبو بكر محمد بن عيسى البلوي والقاضي أحمد وحفيده القاضي علي بن أحمد بن خالد الذي قام بجهد مشكور في نسخ الرحلة الحجازية ومن مشاهير البلويين بالمغرب أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي الشاعر السبتي (4) وعبد الله الشيبيني البلوي القيرواني (5) وأبو الحسن علي بن عثمان البلوي الملقب بالاشج المغربي (6) وقاضي الجماعة بتونس محمد بن عبد الرحمان البلوي (7) والشاعر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أبي زكى البلوي ، من رجال القرن الثامن ، كان صديقاً للتجاني (8) .

(4) التكملة لابن الآبار ، ج 2 .

(5) برنامج شيوخ الرعيني المتوفى سنة 666 طبعة دمشق وتحقيق إبراهيم مشيوخ .

(6) ابن الآبار التكملة ج 2 ص 646 وبرنامج شيوخ الرعيني ص 153 .

(7) روى ابن حزم في طوق الحمامة انه كان يحتاز الطريق مع عبد الرحمن بن سليمان البلوي الشاعر السبتي فأنشد (اى السبتي) لنفسه :
سريع الى ظهر الطريق وانه الى نقض اسباب المودة أسرع

(8) هو فتى القيروان القاضي عبد الله الشيبيني المتوفى سنة 782 هـ .

(9) بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ص 125 .

(10) من الوضاعين في الحديث الشريف ، وقد ادعى السماع عن علي بن أبي طالب توفي سنة 782 هـ .

(11) رحلة التجاني ص 228 .

من هو أبو البقاء البلوي ؟

أبو البقاء البلوي شخصية فذة مشهورة لدى المؤرخين المغاربة والاندلسيين ، فقد ترجم له معاصره ابن الخطيب في غير ما كتاب من كتبه ، كما ترجم له ابن القاضى فى الجذوة ، وذرة الحجال ، وترجم له أحمد بابا التمبكتى فى نيل الابتهاج ، ومخلوف فى شجرة النور الزكية ، فأحمد بابا التمبكتى قال عنه : (1) هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد البلوي الفتوري ، أبو البقاء علم الدين بالامام القاضى الفاضل قال عنه فى الاحاطة من أهل الفضل ، كثير التواضع والخلق الحسن ، جميل العشرة ، محب الادب قضى ببلده وغيرها وقيد رحلته فى سفره ووصف فيها البلاد ومن لقي وكتب بتونس عن أميرها قليلا وهو الآن قاض ببعض البلاد الشرقية من الاندلس . . . ونقل أحمد بابا عن غير ابن الخطيب أنه ارتسم بديوان الكتابة بتونس عن أميرها زمنا يسيرا وكان يتشبه بالمشاركة شكلا ولسانا وصبغ لحيته بالحناء والكتم (2) . وقال عنه الحضرمي (3) هو صاحبنا الفقيه الاجل القاضى العدل الحاج المتخلق الحبيب الاديب المتقن العالم الفاضل ، وقال عنه ابن القاضى (4) خالد بن عيسى بن أحمد بن أبى خالد البلوي صاحب الرحلة رحل ولقى أعلاما وأخذ عنهم . . . ورحلته كانت سنة سبع وثلاثين وسبعمائة (737 هـ) أخذ عن الصفدى وغيره ممن يطول ذكره .

(12) نيل الابتهاج ص (99) .

(13) الكتّم : الحناء .

(14) أبو عبد الله الحضرمي ينقل عنه صاحب النيل وقال عنه مرة أنه كان صاحب البلوى مؤلف الرحلة توفى سنة 747 .

(15) أنظر ذرة الحجال فى أسماء الرجال . الجزء الاول ص 141 طبعة الرباط .

ووصفه الشاطبي بقوله : هو الشيخ الفقيه القاضي الاعدل .
وترجم له المقرئ (1) ونقل فقرات من رحلته ووصفها بقوله أنها (مشحونة
بالفوائد والفرائد وفيها من العلوم والآداب ما يتجاوزة الرائد ، وقال
عنه ابن مخلوف (2) القاضي أبو البقاء علم الدين خالد بن عيسى البلوي
« القنطوري » الاندلسي العالم الكامل المتفنن الفاضل الكاتب الرحلة
الاربيب المطلع الاديب كتب بتونس شيئاً يسيراً على أميرها وولى
قضاء الجهات بالاندلس ، أخذ عن والده وعبد العزيز الغوري وابن
رشيد وعبد المومن الجاناتي وعبد الرحمن الجزولي وابنه محمد وأبى
موسى ابن الامام وأبى عمران المشذالى وأبى عبد السلام وابن هارون
وابن بدال البراء ترجم شيوخه في رحلته وأطال الثناء عليهم وغالبهم
اجازه اجازة عامة وأخذ أيضاً عن ابن الستار وعيسى بن مخلوف
المغيلي وابن عمر وغيرهم مما هو كثير ، رحل وأفاد واستفاد من
أعلام أهل المشرق والمغرب ، ألف رحلته المسماة تاج المفرق في تحلية علماء
المشرق مشحونة بالفوائد والفرائد وفيها من الادب والعلوم ما لا يتجاوزة
الرائد كان حيا سنة 755 .

وقال ابن القاضي (3) أن خالد بن عيسى بن أحمد بن أبى خالد
البلوي من أهل غبتورية من حصون وادى المنصورة ، وانه كان من أهل
الفضل كثير التواضع قال في بعض من تقاييده ومن خطه نقلت ، قرأت
بفاس على عبد العزيز بن محمد الغورى الفقيه الصالح وعلى أبى
العباس بن شعيب الجزنائى وعبد المومن الجاناتي وعبد الرحمن الجزولي
كثيراً من الرسالة والتهذيب وعلى ابنه العالم محمد . . وأخذ بتلمسان

(16) نفع الطيب ج 9

(17) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية « الجزء الاول ص 227 » (المطبعة
الملكية) .

(18) جذوة الاقتباس في من حل من الاعلام مدينة فاس (ص 517) مخطوط 5
رقم 1242 الرباط .

عن أبي موسى بن الامام والقاضي منصور بن هدية ، وعن موسى
المشارك والقاضي أبي عبد الله عبد النور قال سألتني الاخ الاجل
الناظم الناصر الابرع أبو جعفر أحمد بن زرقة أن أذكر له من
أشياخي الادلسيين فمنهم بفرناطة محمد ابن عاصم القيسي وكانت
أكثر روايته عن جده لأمه الامام الحافظ عبد المنعم ابن سماك وعن
أبي اسحاق بن جابر وأبي القاسم بن محمد بن أبي العافية وأبي عامر
ابن أرقم وأبي محمد بن الصائغ وأبي جعفر بن صفوان وأبي عبد
الله بن العربي وأحمد بن قاسم الشهير بالبغيل وعن خطيب سبته أبي
عبد الله بن خميس . . وحج وقيد رحلته في سفره وصف فيها البلاد
ومن لقي ، جلب أكثرها من كلام العماد الاصبهاني . وارتسم البلوي
في تونس في الكتابة عند أميرها زمانا يسيرا وكان يتشبه بالمشاركة شكلا
ولسانا ويصنع رأسه بالحناء والكتم ولم أقف على سنة وفاته .

وتحدث ابن الخطيب عن البلوي في رحلته المسماة بخطر الطيف
في رحلة الشتاء والصيف التي كتبها في محرم سنة 748 هـ وهي رحلة
الى الاندلس مع السلطان يوسف ابن الحجاج الى وادي آش وبسيطة
وقالش ، وبرشانة والمريية ومرشانة ولورسانة وقدم لنا ابن
الخطيب (1) صورة عن خالد بن عيسى بن ابراهيم بن أبي خالد
البلوي فقال عنه : هذا الرجل من أهل الفضل والسذاجة كثير التواضع
منحط في ذمة التخلق نابه الهيئة ، حسن الاخلاق جميل العشرة ، محبوب
في الادب قضى ببلده وبغيرها وحج وقيد رحلته في سفر وصف فيه

(19) خطره الطيف في رحلة الشتاء والصيف : رسالة كتبها ابن الخطيب سنة
748 يصف فيها رحلة قام بها مع السلطان يوسف ابن الحجاج في محرم السنة
المذكورة وزار فيها عدة مدن اندلسية مثل بسيطة ووادي آش والحماسة ،
وتالش ، وبرشانة ، والمريية ، ومرشانة ، ولورسانة وغيرها . وقد كتبه
باسلوب مشجع جزل توجد نسخة منه بالاسكوريال المخطوط رقم 470 .
انظر الاحاطة (ص 75) تحقيق محمد عبد الله عنان طبعة دار المعارف
بمصر .

البلاد ، ومن لقيه بفصول جاب أكثرها من كلام العماد الاصبهانى وصفوان وغيرهما عن ملح ، وقفل الى الاندلس ، وارتسم في تونس بالكتابة عن أميرها زمانا يسيرا ، وهو الآن قاض ببعض الجهات الشرقية وجرى ذكره في الرحلة التي صدرت عنه في صحبة الركاب السلطاني عند تفقد البلاد الشرقية في فصل حفظه الناس وأجروه في غكاهاتهم . ويروي ابن الخطيب (2) هذا الفصل قائلا : حتى اذا أصبح تبليج ، والفجر من المشرق تولج ، سرنا وتوفيق الله لنا قائد وكفنا من عنايته صالة وعائد ، تتلقى ركابنا الاغواج ، وتحيينا الهضاب والهضاب والفجاج الى قنتورية .

فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال ، قريية البكر والآصال، كان المبيت بازاء قلعتها السامية الارتفاع الشهيرة بالامتناع ، وقد برز أهلها في العديد والعدة ، والاحتفال الذي قدم به العهد على طول المدة ، صفوفا بتلك البقعة خيلا ورجالا ، كشطرنج الرقعة ، لم يتخلف ولد عن والد ، وركب قاضيها ابن أبى خالد ، وقد شهرته النزعة الحجازية وليس عن خشن الحجازية ، وأرخى من البياض طيلسانا ، وتشبهه بالمشاركة شكلا ولسانا ، وصبغ لحيته بالحناء والكتم ، ولاث عمامته واختتم ، والبدواة تسمه على الخرطوم ، وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمال المخطوم ، فداعبته مداعبة الاديب والاريب وخيرته بين خطتين ، وقلت نظمت مقطوعتين أحدهما مدح والاخرى قدح ، فان همت ديمتك وكرمت شيمتك فللذين أحسنوا الحسنى ، والا فالمثل الادنى ، قال انشدنى لارى على أي أمر تبيت ، واغرق بين ما جنيتنى وما جنيت فقلت :

فألوا وقد عظمت مبرة خالد قارى الضيوف بطارف وبتالد

ماذا تمت به ، فجئت بحجة قطعت بكل مجادل ومجاد
ان يفترق نسب يؤلف بيننا أدب اقمناه مقام الوالد

وأما الثانية :

فيكفى من البرق شعاعه ، وحسبك من شر سماعه ، ويسير
التشبيه كاف عن التشبيه ، قال لست الى قرأى بذى حاجة واذا عزمت
فأصالحك على دجاجة ، فقلت ضريبة غريبة ومؤنة قريية ، عجل ولا
تؤجل وان أضرم أمر النهار أسجل ، فلم يكن الاكلاولا ، وأعوانه من
من القلعة تتحدر ، والبشير منهم بقدومها يبتدر ، يزفونها كالعروس
فوق الرؤوس فمن قائل يقول أمها يمانية ، وآخر يقول أخوها الموجه
الى الحضرة العالية ، وأذنوا مرابطها من المشرب بعد صلاة المغرب ،
وألحوا في السؤال ، ونشبوا في طلب السؤال ، غقلت يا بنى اللكيعة لو
جئتم ببازي فبماذا كنت أجازي فانصرفوا ، وما كادوا يفعلون وأقبل
بعضهم على بعض يتلاومون ، حتى اذا سلت الى ذبحها المدى وبلغت من
طول أعمارها المدى ، قلت : يا قوم ظفرتم بقرة العين وأبشروا باللقاء ،
فقد ذبحت لكم غراب البين ، ولقد بلغنى أنه لهذا العهد بعد أن طال
المدى يتظلم من ذلك وينطوى من أجله على الوجدة فكتبت اليه ، وصل
الله عزة الفقيه النبيه العديم النظير والتشبيه وأرث العدالة من عمه
وابن أبيه في عزة تظله ، وبلاغة تتوج جاهه وتكلله (1) . وقال عنه في
ريحانة الكتاب (1) فايز من الابداع بمل مطلوب ، ومستميل اسماع
وقلوب وفصيح بادية ، وفي البداوة حسن غير مجلوب ، قدح قريحته
الوقادة وراض صعب الكلام فأعطاه المقادة ، فتألق بذلك الألفق تألق
البرق ، وطلع بتلك الجهة الشرقية ولا ينكر النور على الشرق ، فشرف

(21) ورقات مخطوط الريحانة خزانة (الحسن السائح)
(22) تحقيق الدكتور احسان عباس . ج 1 ص 134 مطبعة دار الثقافة ببيروت .

في قومه ، وأصبح فيه أمسه مناعسا ليومه ، الى بلاغة تتحلى بها صفات المهارق ، وعفاف حتى عن الخيال الطارق ، ورحل في هذا العهد القريب وقد أصبح بحسن ضرايبه عديم الضريب ، فاقتحم فرضة المجاز ، الى مثابة الحجاز ، فمقضى وطره من تلك المشاهد ، وتبرك بقاء من بها من عالم أو زاهد ، وقفل وقد دون رحلة سفره ، وزها بها زهو الجفن بغنجه والخذ بخفره ، وأجاز بالبلاد الموحدية ، فدعته الى خدمة بابها ، وقلدته رياسة كتابها غاينع روضه وأثمر ، وحل بهالتها فأضاء وأبدر ، ولم يكن الا كلاولا ، حتى جذب الشوق برسنه ، وطار به الوجد الى وطنه ، فأسرع اللحاق ، وآثر على النور المحاق ، وعلى ذلك فقد ولى ببلدته قضاءها وتقلد انقاد الاحكام وامضاءها رحمه الله .

وقال عنه ابن الخطيب في الكتيبة الكامنة (2) فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المئة الثامنة (التي ألفها في جمادى الآخرة عام 774 (3) :

القاضي أبو يزيد خالد بن عيسى بن أحمد القتوري البلوي : صاحبنا ، هذا الرجل كالجمل المحتمل يربيك مجموعته ، ويهولك مرثيه ومسموعه ، غاذا زمزم الحادي سالت من الرقة دموعه فظاهره جسم جسيم ، وللزرافة قسيم ، وباطنه في اللطافة نسيم ، وروض يرتاده نسيم سكن البادية خيرا عفيفا ، ومن المؤن خفيفا ، يرتاح الى عقائل الآداب ارتياح قيس الى ليلى ، ويميل به الضبط الى الاغتباط ميلا ، وكلما ظفر بها يوما أو ليلا ، طفف كيلا ، وجمع ثريا وسهيلا ، ثم راح الى المشرق ، وعثا الى روحه المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق وغفلة من الزمان المطرق ، فحج وزار ، وطرح الاوزار ، واستسقى السحب الغزار ، ودون رحلته فأحسن وأطرف ، وحلى وعرف ، وقفل

(23) مقدمة الكتيبة الكامنة للدكتور احسان عباس ص 15 .

(24) انظر الاحاطة

مغربا بتشريقه ، وكتب عن بعض الملوك الكبار بطريقه ، ثم ارتسم في حزب القضاء وفريقه ، وأدبه مشتمل على نشر ونظم ، ولنثره على نظمه شغوف ، والى اللحاق بذى الاجادة خفوف .

أما المستشرقون فقد ترجم له هنرى دوكاستر فى ترجمة كتاب النفحة المسكية فى السفارة التركية (1) وذكره ضمن من أخذ عنه التكرورتى فى رحلته ، وبعد أن عرف بنسبته الى البلويين وهى — أسرة مجيدة فى اشبيلية . قال : ان المعلومات عن حياته ضئيلة والمقرى وحده هو الذى روى انا خبرا عنه مقرونا بتاريخ . فقد ذكر أنه كان بتونس فى العيد الكبير سنة 737 هجرية الموافق 1337 ميلادية (ولا يخفى أن هذا التاريخ مأخوذ من الرحلة وليس عن المقرى) ويقول دوكاستري بأن وظيفة القضاء لم تمنعه من الاشتغال بالادب ومخالطة شعراء الاندلس الذين يتدرون لطفه ودمائه وقد حج وزار عواصم الشرق كما هى عادة المثقفين المغاربة الذين كانوا يقيمون بمراكز الثقافة ليتابعوا دراستهم عن الاساتذة المشهورين ، وبعد رجوعه الى بلاده كتب رحلة تاج المفرق حيث وصف الاقطار التى زارها . وترجم لمن اتصل بهم من العلماء فجاء كتابه خليطا من الادب والعلم والفقه وغير ذلك حسب الاسلوب المتبع فى تلك العصور وتحدث عنه كما تحدث عنه بروكلمان

(25) انظر النفحة المسكية ، ترجمة دوكاستري B. Decastre باريس 1929
(26) انظر ص 330

نشأة البلوى وتنقلاته

لا نعرف شيئاً عن طفولة البلوي ، وكل ما نعرف عنه هو أنه ولد بقتورية (1) التي كان والده قاضياً بها والغالب أنه ولد حوالي سنة 713 تقريباً ، لأنه عندما رحل الى بلاد المشرق سنة 736 كان شاباً في مقتبل العمر ، وقد تعود الرحالون المغاربة أن يغادروا مسقط رأسهم وهم في فجر شبابه ، فان الادريسي غادر سبته وهو دون العشرين وابن رشيد رحل وهو ابن ست وعشرين سنة وابن بطوطة سافر وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، لذلك فالبلوي حين سافر الى

(28) ويسمى ابن القاضي قبتورية (بالباء) و في معجم البلدان لياقوت الحموي ان أن فتور جزيرة ينتمى اليها سعيد بن محمد بن شعيب الانصارى الاديب الخطيب بجزيرة قبتور كما في ابن بشكوال ، وفي نسخة الاحاطة المطبوعة بالقاهرة انها قنتورية (النون) وقد علق على ذلك الاستاذ محمد عبد الله عنان بقوله : انها قنتورية المسماة بالاسبانية (كنطورية وهي بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية تقع على نهر المنصورة على مقربة من بلدة المنصورة . وقال في مكان آخر (وادي المنصورة) : وهي المنطقة الواقعة على النهر الذي يخترق شمال ولاية المرية بين برشانة ومدينة المنصورة الواقعة على هذا النهر .. ويسمى ابن الخطيب في معيار الاختيار قتورية بالتشديد كما في مشاهدات لسان الدين للدكتور العبادي ص 36 ، ويقول دوكانستري في مقدمة (النفحة المسكية) انها هي المسماة اليوم كنطورية (Cantoria) من أعمال المرية على الضفة الشمالية ، وهي طبعا مسقط رأس البلوي . واذا فقنتورية كما وردت في سائر النسخ التي بين ايدينا عن الرحلة هي قنتورية كما يقول ابن الخطيب فلا يبعد انها كانت تكتب تارة بالنون وتارة بدونه . على أن ابن الزبير يسميها كبتورية كما فعل في ترجمته لابن الاصبغ الكبتوري ، فكتبها بالكاف وهي من قرى اشبيلية ولا شك انها هي (فتورية) ، وقد وهم أحمد يوسف فجعلها من حصون وادي المنصورة بنواحي القيروان وهو خطأ ظاهر .

المشرق لم يكن الا في هذه السن تقريبا ، جاوز سن الطلب إلى سن الاتصال بالعلماء والرواية عنهم ويدل على هذا أن رفيقه في الدراسة وهو ابراهيم بن عبد الله بن الحاج النميري الذي رحل مثله الى الشرق ولد سنة 713 . كما أن ابن الخطيب قال عنه في الكثيبة الكامنة : ثم راح الى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق .

أما وفاته فقد جعلها بعض المؤرخين (1) سنة 765 هـ (1364 م) ويظهر أن ذلك غير صحيح لان المؤلف أتم كتابة رحلته في اليوم الاخير من شهر ربيع الاول عام 767 ببرشانة ، واذا فقد عاش بعد هذا التقدير على أن من المحقق أنه توفي قبل 680 لان ابن الخطيب ذكره في الريحانة التي ألفت سنة 680 وترحم عليه .

وقد نشأ البلوي في أسرة علمية متدينة حيث تلقى تربية صالحة فأخذ عن والده بقتورية ، ثم رحل الى غرناطة ودرس بها وكان من أصدقائه بها الرحالة ابن الحاج النميري الذي أصبح من كتاب الدولة المرينية كما كان من أصدقائه بالاندلس الكاتب أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمي (2) الذي وصف البلوي بالعلم والفضل وحسن الخلق وقد اهتم به وترجم له في فهرسته وجاء في كتاب فهرس الفهارس لدى ذكر ترجمته لعبد المهيم الحضرمي المتوفى سنة 747 هـ بأن هناك حضرميا آخر يعرف بأبي عبد الله كان صاحب البلوي . ثم رحل

(29) انظر قاموس الاعلام المزركلي ج 1 ص 67 .

(30) حلاه المترجمون بالفقيه المحدث ويستفاد من قائمة كتبه انه كان اديبا ومن كتبه تائيس ارباب الاستجمام بما قيد من الاشعار في الحمام ، وكتاب في مشكل اعراب الاشعار الجاهلية الستة في سفر متوسط والدر النفيس من شعر ابن خميس . ازهار الرياض (ج 2 ص 81) وذكره بعض المترجمين في ترجمة شمس الدين عبد الله محمد الراعي شارح الالفية لابن مالك وصاحب النوازل النحوية الذي اخذ عن الماتوري الشهير شارح مقدمة ابن ابراهيم عن الخطيب أبي جعفر أحمد بن سالم الجذامي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمي عن مؤلفها أبي عبد الله ابن ابراهيم .

مترجمنا للدرس وتلقى العلم بغرب العدو (أى المغرب الأقصى) حيث
أخذ بفاس عن عدة علماء كما ذكر ابن القاضى وغيره ثم عاد الى
قتورية وبعد ذلك رحل الى المشرق استزادة للعلم واستجازة للعلماء
الكبار ، وبعد عودته الى الاندلس أصبح من رجال الفقه والادب ، فولى
القضاء بمدينة قتورية كما ذكر ابن الخطيب فى (الريحانة) وفى (خطرة
الطيف ورحلة الشتاء والصيف) (3) ثم انتقل الى القضاء ببرشانة التى
أتم فيها كتابة الرحلة .

دراسة البلوي

تلقى البلوي العلم بمسقط رأسه (قتورية) فأخذ أولا عن والده (1) القرآن ومبادئ العربية ثم درس القراءات السبعة عن اثني عشر شيخا وكان الاندلسيون يولون عام التجويد عناية كبرى ، وذكر البلوي أن هذا العلم تسلسل في سبعة من أجداده كما أخذ عن والده لامية حرز الاماني من نظم أبي القاسم بن فيرة الشاطبي وأخذ عنه أسانيد حديثية ، ومعلومات في اللغة والعربية ثم أخذ عن أبي الحباب وأبي عبد الله بن عبد السلام وأبي عبد الله عمر كما تقدم . . . وأخذ بغرناطة عن محمد بن محمد بن عاصم القيسي وغيره ، ودرس بالمسجد الاعظم بمالقة على ابن عبد الله محمد بن أحمد الهاشمي الطنجالي ، ويذكر أحمد بابا (2) أن أبا البقاء أخذ بفاس عن الشيخ عبد العزيز القوري وأبي العباس ابن شعيب الجزنائي وعبد المؤمن الجناتي ، ويذكر البلوي في ترجمته لابن الصائغ أنه أخذ ببلاد المغرب كتب التيسير عن كثير من العلماء ، وعن أبي عبد الرحمن الجزولي وأبي عبد الله بن عبد الكريم حيث سمع عن الجزولي كثيرا من الرسالة والتهذيب ، كما تلقى العلم على ابنه العالم أبي عبد الله محمد الجزولي . . . وأخذ بتلمسان عن أبي موسى ابن الامام (3) وقاضي الجماعة أبي

(32) لم يذكر البلوي تاريخ وفاة أبيه وإنما ذكر ان ولادة أبيه كانت سنة 668 ولا شك ان وفاته كانت قبل الرحلة لانه اذا ذكره في رحلته ترجم عليه كما ان والده كان على قيد الحياة سنة 730 لانه قرا عليه كتاب الصلاة من الموطأ في هذا التاريخ .

(33) نيل الابتهاج ص 99 .

(34) احد الاخوين المشهورين بابني الامام اصلهما بن برشك من أعمال تلمسان واسم الاكبر ابو زيد عبد الرحمن ، والاصغر ابو موسى عيسى ، انتقلا لتونس في المائة السابعة واخذا عن ابن زيتون .

على منصور بن هدية ، وأبى عمران موسى المشدالي والقاضى أبى عبد
النور (4) . . كما أخذ عن أئمة تونس وبالاخص ابن عبد السلام ، وابن
برال وأخذ عن علماء القاهرة والاسكندرية والقدس وجلهم تأثروا
بالدراسة التى انتشرت فى الشرق بعد تأسيس المدرسة النظامية (1)
وكان البلوي حر التفكير يميل الى الاجتهاد كما ذكر فى ترجمته لابن
هارون التونسى وزيادة على ثقافته الفكرية فقد كان يحسن السباحة ،
فاذا اضطر لركوب أهوال البحر اعتمد على نفسه فسبح (بسبب ما
أنعم الله على من معرفة السباحة والعلوم (2) كما كان يجيد الفروسية
حيث تعلم النزال والضرب وأساليب الحرب .

شيوخ البلوي

ويحسن أن نتناول بايجاز ترجمة أعيان العلماء والادباء الذين
أخذ عنهم البلوي واستفاد من علمهم بصفة مباشرة أو غير مباشرة ،
وذكرهم المترجمون له بوصفهم أساتذته ، وأولهم أبو عبد الله محمد
محمد بن خميس الحجري التلمساني الامام الاديب المتفنن خطيب سبته
المشهور كان من فحول الشعراء ، وأعلام البلغاء . وقد ذكره المقرئ فى
نفح الطيب كما ذكره فى أزهار الرياض وروى له قصيدته :

(35) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور من ندرومة — كان فقيها مشهورا
(انظر التعريف لابن خلدون ص 47) .

(36) التقى البلوي بمدرسى المدرسة الناصرية والفاضلية والفحمية فى مصر
والمدرسة الصالحية والافضلية والنحرية والميمونية فى بيت المقدس والمدرسة
المنتصرة فى طرابلس التى بنيت على يد الفقيه أبى محمد عبد الحميد بن أبى
البركات بن أبى الدنيا (عنوان الدراية ص 64 وتاريخ الزركشى ص 34
ورحلة التجانى ص 253) .

(37) انظر الاحاطة المخطوط ص 18 — (نفح الطيب الجزء الاول) والتعريف
ص 40 .

عجبا لها أيدوق طعم وصالها من لا يؤمل أن يمر ببابها
وأثنى عليه ابن دقيق العيد وقد أخذ عنه محمد بن الفخار وتوفي
قتيلا سنة 708 هـ .

ومن شيوخ البلوي عيسى بن مخلوف بن عيسى المغيلي ، وقد
ذكره ابن فرحون . فقال انه كان من فضلاء المالكية وأعيانهم بمصر ،
وأنه ولي القضاء بها فحمدت سيرته وكانت وفاته سنة 746 هـ وأخذ عنه
البلوي بمصر حيث أجازاه (3) وفي شجرة النور الزكية أنه أخذ عن
الناصر المشد الى وأخذ عنه ابن مرزوق وخالد البلوي .

ومن العلماء الذين أخذ عنهم البلوي محمد بن جعفر بن يوسف
بن مشتمل الاسلمى البليانى قال الحضرمى فى فهرسته هو شيخنا
الراوية القاضى أبو عبد الله من أهل الخير كان متمعنا فى التوثيق وولى
قضاء غربى مالقة ولد سنة 668 هـ وتوفى سنة 736 هـ (1) .

ومن هؤلاء ابن عامر بن أرقم من أهل غرناطة وهو محمد بن عبد
العظيم بن أرقم النميرى من أهل واد آش كان فقيها وشاعرا ، وله
قصيدة فى مدح ابن العزفى يذكر ظفره بالاسطول ويشيد بما حازه من
نصر على الاعداء توفى سنة 740 هـ (2) .

ومن العلماء الذين أخذ عنهم أبو محمد بن الصائغ عن
علماء غرناطة ، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمير ،

(38) انظر النيل ص 10ق1 شجرة النور الزكية ص 220 .

(39) انظر ترجمته فى الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص 67 .

(40) انظر الاحاطة المخطوط ص 14 ج 7 .

ويعرف بابن الصائغ أصله من المرية . وكان طيب العشرة ، شاعرا
ملحنا توفي سنة 750 هـ (3) .

ومن شيوخ البلوي أبو جعفر بن صفوان من علماء غرناطة وهو
محمد بن أحمد بن حسين بن يحيى ابن صفوان كان فقيها شاعرا
ألف بإشارة أبي الحجاج كتابا في التصوف واصطلاحات القوم وتوفى
سنة 749 هـ (1) .

ومنهم أبو عبد الله بن العربي من علماء غرناطة وهو محمد بن
علي بن عمر بن يحيى بن العربي الغساني أخذ عن أبي العيش وأبي
جعفر ابن الزبير وأبي جعفر ابن الزيات ولد سنة 682 وتوفى
سنة 748 .

ومنهم أحمد بن قاسم الشهير بالبقيل (2) من علماء (غرناطة)
وفي الريحانة ذكر لابي جعفر المعروف بالبقيل من أهل المرية فهل هو
هذا أم غيره ومنهم عبد العزيز بن محمد القوري من علماء فاس وهو
فقيه من أصحاب الشيخ أبي الحسن الصغير قال المقرئ هو أكبر
تلامذة أبي الحسن علما وأدبا وقال ابن مرزوق الحفيد أن تقايبه
على المدونة من أحسن التقايب ، روى له ابن الخطيب القسنطى فى
رحلته قصة اصطدامه الوعظى مع السلطان أبي الحسن المرينى
توفى سنة 750 .

ومنهم عبد المومن الجناتى (3) من علماء فاس وهو أبو فارس
عبد المومن بن محمد الجناتى الفاسى الامام الفقيه العالم ، الشيخ

(41) انظر الاحاطة المخطوط ج 7 ص 39 ، والكتيبة ص 88 .

(42) انظر الاحاطة ص 167 ج 7 طبعة مصر والكتيبة لابن الخطيب .

(43) انظر الاحاطة ص 117 المخطوط ج 7 .

(44) انظر نيل الابتهاج ص 156 .

أعلم الناس بالمدونة أخذ عن أبي الحسن الصغير وجلس مجلسه توفي
سنة 746 هـ .

ومنهم عبد الرحمن الجزولي من علماء (فاس) وهو فقيه له
تقايد مشهورة على الرسالة وحافظ كبير عاصر السلطان أبا الحسن
المريني الذي كان يقدره ويجالسه مات سنة (741) بعد رجوع أبي
الحسن من موقعة طريف (1) .

ومنهم القاضي شرف الدين يحيى بن مخلوف بن يحيى المغيلي
أخذ عنه أبي مرزوق وخالد البلوي مختصر الجلاب توفي سنة
746 هـ (2) .

وأبو العباس الجزنائي أحمد بن شعيب التازي الفاسي قال ابن
ابن خلدون برع في اللسان والادب ، والعلوم العقلية من فلسفة وتعاليم
وطب وغيرهما وله شعر يسابق به فحول المتقدمين والمتأخرين وله
الامامة في نقد الشعر وقال ابن الخطيب (3) انه دخل غرناطة على عهد
السابع من ملوكها الامير محمد في بعض شؤونه وحقق له تغيير أمر
الادوية المنفردة . كتب لابي الحسن المريني وتوفي بتونس سنة 750 .

ومنهم (محمد بن عبد الرحمن الجزولي) قاضي فاس وعالمها
العالم الفقيه العمدة أخذ عن مشيخة بلده ودخل تونس وأخذ عن أبي
عبد الرفيق وأبي عبد الله النفزاوي وأخذ عنه ابن خلدون والخطيب ابن
مرزوق وأبو عبد الله الكرسوطي توفي سنة 758 (4) .

(45) انظر النيل ص 138 .

(46) انظر الشجرة ص 220 .

(47) الاحاطة ج 1 ص 28 ، والتعريف لابن خلدون .

(48) النيل ص 249 .

ومنهم محمد ابن عاصم القيسي الغرناطى والد ابن عاصم صاحب التحفة المشهورة الذى ولد سنة 760 هجرية .

ومنهم عبد المنعم بن سماك الغرناطى وهو عبد المنعم بن سالم ابن عبد الله بن سماك العاملى الوزير أخذ عن أبى الحسن سهل بن محمد بن مالك الازدى وقرأ عليه بعض كتاب الجواهر لابن شاس وعن عامر يحيى الاشعري وله فهرسة . (انظر الاحاطة المخطوط) والريحانة كذلك .

والقاضى محمد بن ابراهيم التميمى ، وضع خطه باجازته سنة 696 وقد كان حيا فى هذا التاريخ (1) وأبو اسحاق بن جابر الغرناطى وأبو جابر مشهور بكنيته توفى سنة 776 (2) .

وأبو القاسم بن أبى العافية وهو محمد ابن أحمد (ابن العافية) ، ترجم له فى الروض الهمتون وهو المعروف بالاحول المكناسى كان عيبة نصح للشيخ القورى وانتفع به (3) .

ويحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله أبو زكرياء الصنهاجى وجيه الدين المالكى قاضى المالكية بالاسكندرية ذكره البلوى فى الرحلة واثنى عليه ، ولد سنة 667 هـ .

والقاضى منصور بن هدية منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالى ترجم له الغبرينى فى الرحلة وهو فقيه مفسر أصولى ووصفه العبدري بأنه غير معتن بالرواية (4) توفى سنة 731 .

(49) انظر درة الحجال ج 2 ص 40 .

(50) نيل الابتهاج 277 .

(51) انظر نيل الابتهاج .

(52) انظر نيل الابتهاج 377 (والشجرة ص 76)

والقاضي أبو عبد الله بن عبد النور وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله القاضي فاس - وقاضي عسكر أبي الحسن المريني كان اماما مبرزاً في الفقه على مذهب مالك تفقه على الاخوين ابني الامام وعنه أخذ جماعة من أعيان تونس حين قدم مع عسكر الامير المذكور وبينهم ابن خلدون توفي بتونس بالطاعون الجارف سنة 749 (5) .

وابنا موسى بن الامام وهما اخوان الاول أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله ابن الامام التلمساني الحافظ وأكبر الاخوين المشهورين بابني الامام ، رحلا معا لتونس وللمشرق ، وألفا شرح ابن الحاجب الفرعي وتوفي أبو زيد سنة 743 ، والآخر أبو موسى عيسى وهو خاتمة الحفاظ اصطفاه السلطان أبو الحسن معه الى تونس وأخذ عنه بها ابن خلدون توفي سنة 749 هـ (1) .

ومنهم موسى المشارك وهو أبو موسى عمران بن موسى المشدالي حافظ محقق نقل الونشريشي كثيرا من فتاويه ولد سنة 670 هـ وتوفي سنة 745 هـ .

وأذكر من بين العلماء الذين اتصل بهم البلوي وقرظوا رحلته :

محمد بن جعفر بن يوسف بن مشتمل ، قال الحضرمي في فهرسته شيخنا الفقيه القاضي الراوية الافضل أبو عبد الله من أهل الخير متمعنا في التوقيت ولي قضاء غربي مالقة وناب في شرقيها توفي عام 736 وولد رجب عام 668 هـ .

(53) النيل ص 240 والتعريف ص 47 .

(54) هما اخوان من أهل برشك من اعمال تلمسان ، اخذا عن ابن زيتون ، انظر التعريف ، وشجرة النور الزكية ص 220 وانظر ص 379 من اختصار الاحاطة (مصور الاسكوريال) (النصف الثاني ، نسخة الخزانة العامة 1582 عن الاصل بالاسكوريال 1673) .

ومحمد بن عبد الستار أبو عبد الله التونسي قال الشيخ خالد في فهرسته هو ثاني أبي الحسن المنتصر في الفضل والولاية والعلم امام من أئمة الفروع وسراج يقتدى به ، انتهى الى أقصى أمدته الى أن قال انه نيف على التسعين فما ضعفت له قط موارد العبادة ولا تعطلت مدرسته عن دولته المعتادة .

ومحمد بن محمد بن المنير الاسكندري ترجم له خالد البلوي وأخذ عنه تواليف منها أرجوزته الكبرى التي فسر بها القرآن وتراجم البخاري وأحكام السماع . . . والفقيه أبو القاسم ابن سلمون الكنانى الغرناطى كان قاضيا للجماعة بغرناطة وهو المنصب الذي يقابل قاضى القضاة فى المشرق والغالب أنه يضيف الى عمله فى القضاء الخطابة فى جامع الحمراء أو فى الجامع الاعظم ، ألف عدة كتب منها : العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والاحكام (2) .

وأبو حيان الغرناطى هو محمد بن يوسف بن علي ، ولد بغرناطة سنة 654 هـ وطاف بالمشرق وكانت وفاته بمصر سنة 745 هـ - 1344 م ، كان محدثا بارعا ومفسرا كبيرا ولغويا ماهرا وشاعرا - مطبوعا ، ترك عدة مؤلفات فى التفسير واللغة والادب وله ديوان شعر طبع حديثا فى العراق .

(55) انظر مختصر الاحاطة بمصور الاسكوريال (النصف الثانى ، نسخة الخزانة العامة ص 1582 عن الاصل بالاسكوريال رقم 1673 ص 379) .

تآليف البلوي

ألف أبو البقاء الرحلة الحجازية المسماة بتاج المفرق في تحليّة علماء المشرق ، وقد اشتهرت هذه الرحلة بالمغرب والشرق ، وتداولتها الأيدي ، وكانت عمدة كثير من رجال التراجم والاعلام ، كما ألف أبو البقاء برنامج روايته الذي لم نعثر عليه ويذكر ابن القاضى فى الجذوة أنه نقل منه ويذكره البلوي فى الرحلة فى غير ما موضوع . وترك كذلك ديوان شعر ضمنه قصائده ومقطوعاته يشير إليه فى الرحلة كذلك ، كما أن له تخريجا فى حديث الرحمة وكتابا عن أسانيد لثلاثيات البخارى أشار له فى تاج المفرق كما أن له مجموعة منتقاة اختارها من أشعار معاصريه

أخلاق البلوي

كان البلوي موفور الصحة ، ذا بسطة في الجسم ، كما وصفه ابن الخطيب في الكتيبة بقوله : « هذا الرجل كالجمل المحتمل يربيك مجموعه ويهولك مرثيه ومسموعه . . . » (ويقول ابن الخطيب أيضا)
ظاهره جسم جسيم وللزرافة قسيم . على أنه كان عاطفيا ألوفاً يصعب عليه أن يفارق الاصدقاء والاحباب ، يأنس الى كل من تعرف عليه ، فاذا حان وقت الوداع (تجرع من الفراق ما ليس بالعذب ولا بالسهل)
واذا دخل مدينة لا يطيب له بها قرار حتى يربط علاقته بالفضلاء (ويجبر الوحشة بالايناس) فاذا فارقهم بكى حنيئا وشوقا كما قال ابن الخطيب عنه (اذا زمزم الحادي سالت من الرفقة دموعه) ، غير أنه لم يكن شجاعا يدفع عن نفسه جور قطاع الطرق وانما كان جباناً يمثل الفقهاء والعلماء في آخر عصور الاندلس حيث لم يعودوا كما كانوا من قبل يحتفظون بالفروسية والشجاعة والمقاومة وانما أصبحوا يعتمدون على العامة في الدفاع عنهم وعن البلاد ، ولذلك عندما أغار قطاع الطرق على قافلة الحجاج نرى البلوي (أعدى من جام) . . . وتملك قلبه حب التنقل والاقتراب ، فأصبح محبا للأسفار ، سريع التنقل ، يألف بسهولة ويستطيع أن يندمج في كل البيئات ، وهذه صفات الرحالة وكان يستعين على سفره الطويل بقصائد يمدح بها الحكام والأمراء ، فينال إعطياتهم ، ويستطيع بذلك متابعة السير ، كما فعل ابن بطوطة من قبله وقد قدم لنا البلوي نموذجا من أصدقائه الذين كان يعجب بخلقهم وهو أبو العباس النقارسي الذي لقيه بتونس فهو رجل كما قال عنه :
(لانت صعابه) و (يفحص المالك على الكمال ايثار لترتب المنيفة) و (كالحية الرقشاء الا أنه يستنزل الاروى اليه تلفا)

وتأثر البلوي سلوكه قولا وعملا ، وأقام معه في تونس في منزل واحد
(لا يستأثر أحدهما بمقسوم ولا ينفرد عن الآخر بمكتوم) (1) ، وكان
النقاوسى يعرفه بأكابر الناس ، وهكذا سار على نهجه واقتدى به في
سلوكه والمرؤ على دين خليله ، وكان مثله كثير التنقل (كثير الاصدقاء ،
لا يسكب دما على مترحل) وهذا التخلق قد اكتسبه البلوي من صديقه
الذي لقنه علم السلوك ومعرفة الناس والاستعانة بمالهم ونفوذهم
على تحقيق الآمال .

وانتهى البلوى الى نظرة للحياة متشائمة عبر عنها بقوله : فالليالى
لا تجمع شملا الا شتته ولا تصل حبلا الا بتته ، من أطاعها عصته ، ومن
أدناها أقصته ، فالبصير من يرفض الدنيا ويسأل الله في أموره « ، كما
أصبح صوفيا ويصرح في ترجمته لشيخه ابن المصفى انه البسه خرقة
التصوف ، وكان البلوي شديد الشفقة يؤلمه المنظر المخزن (فما رضى
ضلوعى وما فض دموعى الا الاطفال يضطربون بالبكاء ويستغيثون من
العطش بالماء كما كان بارا بوالديه ، فقد زهد في الوظيفة بتونس
على قلة ذات يده رعىا لوجوب الرجوع الى وطنه ، ومعاينة والدته التى
تركها وحدها فى الاندلس .

والبلوى صادق أمين ، لا ينافق ولا يخادع ، يثق كثيرا ويحسن
بالناس الظن :

« وقد كان حسن الظن بغض مذهبى
فأدبنى هذا الزمان وأهله »

وهو وان كان وديعا يتحجب الى العلماء والفضلاء وذوى الجاه
ليستعين على سفره بجوائزهم ان كانوا أغنياء ، ويستفيد من علمهم

ودعائهم ان كانوا متصوفين أو علماء ، فان ذلك لم يمنعه قط من أن يكون صريحا صادقا ، وقد برهن على هذا الخلق في ترجمته لعماد الدين الكندي الذى لاحظ أنه لم يكن يذكره لدى اقامته بالاسكندرية لأول مرة ، وأنه عندما عرج عليه للمرة الثانية رأى من واجب العلم والامانة أن يتقف ببابه ويتملقه حتى يتنازل ويعطيه من مروياته ، ولذلك يقول البلوى (ثم رأيت أن اهمال ذكره اهمال لقدره ، واخلال به بين أهل قطره فشغعت فيه علمه ، واعلقت هذا الديوان اسمه ، فقد علم الله أنى لا أمين ولا أميل ، واعتبر الكثير القبيح اذا أتبعه النزر الجميل) . وهكذا يفصح البلوى عن شيمته الصادقة ، وغضه الطرف عن الذين لم يحسنوا اليه في غربته فهو بذلك يعد أمينا جديرا بالثقة والاعتماد على مروياته . . .

شاعرية البلوي

أولع أبو البقاء برواية الشعر العربى وحفظه وبالاخص الشعر
الاندلسى ، وكتابه تاج المفرق ملىء بمحفوظاته فى هذا الباب ، وقد
روى لنفسه كثيرا من القصائد والمقطوعات فمنها ما أرتجله بمصلى
تونس فى عيد النحر من سنة 737 هجرية عندما اشتدت به الالبابة (1) :

أتى العيد واعتاد الاحبة بعضهم ببعض وأحباب المتيم قد بانوا
واضحى وقد ضحوا بقربانهم وما لديه سوى جمر المدامع قربان

ومن شعره :

ولقد جرى يوم النوى دمعى دما حتى أشاع الناس أنك فانى
والله ان عاد الزمان بقربنا لكففت عن ذكر النوى وكفانى

وله قافية طويلة فى طبرق منها :

أيا ليلة جمعت بمرسى طبرق أجلى صباحك عن نوى وتفرق
ألفت بين مفرق ومجمع وجمعت بين مغرب ومشرق
ضحك الفراق لنا وقد عبس الدجى فبكيت فيه بدمعى المتدفق

(57) الابتهاج ترجمة البلوى ص 99 .

ومن شعره :

ومستكر شيبى وما ذهب الصبا
فقلت فراقى للاحبة مؤذن

ومن شعره : (1)

بعثت خيالا والعواذل ضجع
ودنا يعاطينى الحديث على دجى
وكأنما الاكليس جام مذهب
نادمت فيه أخت الغزالة جوذرا
فى ليلة لا الوصل فيها بيننا
رق الهواء بها ورق لى الهوى
يا جيرة جار الزمان ببعدهم
لم تسكنوا وادي الاراك وانما
والله ما ضحك الربيع بربكم
واذا شكوت الى الصديق فانه
يا بارفا تنشق عنه سحابة
أشبهت من أهواه حسن تبسم
بالله خذ عنى تحية نازح

ولا جف ايناع الشبية من غصنى
بشيبى وان كنت ابن عشرين من سنى

فسرى ينم به شذا يتضوع
كأس الثريا فى يديه تشعشع
بيواقت الجوزاء فيه مرصع
يغدو بأكناف القلوب ويرتفع
خجل ولا قلب العفاف مروع
فمشى موشى بيننا وموشع
لم يخل منكم فى فؤادى موضع
قلبى مضيئك ودمعى المربع
الا وعن عينى بمزن يهمع
يسليك أو يغنيك أو يتفجع
عن مثل مدمعى السفوح وتقلع
فأصبت الا أنه هو أنصع
لم يبق فيه اليوم فيما يطمع

(58) الكتية الكامنة لابن الخطيب ص 138 تحقيق الدكتور احسان عباس .

واقراً على الجزع السلام وسح من
ما كان أطيب عيشنا الماضى بها
أيام نغفر للصبا ذنب الهوى
ما سرنى تبديد دمعى لؤلؤا
قطرات دمعك حيث تلك الأربع
لو كان ذلك العيش فيها يرجع
ونشفع الوجه الجميل فيشفع
وعهدته بيد الحسان يجمع

ومن شعره الذى ارتجله بالاسكندرية :

شكوت هواه الى ردفيه وهل يسمع الموج شكوى الغريق
وأرخصت لؤلؤ دمعى به ولم أدر كيف يباع العقيق

وله قصيدة رائعة أنشدها لما تراءت له المدينة المنورة شوقا وحنينا
لزيارة قبر الرسول . كما أنه عالج الموشحات وكان له فيها شأن
يذكر .

وكذلك كان البلوي حسن الخط يكتب بسرعة وانتقان وقد وصف
ابن نباتة خطه بقوله ، (ينافس فيه البصر والسمع) وكما كان البلوي
حسن الصوت يتملى الناس برنين انشاده وقد قال فيه ابن نباتة (يقرظ
اذنا ببيانه وصوته) .

المناصب التي شغلها البلوي

كان البلوي قاضيا بقتورية ثم ببرشانة ، ومنصب القضاء من أهم الوظائف بالاندلس لا يشغله الا أكابر العلماء ، كما أهله مواهبه الادبية ليكون كاتباً أيضاً ، فاستكتبه السلطان أبو يحيى بن أبي زكرياء الحفصي بتونس سنة 740 هجرية ، وفي عهده زخرت تونس بالكتاب الكبار كابن خلدون والابلي واضرابهما واحترف البلوي التعليم فكان مدرسا بالاسكندرية مدة اقامته بمصر .

اتصالات البلوي

كان البلوي شغوفاً بلقاء الأدباء ورواية الشعر ، واستجازة العلماء والمتصوفة ، لذلك رحل الى الحجاز لاداء الفريضة والاتصال بالعلماء ورجال الفكر في العالم الاسلامي ، ومكث في رحلته خمسة أعوام الا شهرين اثنين وثمانية عشر يوماً ، وقد أثرت هذه الرحلة الطويلة في سلوكه الشخصي ، فتمشرق كما يذكر عنه ابن الخطيب (1) في الاحاطة (شهرته النزعة الحجازية فلبس من خشن الحجازية ، وأرخى من البياض طيلسانا وتشبه بالمشاركة شكلا ولسانا ، وصبغ لحيته بالحناء والكتم ولاث عمامته واختتم) والواقع أن أبا البقاء البلوي كان شخصية محبوبة كما يظهر من خلال رحلته التي لا تظهر ميزة أسلوبه المين واطلاعه الواسع بقدر ما تعبر عن نبلة وجاذبيته وقوته على النفاذ الى قلوب العلماء والأدباء حيث لا يكاد يمكث قليلا في أية بلدة حتى يتعرف على رجالها في سهولة ويسر . وصفه ابن الخطيب بأنه جميل العشرة ، ووصفه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمي بالعلم والتخلق والفضل وهو صديقه الحميم ، واثنى عليه في كتابه وكان محترما بين علماء المشرق ، فقد عرفوا قدره وعلمه ومكانته لذلك فانه عندما سمع به ابن نباتة وهو من ألمع شخصيات الشرق أسرع في القيام ، وبادر الى اللقاء والى السلام ، (حتى خجل من فعله وعجب من فضله واستشهد شعره (2) ووصفه ابن نباتة أيضا بقوله : الشيخ الامام العالم الكامل .

(59) الجزء - 7 - الاحاطة بمخطوط الرباط .

(60) تاج المشرق : البلوي .

رحلات البلوي

كان البلوي شغوفا بالرحلة والاسفار ، فقد رحل أولا الى فاس للدراسة بها ثم رحل ثانيا الى المشرق لاداء فريضة الحج ثم رحل ثالثا الى شرق الاندلس للتجول في هذه الناحية تمتينا للاتصال بالعلماء وتبادل الرواية معهم ، أما الرحلة الاولى الى فاس فقد ذكر البلوي في رحلته غير ما مرة أنه درس بالاندلس وبغرب العدو ويعنى الاندلسيون بالعدوة بلاد المغرب كما ذكر الفلقشندى (2) ، وقد ذكر في فهرسته بعض تفاصيل عن هذه الرحلة فعسى أن نعثر عليها ، ولا شك أنها مشتملة على تراجم للعلماء الذين أخذ عنهم بفاس ، وقد كانت متداولة في عصر ابن القاضي الذي ذكر شيوخ البلوي بفاس (3) ، والغريب أن البلوي لا يهتم كثيرا بالحديث عن شيوخه بفاس بينما يهتم بذكر شيوخه الاندلسيين مع أن من المحقق أنه رحل الى فاس قبل رحلته الى المشرق كما يستفاد من الرحلة .

وأما رحلته الثانية ، فكانت الى بلاد المشرق ، وهى التى ألف فيها كتاب تاج المشرق .

وأما الرحلة الثالثة فكانت تنقلات في شرق الاندلس وفي غرناطة والمريّة ويلش وغيرها .

(61) كانت طريق الحج من المغرب الى مكة معبدة للحجاج ، بل ان بعض الفرق الصوفية اهتمت بتنظيم التنقلات الحجازية كما فعلت فرقة الامام ابى محمد صالح الماجرى المتوفى (سنة 631) كما فى (آسفى وما اليه) للكانونسى ص 100 ج 2 . وكانت هناك تنظيمات دقيقة لسفر الحجاج وتشجيعهم ، فكان الركب السجلماسى ، والركب الفاسى ، والركب المراكشى ، والركب البحرى وقد كتبت منظومات لوصف طريق الحج كنظم الشيخ محمد بن محمد المرباط الدلائى المتوفى سنة 1099 ، والرحلة العامرية (راجع كتاب ركب الحج المغربى) .

(62) القلقشندى : صبح الاعشى الجزء 5 .

(63) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس خزانة الرباط ص 517 رقم 1242 .

الرحلة الحجازية

هى رحلته التى قام بها من بلدة قيتورية قاصدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، وقد اكمل أبو البقاء هذه الرحلة فى أول شهر ذى الحجة سنة 740 هـ وصف فيها تلك البلاد التى نزل بها وقام فيها . وفرغ من تأليف رحلته فى آخر يوم شهر ربيع الاول سنة 768 هـ .

ويظهر أن المؤلف كتب رحلته أولا وتناقلها الناس عنه ، ثم بدا له أن يكتبها مرة ثانية وعرضها على أصدقائه من العلماء فقرضوها ، وهى التى احتفظ بها حفيده ونشرها من جديد تلافيا لكال الناس وهذا هو سبب ما يظهر من عدم الاتفاق فى بعض النسخ ، وتعتبر رحلة البلوي ذات قيمة كبرى سواء من الوجهة التاريخية أو الادبية أو الاجتماعية أو العلمية فقد كان يسجل مذكراته بضبط تام وبدقة ولا يعتمد على ذاكرته ، وقد أتيح له بفضل ما أوتيته من لباقة ودراية أن يتصل بالاعلام ورجال الفكر فى أهم حواضر الاسلام فكان أول من حمل الى الاندلس والمغرب ديوان ابن نباتة ومجموعة أشعار شهاب الدين ابن أبى الثناء الحلبي وعددا عديدا من الكتب وقد ذكر (معاهد الوجهة المشرقية وألم فيها بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء الذين يجرون ذيول البلاغة) وكما قال فى رحلته

. . . . (وألمع الى ذكر نبذ من فوائدهم واختيار طرف من أناشيدهم ومزجت بما جرت اليه العبارة وحسنت اليه الاشارة من قطع الشعر المنافسة قطع النور المنتظمة من جواهر اللفظ) (1) . . . وقد جاءت رحلته طبقا لما ذكره فوفق فيها توفيقا كبيرا . . .

واتصل في رحلته بالامراء والرؤساء الذين كانوا يعملون على توحيد العالم الاسلامي ليواجه الضغط المسيحي ، لذلك انتشر في عهدهم الامن ، وتحسنت المواصلات ونقارب العلماء فاستقصى البلوي في الاندلس في عصر السلطان أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف بن أمير المسلمين الشؤيد أبى الوليد بن نصر ، وقبل ذلك استكتبه السلطان أبو يحيى أبو بكر ابن أمير المؤمنين زكرياء بن أبى محمد بن عبد الواحن بن حفص فتقلد الكتابة في بلاطه سنة 740 هـ ، غير أنه حن الى بلاده فغادر تونس يوم الخميس 16 رمضان سنة 740 هـ ، وكانت تلمسان في عهده تحت حكم المرينيين حيث كانت محلة السلطان أبى الحسن بن أبى سعيد بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني واحتضنته كما كانت مصر التي دخل حاضرتها القاهرة في 13 رجب سنة 736 هـ تحت حكم الناصر محمد (ابن السلطان الملك المنصور) قلاوون فأقام بها مدة طويلة رحالة متجولا ، ويعتبر هذا العصر من أجمع العصور الاسلامية ، شاهدت فيه الاندلس في عهد بنى نصر آخر مجدها ، وعرف المغرب في عهد بنى مرين عهودا ثقافية يانعة كما عرفت القاهرة والشام في عهد الناصر محمد بن قلاوون أمنا وتقدما علميا وأديبا .

مصادر كتاب الرحلة

ان المصدر الحق لرحلة البلوي هي تجربته الشخصية ووقوفه بنفسه على المشاهد والآثار والاتصال بالعلماء مباشرة للرواية عنهم والبلوي لا يعتمد في ذكر المدن التي زارها على وصف ما جاء في كتب الرحال والمؤرخين الذين سبقوه وانما يعتمد على مشاهدته بنفسه ، وينقل الاستاذ محمد عبد الله عنان (1) عن بروكلمان (2) أن البلوي

(65) نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين — محمد عبد الله عنان — الطبعة 2 ص 449 .

(66) بروكلمان « تاريخ الادب العربى » ج 2 ص 266

انتفع في كتاب (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) بما كتبه ابن جبير عن المشرق .

والواقع أن البلوي لم يشر الى هذه الرحلة ولم ينقل عنها شيئاً ، بل ان طريق رحلته في بعض الاحيان غير طريق سلفه ، واذا كان تشابه الوصف يقع بين الكاتبين فذلك يرجع لتشابه الموصوف ، وبذلك فان قيمة رحلة البلوي تبدو في طراوة كتابتها وحيوية كاتبها الذي لم ينقل في هذا الموضوع عن سبقه وانما تحدث عن المشاهد الحية كما رآها .

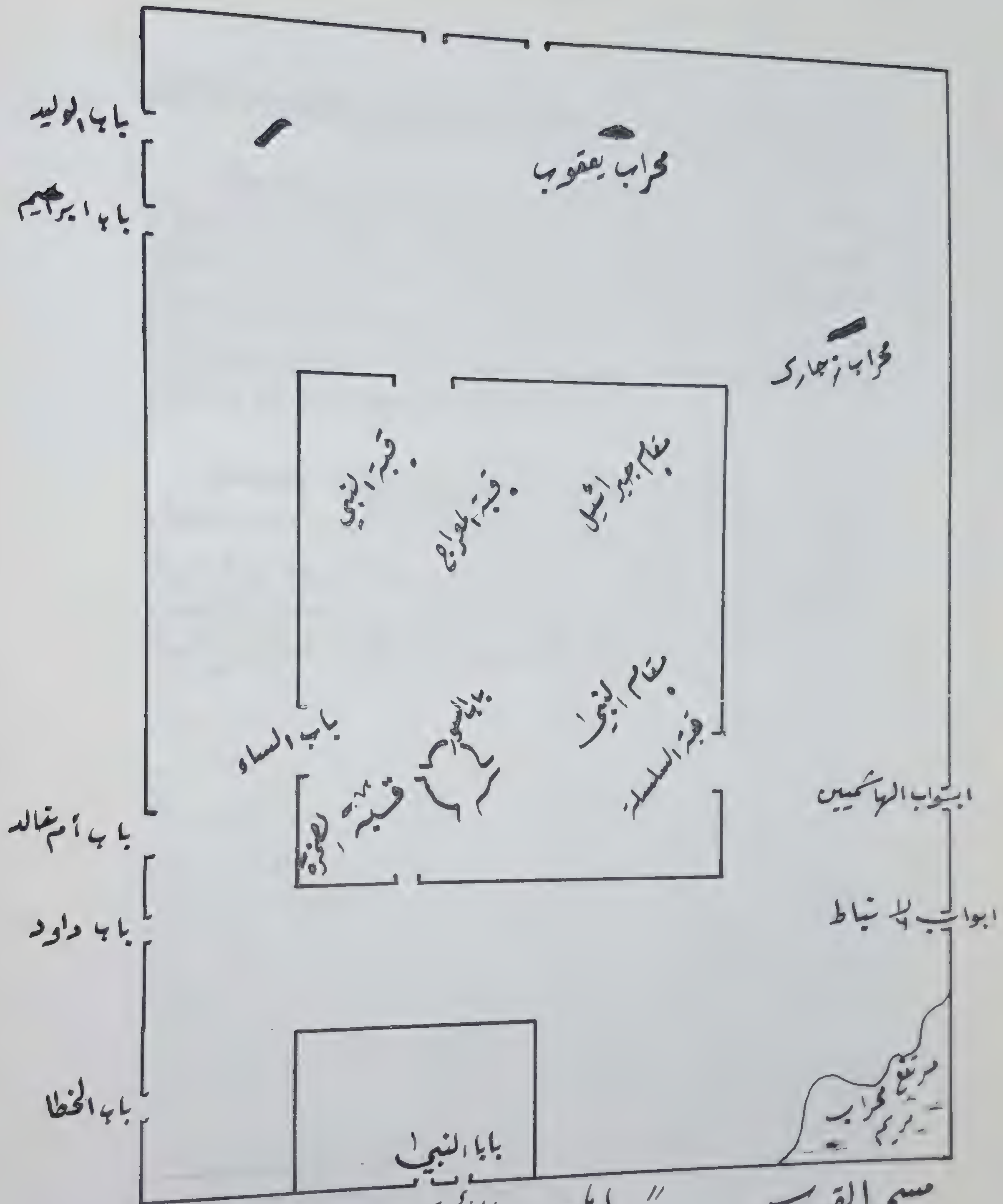
ارتسامات الرحلة

سجل البلوي في رحلته عدة ملاحظات أدبية وانطباعات شخصية ، فقد التقى بصديقه ابن الحاج النميري الذي خرج قبله فاتصل به في الاسكندرية ثم لدى أوبته في بجاية « وقد أصبح من كتاب هذه الدولة » وكان لقاء مليئاً بالمفاجآت العاطفية وتبادل الذكريات ، كما التقى بأخيه أبى بكر محمد الذي خرج من قيتورية لاداء فريضة الحج في يوم السبت أول صفر سنة 735 هـ ، أى قبله بنحو سنة ، فلقية عندما كان قافلاً الى الاندلس ميمماً شطر مصر وبقي معه مدة طويلة وكان البلوي في أثناء سفره يتصل بالمغاربة والاندلسيين في كثير من البلاد الشرقية ، فيحن بعضهم الى بعض ، وأشار ابن بطوطة في رحلته الى عدد من المغاربة من ذوى المكانة العلمية أو ممن كانوا يشغلون الوظائف الهامة ، أو من السياسيين اللاجئين ، وكانوا يتعاطفون بدافع الحنين الى مسقط الرأس لا سيما في ذلك العصر الذى كانت وسائل التنقل فيه متعذرة ووسائل العيش مضيئة ، وقد عبر العلامة الشاعر أبو حيان مترجمنا عن هذا التعاطف بقوله :

وبيننا نسب ترعى وان بعدت لكوننا ننتمى فيها لاندلس

ولكم دافع البلوي عن المغاربة والاندلسيين ، لان الشرقيين كانوا لا يعرفون الكثير عن الاندلس والمغرب ، كما عبر عن ذلك من قبل صاحب ابن عباد ، لذلك نرى كثيرا من كتاب الاندلس وشعرائها ينددون بذلك ، وكان ابن حزم وابن بسام (1) ممن دافعا عن قيمة الفكر الاندلسي ، وقاوما مركبات النقص عند بعض الاندلسيين والمغاربة ، ومركبات الاستعلاء عند بعض المشارقة .

كما ينتقد البلوي ديوان الجمارك بالاسكندرية لتفتيش الصادر والوارد ، وقد سبقه الى ذلك ابن جبير الذي رفع قصيدة في الموضوع الى صلاح الدين الايوبي ، وانتقده كذلك أبو عبد الله محمد بن رشيد والعبدري الحاحي وابن بطوطة مما يدل على الجور الذي كان يعانيه الحجاج والمسافرون على يد الجمركيين في القرن الثامن .



مسجد القدس
 "المسجد الأقصى"
 كما
 صورة جغرافيا المسجدين القدماء

الجانب التاريخي لرحلة البلوي

البلوي في رحلته الشرقية

الرحالة الاندلسيون والمغاربة في عصر البلوي

بين ابن بطوطة والبلوي

مقارنة بين أسماء الأعلام عند البلوي وابن بطوطة



طريق رحلة "البسوي"

البلوي في رحلته المشرقية

تبدأ الرحلة بمقدمة ، وبعدها سرد عن خروج البلوي من قتورية الى المرية حيث ركب (غراب دار الصنعة) يوم الاحد 7 جمادى الاولى سنة 735 فوصل هنين وتلمسان والجزائر فبجاية فقسطنطينة فالعنا ب ، فبونة ثم وتونس التي غادرها في 17 ربيع الثانى سنة 737 هـ الى قوسرة ، مالطة ، قبرص ، الاسكندرية فالقاهرة التي دخلها في 13 رجب سنة 737 هـ في عهد الناصر محمد قلاوون الذي كانت علاقته حسنة جدا مع الاندلس المغرب كما يظهر ذاك من رسالة أوردتها المقري من انشاء الكاتب ابن الخطيب موجهة من الغنى بالله الى الناصر ابن قلاوون وقد خرج البلوي من القاهرة يوم الاثنين 28 رجب سنة 737 هـ الى غزة نمدينة الخليل ، فيبت المقدس ، غالكرك ، فتبوك ، فالعلاء فهديّة فوادي القرى الى (المدينة المنورة) ثم خرج البلوي من المدينة فى 23 ذى القعدة الى (ذى الحليفة) (فوادي الصفراء) فرباغ ، فخليص ، فبطن مر ، الى (مكة) فدخلها في 5 ذى الحجة سنة 537 هـ ، ثم قفل راجعا الى وادي العقيق فالمدينة في 23 ذى الحجة عام 737 هـ ، فالينبوع ، فعقبة ايلية ، فوصل اليها في 16 محرم 738 هـ) ثم واصل السير الى القدس ، فالرملة ، فغضة ، عسقلان ، فقاطية ، فمصر ، فغوة ، فالاسكندرية ، فالغماري . وامتنحن في دشار الغماري التي بلغها مع أخيه محمد في ربيع الاول سنة 738 هـ ثم رجع الى الاسكندرية وغادرها في أول شوال سنة 738 هـ مارا بطبرق وتونس (سنة 740 هـ) وباجة والعنا ب وقسطنطينة ، وبجاية ، وجبل الزاب ، والجزائر ، وتلمسان ، وهنين ، حيث ركب منها قرقورة الى (المرية) ومنها الى مجاقر بضفتى نهر وادي المنصورة وأخيرا بلغ قتورية ولكنه لم يكد يستقر في بلدته

حتى أخذ يطوف بالمدن المجاورة لبلده حيث قرظ رحلاته بعض علماء المرية وغرناطة كما نرى في آخر الرحلة .

وكانت رحلته الى المشرق جميلة وممتعة ، (استفاد منها وأفاد ، وتبادل الانشاد) ، كان محترما اينما حل ، وارتحل ، بل لقد شغل في تونس وظيفة سلطانية سامية ، حيث استكتبه أبو يحيى أبو بكر ابن زكرياء الحفصي ولكنه حن الى بلده فقدم استقالته معذرا كما عرف البلوي في رحلته عدة محن ، منها محنته عند عودته الى المغرب بعد خروجه من الاسكندرية حيث تأمر عليه صاحب المركب ، ففر تاركا أبا البقاء وأخاه في العراء فتكبدا شقاء مريرا وجوعا مؤلما حتى رجعا الى الاسكندرية ، ومنها محنته بعد خروجه من بجاية التي كانت تحت امرة أبي زكرياء يحيى بن يحيى بن أبي بكر حيث اعترض قافلتهم عربان جبل الزاب ، ف وقعت معركة انهزم فيها أعداؤهم ، وسلم الله أبا البقاء وعكف المؤلف بعد عودته على مراجعة رحلته التي وضعها أثناء حجه فأكملها (ببرشانة بوادي المنصورة) في اليوم الاخير من شهر ربيع الاول عام 767 هـ وأضاف اليها تغريط العلماء والادباء الذين أطلعوا عليها ثم أخرجها حفيده خالد بن أحمد بن خالد المؤلف بعد أن انتسخها من مبيضة جده واتمها ببرشانة في الحادي والعشرين من شهر صفر سنة 819 هـ .

الرحالة الاندلسيون والمغاربة في عصر البلوي

يعسر أن نتتبع رحلات الاندلسيين ، والمغاربة الى المشرق (1) في عهد البلوي لنقارن بينها جميعا ، ويظهر أن هناك رحلات مدونة ولكن لم يصل اليها كثيرا منها على أن أشهرها رحلة صديقه الحميم الكاتب

(68) اقدم رحلة نسج على منوالها كتاب هذا الفن ، هي رحلة أبي بكر بن العربي الاشبيلي المتوفى سنة 543 .

ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم النميري الذي ولد سنة 713 هـ وتوفي سنة 768 - 1467 م ، وهو صديق ابن الخطيب ، كما ورد في الريحانة ، نشأ بغرناطة وترسم في كتابة الانشاء سنة 734 هـ ، ثم رحل الى المشرق فأدى الفريضة ، واثناء عودته أقام ببجاية حيث خدم بعض ملوكها ثم رحل الى المغرب فاستكتب في دولة بنى مرين ثم رجع الى الاندلس فاشتغل بالسفارة وولى القضاء بمرية قرب غرناطة ، وقد وفد فى سفارة الى السلطان أحمد بن موسى صاحب تلمسان فركب البحر من المرية سنة 768 هـ واستولى الافرنج على المركب وأسروه واضطر السلطان أن يفديه بمال كثير ، وترك عدد كتب نخص بالذكر كتاب المسألة والمسامحة في تبين طرق المذاعبة والممازحة وكتاب تنعيم الاشباح في محادثة الارواح ، وفيض العباب وقдах الآداب في الحركة الى قسطنطينة والزاب .

ومنهم أبو اسحاق الساحلى ، وهو شاعر أديب ترك بلاد الاندلس الى مصر والشام والعراق واليمن والحجاز واستقر بها ، على أن أشهر الرحلات في هذا العصر هو ابن بطوطة بلا جدال . . ويلاحظ أن الرحلات الحجازية ضعفت في القرن الثامن والتاسع بسبب دعوة العلماء الى الجهاد وايثاره على الحج . وفي كتاب الاستقصا للناصرى ذكر لفتاوى العلماء ومنها فتوى للامام ابن رشد لتقديم الجهاد على الحج (أنظر الاستقصا ج / ص 8 .

بين ابن بطوطة والبلوي

يحق لنا أن نقارن بين ابن بطوطة والبلوي من بعض النواحي ونفارق بينهما من نواحي أخرى ، فقد سافرا معا في وقت متقارب ، اذ بينما دخل ابن بطوطة تلمسان سنة 725 دخلها البلوي سنة 736 هـ ، وبينما وفد ابن بطوطة على مكة للمرة الثانية سنة 732 هـ دخلها البلوي

سنة 737 هـ ، وفي هذه السنة كان ابن بطوطة يتجول في الهند ، ولما وصل الى فاس سنة 749 هـ كان البلوي يتجول في الاندلس ، وعندما كان قاضيا ببرشانة وزارها ابن الخطيب سنة 748 هـ كان ابن بطوطة بغرناطة . واذا فقد رحل كل من البلوي وابن بطوطة في وقت واحد ، ولم يكتب ان يتصل احدهما بالآخر ، وعلى الرغم من أن ابن بطوطة وصل الى غرناطة سنة 750 هـ - 1350 م واتصل بأساتذة البلوي كمحمد بن عاصم القيسي (69) ، وتعرف بأحد الرحالين الشرقيين (70) فانه لم يتصل بالشيخ البلوي بينما لقي ابن الخطيب في نبلة ببستان أبي قاسم ابن عاصم ، وكان بهذا المجلس ابن جزى الذي كتب الرحلة لابن بطوطة فيما بعد .

وقد سلك كل من البلوي وابن بطوطة طريقا واحدا من افريقيا الى تونس ، حيث سافرا معا عن طريق تلمسان ومليانة والجزائر وبجاية وقسطنطينة وبونة وتونس ، ثم افترقا حيث سافر البلوي الى الاسكندرية بحرا عن طريق جزيرة قوسرة فمالطة فاقریطش فجزيرة أشغرباطة فقبرص فالاسكندرية على حين يتابع ابن بطوطة طريق سوسة فصفاقس . . . الخ ، وكان سلطان تلمسان في عهد ابن بطوطة أبو تاشفين عبد الرحمن موسى بن عثمان بن يغمراس بن زيان أمير بجاية من قبل الموحدين في عهد ابن بطوطة هو محمد بن سيد الناس الحاجب الذي وصفه ابن بطوطة بالظلم ، بينما يذكر البلوي أنها كانت تحت نفوذ أبي زكرياء بن يحيى .

وكان سلطان تونس في عهد ابن بطوطة أبو يحيى أبي زكرياء بن أبي حفص الذي مدحه ابن بطوطة وتكلم عن عنايته بالعلم ، وذكر بعض من عاصره من العلماء وهو نفس السلطان الذي استكتب البلوي

وقد اتفق كل من البلوي وابن بطوطة في وصف منار الاسكندرية وعمود السوارى بها رغم أنها استولى عليه الخراب لما عاد ابن بطوطة الى الاسكندرية في طريقه الى المغرب سنة 750 هـ .

أما مصر فقد كانت في عهد ابن بطوطة تحت حكم الناصر محمد بن قلاوون وفيها من كبار العلماء شمس الدين الاصبهاني وغيره ، واتفق البلوي معه في الثناء على هذا السلطان والاشادة بالامن الذي ساد بلاده، ويلاحظ البلوي مشاهد بالقاهرة ، أن المراكب المعدة للصيد والركوب يبلغ عددها مائة ألف مركب ، ما عدا الزوارق الصغار ، وقد أخبره شمس الدين الكركى أن الجمال الداخلة الى القاهرة في كل يوم بلغت مائتى ألف جمل عدا البغال والحمير والسقائين الذين بالزقوق ، وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقى فبلغت ستين ألف دكان عدا السقائين الذين يسقون بالاكواب والاكواز في الطرق والاسواق ، وأخبره من يثق به أنهم أحصوا المراكب المعدة لا يساق الزرع فالفوها تتيف على مائة ألف مركب ما عدا الزواريق الصغار التى تستعمل للصيد والركوب وغير ذلك ويكتمل في المارستان العظيم في القاهرة في كل يوم من المرضى الداخلين اليه والناقهين الخارجين منه أربعة آلاف نفس وتارة يزيدون وينقصون .

ويذكر ابن بطوطة ان بمصر من السقائين اثنى عشر ألف سقاء وان فيها ثلاثين ألف مكار وان بها من المراكب ستة وثلاثين ألفا .

ويقول فريسنكو بالدي الذي زار مصر سنة 1384 أى بعد نحو 60 سنة بعد رحلة ابن بطوطة أن عدد الجمال والحيوانات التى تنقل الماء تقدر بمائة وثلاثون ألفا ، « أنظر الروائع » (ابن بطوطة) .

ولم يعط الرحالة الايطالى عدد المراكب في النيل ، وانما استعظمها وقال : لو جمعت المراكب التى شاهدها في جنوى والبندقية وانكونا

بصرف النظر على المراكب ذات القنطرتين لما بلغت ثلث عدد المراكب
التي شاهدها بمصر .

ويختلف أبو البقاء مع ابن بطوطة في تقدير مساحة المسجد
النبوي ، فبينما يذكر البلوي أن طول المسجد 780 ذراعا وعرضه 450
يذكر ابن بطوطة أن طوله 752 ذراعا وعرضه 435 ذراعا ، كما أن البلوي
يذكر أن عدد أبواب المسجد النبوي الشريف تبلغ خمسين بابا ، ولم يشر
ابن بطوطة لعدد أبواب هذا المسجد .

ويذكر البلوي مشهد قبر رابعة العدوية ، اما ابن بطوطة فيذكره
كذلك ويزيد أنه لا ينسب الى رابعة المشهورة وانما يعزى الى
البادية .

ويتفقان معا في وصف الاماكن المقدسة ومكة المكرمة ، وقد شغف
كل منها بملاقاة الرجال ، غير أنه بينهما يبحث البلوي على كبار علماء
الحديث والادب ويتعرف عليهم ويتصل بهم فيأخذ منهم ويروي
سندهم وينتسخ كتبهم اذ بابن بطوطة يعنى بمعرفة أسمائهم واحيانا
يزورهم في منازلهم زيارة تخلو من الحنين الى الارتواء بعلمهم وتمكين
السند ، فقد لقي ابن بطوطة عدة علماء ذكر أسمائهم والقابهم ، غير
حافل باختصاصاتهم وانما يتبرك بهم ، وخصوصا اذا كانوا من
المتصوفة ، وربما سمع باسم العالم فذكر اسمه في الرحلة ولو أنه
لم يتصل به اتصالا شخسيا كما فعل في تونس حين ذكر من أعلامها
ابن الغماز الذي لا شك أنه لم يتصل به لانه توفي سنة 693 هـ وانما
اتصل بخلفه الربيعي الذي ذكر له اسم شيخه فاثبتته في الاعلام
المعاصرين .

أما البلوي فيذكرهم بأسمائهم والقابهم ونعوتهم وتآليفهم مع
تاريخ ولادتهم ، ثم يأخذ عنهم السند وينتسخ كتبهم ، وهذا فارق عظيم

بين رجل علم ورجل رحلة ، ثم من كان يسجل بدقة لغاية علمية عظيمة ، بينما كان ابن بطوطة مغذا في سفره يمسح المعمور ثم يذكر مشاهداته فيما بعد ليسجلها ، ومن وجوه المفارقة بينهما أيضا أن ابن بطوطة كان رحالة قوى الملاحظة ، ذا ذاكرة قوية يلتقط المشاهد كلها فيثبتها في رحلته ويقل اتصاله بالعلماء والمحدثين ، وانما يرغب في زيارة الصوفية ليستذر بركتهم ، واما البلوي فقد كان لا يهتم بالمشاهد المألوفة ولا يسجل الارتسامات ويولى عنايته للاتصال بالعلماء والادباء ليستجيزهم ويروي لهم من أدب الاندلس ، والبلوي لا يحفل بالآثار كجغرافي أو العوائد كرحالة اجتماعي بل يذكر ذلك في رحلته ذكرا عابرا ينقصه الوصف الدقيق وهو يمزج موضوعاته بما حفظ من الآثار النبوية والنصوص الحديثية ليبدى غزير علمه في الموضوع .

وبينما نجد ابن بطوطة يبحث في الاسكندرية عن النزيخ الكندي وأبى العباس المرسى وأبى الحسن الشاذلى نجد البلوي يتصل بيحيى بن محمد بن يحيى ابن الامان وشهاب الدين ابن عطاء الله والسيوري وابن البناء والهرابي ويتصل في القاهرة بالشيخ تقى الدين على السبكي وعبد الله القلعي وابن فتوح .

ومن وجوه المفارقات ، ان ابن بطوطة لم يسجل رحلته وانما املاها من ذاكرته مما عرضه لكثير من الاخطاء ، اما البلوي فقد سجل رحلته في اثناء اسفاره ، ولم يقع في أي أخطاء جغرافية أو غيرها . . .

ويبدو أن البلوي قد أطلع على كتب الجغرافية بخلاف ابن بطوطة، فانه لا يتعرض لشيء من هذا بل يرتكب أغلاطا جغرافية تدل على عدم اطلاعه على كتب هذا الفن ، وانما تدل على مشاهدته للاماكن التي زارها فحسب .

وقد تعرض قطاع الطريق للبلوي عند عودته بخصن دشار
الغماري ، ببرقة ، كما تعرضت لابن بطوطة طوائف العرب محاولـة
الايقاع به في (سرت) ببرقة .

وركب البلوي الى الاندلس في قرقورة في مركب صغير سافر
عليه ابن بطوطة من اللاذقية وغيرها ، كما أنهما شغلا بعض المناصب
خارج بلدهما حيث تقلد البلوي الكتابة ببلاد تونس وتقلد ابن بطوطة
منصب القضاء بمدينة (المهل) في الهند ، ويلاحظ أن ابن بطوطة رحل
قبل البلوي ، غير أن رحلته كتبت في زمن متأخر عن رحلة البلوي الذي
دون رحلته أيام تنقلاته ، وفي أثناء سفره الذي أتمه سنة 740 هـ وأكمل
مراجعتها والحق التقاريظ بها سنة 768 هـ بينما دونت رحلة ابن بطوطة
في سنة 755 هـ - 1365 م .

مقارنة بين أسماء الأعلام عند البلوي وابن بطوطة

مقارنة بين أسماء العلماء والمتصوفة الذين اتصل بهم البلوي
أثناء رحلته في الذهاب والاياب والذين اتصل بهم ابن بطوطة في رحلته . .

العلماء والمتصوفة الذين اتصل بهم البلوي :

فى الاندلس :

1 - أبو عبد الله بن الحباب .

2 - أبو عبد الله بن عبد السلام .

تلمسان :

أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشيد .

بجباية :

- 1 - المحدث أبو عبد الله محمد بن جعفر .

قسطنطينة :

- 1 - أبو الحسن علي بن عبد الله .

- 2 - أبو الحسن بن عبيد الله .

تونس : (للمرة الاولى) :

- 1 - أبو الحسن علي بن المنتصر الصدي - توفي سنة 742 هـ
(أنظر الزركشي) .

- 2 - أبو عبد الله محمد بن عبد الستار التميمي امام جامع
الزيتونة المتوفى سنة 742 هـ .

- 3 - أبو عبد الله بن فران .

- 4 - أبو عبد الله بن الحباب (توفي سنة 749 هـ كما في الزركشي)

- 5 - أبو عبد الله بن عبد السلام (أنظر الزركشي) .

- 6 - أبو عبد الله بن عمر .

- 7 - أبو عبد الله بن حريز .

- 8 - أبو العباس النقارسي .

الاسكندرية : (للمرة الاولى) :

1 - يحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله ابن الامان بن خليفة بن أبى أرضية بن يقين بن تامشت بن على بن رجاء بن عبد المؤمن ابن ذى حى الصنهاجى ولقيه ابن بطوطة كذلك ويسميه الشيخ خليفة ولد سنة 667 هـ .

2 - أبو البركات محمد بن الشيخ فخر الدين أبى بكر محمد بن الشيخ شهاب الدين أبى محمد عبد الكريم ابن عطاء الله .

3 - أبو العباس أحمد بن الحسن بن على بن عبد العزيز بن عبد الله الكنانى الشافعى الشهير بابن المصطفى .

4 - أبو عبد الله بن عز الدين ابن القاسم عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن محمد عبد الوهاب بن أبى عبد الله محمد ابن جمال الدين عطية المشهور بابن عطية .

5 - محمد بن أحمد ابن أبى بكر بن عوام الربعى الشافعى سبط أبى الحسن الشاذلى (تدمج معه بالاسكندرية) .

فى القاهرة : (للمرة الاولى) :

1 - شمس الدين الكركى .

2 - تقى الدين صالح بن مختار بن صالح بن أبى الوراس ولد سنة 642 هـ باعزاز من أعمال حلب .

- 3 — أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف النفزي الاندلسي (توفي سنة 745 هـ) كما ورد في كتاب الزركشي .
- 4 — برهان الدين ابراهيم بن نور الدين علي المالكي .
- 5 — ابن مخلوف المغيلي .
- 6 — تاج الدين عبد الله بن علي القلعي الاطفيجي .
- 7 — تقى الدين أبو الحسن بن عبد الكافي السبكي الشافعي .
- 8 — أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فتوح المصغوني .

مدينة الخليل والقدس :

- 1 — شمس الدين محمد دبن كامل الشافعي .
- 2 — أبو الحسن علي الواسطي .
- 3 — أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم الاموي القرشي الشافعي .
- 4 — شمس الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن عبد الناصر الكناني الشافعي قاضي بيت المقدس .
- 5 — الخطيب أبو البركات زين الدين عبد الرحيم بن بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن جماعة الشافعي .

6 - صلاح الدين خليل بن كبكدي بن عبد الله الملائي الشافعي .

7 - علي بن أيوب منصور المقدسي .

8 - شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن منبت الخولاني (الاندلسي) .

9 - محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحسين بن صالح ابن طاهر بن نباتة صاحب الخطب الشهيرة .

في المدينة المنورة :

1 - أبو محمد بن عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني الشافعي .

2 - جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الخزرجي المضرى السعدي العبّادي .

في مكة :

1 - محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المكي المشهور بخليل .

2 - أحمد بن إبراهيم الشافعي .

القاهرة : (للمرة الثانية) :

1 - أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف القرشي الحجازي (الصوفي) .

2 - أبو القاسم بن عبد الله بن أبي القاسم الشافعي (الخطيب)

فى الاسكندرية (للمرة الثانية) :

- 1 — محمد بن الشيخ وجيه الدين أبى بكر بن عبد المنعم بن على بن ظافر ابن مبارك الشافعى .
- 2 — نجم الدين أبو الحسن على بن زين الدين محمد بن أبى القاسم هبة الله ابن الانصارى الخزرجى الملكى .
- 3 — فخر الدين أبو محمد بن الحسن جمال الدين اسحاق بن ابراهيم الغنى الانصارى .
- 4 — شرف الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عز الدين بن الكهف القرشى الشافعى .
- 5 — عماد الدين ابن الحسين بن أبى بكر الكندري .
- 6 — معين الدين محمد بن جمال الدين أحمد بن فتوح بن أربى الذكر .
- 7 — تاج الدين عبد الوهاب بن هبة الله بن أحمد المقدسى .
- 8 — أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى الفضل بن عاصم .
- 9 — جمال الدين محمد بن شرف الدين بن محمد المنير له .
- 10 — محمد بن الشيخ محيى الدين الزماتى المالى الشهير بابن حافى .

الاسكندرية (للمرة الثالثة) :

- 1 — علماء المدرسة السراجية (المنسوبة الى سراج الدين) .
- 2 — شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ابن السروج عيسى بن أبى الحسن على بن أبى العلاء عبد الله الكنانى الشافعى الشامى الاسكندري .

- 3 — عز الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حباسة .
- 4 — شهاب الدين الساروردي (وهو غير صاحب كتاب عوارف المعارف) .
- 5 — جمال الدين أبو الفرج محمد بن محمد بن عبد الرحمن البلوي القضاعى المالكي .
- 6 — محيى الدين أبو عبد الله محمد بن عمرو بن عبد الوهاب ابن خلف العلامى الشافعى .

بعض العلماء الذين اتصل بهم ابن بطوطة

(تونس) :

- 1 — أبو يحيى أبو زكرياء يحيى ابن أبى اسحاق بن ابراهيم بن أبى زكرياء عيسى بن عبد الواحد بن أبى حفص (سلطان تونس) .
- 2 — أبو العباس أجمد بن محمد الخزرجى البلمسى ابن الغماز (أنظر الزركشى) توفى سنة 693 هـ قبل ابن بطوطة وخلفه الربعى .
- 3 — ابراهيم بن حسن بن عبد الرفيق الربعى .
- 4 — عمر بن على بن قداح الهواري (ترجم له الزركشى) .

الاسكندرية :

- 1 — عماد الدين الكندي (امام من أئمة اللسان) .

- 2 — سلطان افريقيا المخلوع زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف بالحيداني (وحاجبه) أبو زكرياء بن يعقوب (ووزيره) أبو عبد الله بن ياسين .
- 3 — فخر الدين الربيعي .
- 4 — ياقوت الحبشي تلميذ أبي العباس المرسى .
- 5 — وجيه الدين الصنهاجي .
- 6 — شمس الدين ابن بنت التنسي وهو غير أحمد بن محمد بن عطاء بن عوض الزريري المشهور بابن التنسي (بفتح التاء والنون وكسر السين) 740 — 801 .
- 7 — أبو عبد الله الفاسي .
- 8 — برهان الدين الاعرج .
- 9 — أبو عبد الله المرشدي .
- 10 — بدر الدين ابن جماعة قاضي الشافعية (مصر) .
- 11 — شمس الدين الاصبهاني .
- 12 — (سلطان مصر) في عهد ابن بطوطة الملك الناصر أبو الفتح محمد بن منصور .
- 13 — سيف الدين قلاوون الصالحى والى السلطة فى مصر (فى عهد ابن بطوطة) .
- 14 — عبد الله المنوفى .
- 15 — شرف الدين الزواوي .
- 16 — برهان الدين ابن بنت الشاذلى .

17 - برهان الدين الصفاقسي مؤلف اعراب القرآن أخذ عنه الخطيب بن مرزوق المولود سنة 710 . (أنظر التعريف ص 54) .

18 - ركن الدين بن الفوبع التونسي (المعقولي) .

19 - قوام الدين الكرمانى .

20 - شمس الدين بن عدلان .

21 - بهاء الدين بن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل القرشى الهاشمى 698 - 769 ألف تفسير القرآن .

22 - أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف حيان الغرناطى .

23 - تاج الدين ابن حناء .

24 - مجد الدين الاقصرائى .

بجاية :

1 - أبو عبد الله الزواوي .

2 - الامير محمد بن سيد الناس الحاجب (من عمال الموحدين بتونس) .

تونس :

1 - محمد بن أحمد بن محمد بن حسن الانصاري الخزرجى البلسنى (المعروف بابن الغماز) .

2 - الخطيب ابراهيم بن حسين بن على الربعى .

3 - أبو على عمر بن على بن قдах الهواري .

العلماء الذين اتصل بهم البلوي في تونس لدى عودته :

- 1 - أبو العباس أحمد بن عبد الله الانصاري الرصافي .
- 2 - أبو عبد الله محمد هارون .
- 3 - عبد الله بن محمد أبي القاسم ابن البراء التنوخي .
- 4 - محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأدريسى .
- 5 - أبو عبد الله بن عمر (توفي) وخلفه البلوي في المنصب .

قسططينة :

- 1 - الأمير عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن يحيى بن أبي بكر .

الاعلام الذين اتصل بهم ابن بطوطة

في بيت المقدس :

- 1 - محمد بن سالم الغزي .
- 2 - عماد الدين النابلسي .
- 3 - شهاب الدين الطبري .
- 4 - محمد بن مثبت الغرناطي .
- 5 - حسن المحجوب .
- 6 - كمال الدين المراغي .
- 7 - عبد الرحمن بن مصطفى .

فـى مـكة :

- 1 - محمد بن الامام محيى الدين الطبري .
- 2 - بهاء الدين الطبري .
- 3 - أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المشهور بـ خليل .
- 4 - عبد الله بن أسعد اليمنى المشهور بالياغى .

وفى المدينة :

- 1 - أمير المدينة كبيش بن منصور بن جـماز .
- 2 - أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق .

المجانب الأدبي في رحلة البلوي

عناية المغاربة بفن الرحلات وعلم الجغرافية

فن الرحلات في الاب المغربي .

رحلات مشرقية ومغربية .

نقد الرحلات .

الرحلات في أدب الملحون .

الرحلات في أدب الموريسكو .

رحلة البلوي بين الرحلات المغربية .

الاسلوب الادبي لفن الرحلات .

الاسلوب الادبي في رحلة البلوي .

رأي ابن الخطيب في كتاب تاج المفرق .

أهمية رحلة البلوي الادبية .

المؤلفون المغاربة والأندلسيون في فن الرحلات

معجم بأسماء المؤلفين المغاربة في فن الرحلات

ورد في مقدمة كتاب الرحلة ذكر لعدد كبير من الذين ألفوا في فن الرحلات ، وأذكر في هذا المعجم بعض المشهورين ممن ألفوا في هذا الفن ، أو اكتفوا بكتابه دراسات في موضوع المناسك أو صنفوا فهارس بأسماء العلماء الذين تعرفوا بهم أثناء حجهم . . .

معجم بأسماء المغاربة والاندلسيين الذين كتبوا في المشرقيات والرحلات :

ابراهيم السوسى العيىنى — المتوفى عام 1199 هـ ، 1784 م ، له رحلة الى الحجاز فى مجلدين ، وقف على نصفها بخط المؤلف فى مجلد المرحوم المختار السوسى ، وقد اختصرها محمد بن مسعود المعدرى ووقف على الاختصار كذلك الشيخ المختار السوسى وهو مبتور كالاصـل .

وابن أبى عسرية أحمد الفاسى الفهرى — 1137 هـ ، 1724 م ، له رحلة حجازية نقل عنها صاحب « نشر المثنى » فى ترجمة ابراهيم ابن محمد الشاوى السرىفى .

وأحمد بن محمد أبو محمد اسحاق الخزاعى المعروف بابن الازفى الفاسى له « تاريخ مكة » ، نسخة بخزانة بألمانيا الشرقية عدد 1705 .

وابن جزى محمد بن أحمد ، 741 هـ 1340 م ، له فهرست كبيرة اشتملت على كثير من رجال المشرق ومن بينهم شيوخ الحجاز .

ابن رشيد السببى المتوفى سنة 721 هـ له ملء العيبة .

ابن جعفر محمد بن ادريس الكتانى 1345 هـ ، 1926 م ، له « الرحلة السامية للاسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية » ألفها في رحلته الاولى عام 1322 هـ ، 1904 م ومات دون اتمامها .

وابن حسون أحمد بن العربى الوزانى ، له « الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية » في 8 كراريس ، رحل الى الحجاز عام 1269 هـ ، 1852 م .

وابن سعيد المغربى ، 685 هـ ، 1286 م ، له « النفحة المسكية في الرحلة المكية » بالاضافة الى رحلته « عدة المستنجز » .

وعبد القادر ابن سودة ، واد عام 1301 هـ 1883 م ، له « الرحلة الكبرى في اخبار هذا العالم برا وبحرا » رحل الى الحج عام 1327 هـ 1909 م ، وهى تقع في أربعة أجزاء طبع الاول والثانى منها بالطبعة الجديدة بفاس .

وابن طوير الجنة أحمد المصطفى الصحراوى الحميرى الشجيطى له رحلة قام بها بعد عام 1245 هـ ، 1829 م وهو غير ابن الطوير عمر المراكشى .

وابن الطيب محمد الصمىلى الشرقى المتوفى بالمدينة المنورة 1170 هـ ، 1756 ، له ثلاث رحلات منها رحلة قام بها عام 1139 هـ ، 1726 م توجد نسخة في خزانة ليبسيك .

وابن عثمان محمد المكناسى وزير السلطان المولى سليمان ، 1202 هـ ، 1787 م . له « احراز المعلى والرقيب فى حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب » ، نسخة لابن زيدان ضمت الى المكتبة العامة بالرباط .

وابن العربي المعافري أبو بكر محمد بن عبد الله ، 543 هـ ،
1148 م ، له رحلة توجد نسخة منها في مكتبة (الكتاني) التي ضمت الى
المكتبة العامة بالرباط وهي في أسفار ذكرها الناصري في رحلته .

ابن مليح محمد بن أحمد له رحلة اسمها « أنس الساري
والسارب » حققها الاستاذ محمد الفاسي .

وابن ناصر محمد بن عبد السلام 1239 هـ 1823 م ، مؤلف
« الرحلة الكبرى » في سفرين رحل عام 1196 هـ 1781 م اختصرها
المراكشي في الاعلام 193 ، 233 توجد نسخة في خزانة تامكروت
ونسخة بالمكتبة العامة بالرباط عدد 2327 ، وله رحلة صغرى قام
بها عام 1211 هـ ، 1776 م .

وأبو رأس محمد بن أحمد بن عبد القادر الناصري العسكري
1239 هـ ، 1824 م له « عجائب الاسفار » .

وأبو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي رحل الى المشرق عام
696 هـ ، 1295 م . له رحلة وقف عليها ابن حجر ، كما في « الدرر
الكامنة » ، في ثلاثة مجلدات ضخام هذا فيها حذو ابن رشيد الذي رحل
قبله بعشر سنوات وزاد تضمن الرحلة مشيخته مستوعبة .

وأحمد الشيخ بن عبد العزيز بن الرشيد الهلالي ، 1175 هـ ،
1761 م ، له رحلة الى الشرق .

وأحمد بن عبد القادر بن علي القادري عاش سبع سنوات في
القاهرة وتوفي بفاس 1133 هـ 1721 م ، له رحلة سماها : « شمس
الاس في حجة سيدنا أبي العباس » ، أي أحمد بن معن الذي رافقه إلى
الحج عام 1100 هـ ، 1689 م .

وأحمد بن علي بن محمد دينية الرباطي 1282 هـ ، 1864 م .
له رحلة الى الحج 1267 هـ ، 1850 م . ذكرها حفيده في كتابه « النسمات
الندية » ، طبعة الرباط 1936 .

وأحمد بن محمد المشنوكي له رحلة « هداية الملك
العلام الى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام » ،
توجد بخط المؤلف بخزانة تمكروت بالصحراء رقم 276 ، وقد شرع في
هذه الرحلة عام 1096 هـ ، 1684 م .

وادريس بن عبد الهادي الشاكري 1331 هـ ، 913 م . له رحلة
حجازية في كراستين توجد نسخة منها في المكتبة العامة بالرباط عدد
1115 د .

والحسن اليوسى له رحلة جمعها ولده محمد قام بها عام 1101 هـ
1689 م .

وعبد الرحمن المدعو رحو الغنامي الشاوي ، له رحلة أشار اليها
صاحب « صفوة من انتشر » ونقل عنها في « نزهة الحادي » .

وعبد السلام بن محمد بن المعطى السرغيني العمراني .

وعبد الله بن أحمد أبو مدين الروداني الدرعي ، له رحلة حجازية
ينقل عنها ابراهيم العيني في رحلته ، نسخة بخزانة تمكروت في مجلد .

وعبد الله بن محمد الوردى المراكشي كان حيا عام 999 هـ ،
1590 م له رحلة حجازية ذكرها ابن القاضى في درة الحجال ج 2
ص 342 .

وعبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر أبو سالم العياشي
1090 م ، 1679 م له رحلة اسمها « ماء الموائد » في مجلدين طبعت

بفاس عام 1316 هـ . 1898 م اختصرها محمد بن الحسن بنفاسي ،
ورحلة أخرى سماها : « تعداد المنازل » ألفها لتلميذه أحمد بن سعيد
المكلاسي .

وعبد المجيد بن علي الزبادي المنالي الفاسي 209 هـ ، 1794 م
له رحلة سماها « بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام » توجد
نسخة منها في المكتبة العامة بالرباط رقم 1808 د ، في 184 ورقة ، وقد
تضمنت قصيدة رائية في 129 بيتا جامعة لمراحل الحجاز من مصر الى
مكة مع مناسك الحج عليها شرح اسمه « اتحاف المسكين الناسك ببيان
المراحل والمناسك » .

وعبد الواحد بن الصنهاجي السوسي 1135 هـ ، 1722 م له
رحلة ذكرها الشيخ الحضيكي في الطبقات .

والعربي بن علي المشرقي العسكري المتوفى أوائل العشر الثانية
من القرن الرابع عشر له « الرحلة العريضة في أداء الفريضة » يوجد
طرف منها في الخزانة السودية بفاس .

والعربي بن محمد الدمناتي ، له رحلة ذكرها أبو عيسى المهدي
ابن سودة في ترجمته من فهرسته وقد رحل قبل 1244 هـ ، 1828 م
وهي تعد مفقودة .

ومحمد بن أحمد بن عبد الله الحضيكي له رحلة حجازية ، نسخة
بالمكتبة العامة بالرباط عدد 896 وأخرى بالمكتبة الملكية عدد 0405 .

ومحمد بن الحسن السبعي له رحلة قام بها عام 1310 هـ ،
1892 م ، توجد نسخة منها بمكتبة الكتاني الملحقة بالمكتبة العامة
بالرباط .

ومحمد بن سعيد الرعيثي الفاسي 778 هـ ، 1376 م . ،هـ رحلة
تنظم فيها مراحل الحجاز جذوة الاقتباس ص 147 .

ومحمد بن سليمان بن دواد الجزولي 863 هـ ، 1458 م له رحلة
ذكرها ابن القاضي في « لقط الفرائد » ومحمد الاسافي المتوفى 1150
له رحلة كانت بها الاميرة السيدة خنثة بنت بكار .

ومحمد بن عبد الله الولاتي الشهير بمولاي الشريف 1101 هـ ،
1689 م له رحلة حجازية رحلة المشرفي المسماة « الرحلة العريضة لاداء
الفريضة » .

ومحمد بن علي الرافعي النطواني له الرحلة الشرقية الحجازية
تاريخ تطوان ج 1 ص 312 .

ومحمد بن علي الطرابلسي المعروف بزغوان ، له رحلة اسمها
« النفحات القدسية في الرحلة الحجازية » - توتد نسخة بالمكتبة العامة
بالرباط عدد 1836 د .

ومحمد بن علي المعروف بالعيشي ، له رحلة
حجازية ذكرها عبد المجيد بن علي الزبادي المنالي في رحلته حيث وقف
عليها في مجلد بخط المؤلف بخزانة رواق المغاربة بالازهر .

ومحمد بن محمد المرابط الدلائي الفاسي - 1099 هـ ، 1687 م
له الرحلة المقدسة - 136 بيتا - ذكر فيها منازل الحج من فاس الى
المدينة المنورة راجع (البدور الضاوية لسليمان الحوات) .

ومحمد بن محمد التامراوي - 1285 هـ ، 1868 م . له رحلة
قام بها عام 1242 هـ أوردتها بنصها المرحوم محمد المختار السوسي
في كتابه المعسول - ج 8 ص 198 ، 213 ، حلة استيراد المؤلف
لكتب كثيرة بخط مشرقى .

ومحمد بن منصور العامري — المتوفى حوالى 1176 هـ ، 1756 م له « الرحلة العامرية » وصف فيها المراحل من تازا الى الحرمين والشام وهى همزية نظمها فى 335 بيتا عام 1152 هـ .

وأحمد بن عبد الله الغربى الرباطى — 1178 هـ ، 1764 م — رحل الى المشرق عام 1140 هـ ، 1727 م وطار صيته فى الحجاز .

ومن العلماء الحجاج ممن صنفوا فى « مناسك الحج وآداب الزيارة » أحمد بن قاسم جسوس — 1331 هـ ، 1912 م — الذى توجد مخطوطة كتابه فى المكتبة العامة بالرباط عدد 1821 —

وسليمان بن أحمد الطنجى المتوفى قبل 440 هـ — 1048 م كما فى (جذوة المقتبس ص 208) وهو من المغاربة الذين جاؤوا فى الحجاز وطاقوا المعمور .

وموسى بن ابراهيم أبو هارون الاغماتى المحدث المشهور — 516 هـ 1122 م — الذى التحق بعد أن أقام فى الحجاز بمصر وخراسان وما وراء النهر وأقام بنيساتور كما فى طبقات السبكي ومعجم ياقوت الحموي . —

وعلى بن عتيق بن عبد الرحمن الفاسى الاصولى — كان حيا عام 726 هـ ، 1325 م — .

ومحمد بن موسى المكى الذى سمع من شيوخ مصر ثم رحل الى الشام والقدس واليمن حيث ولى مدرسة الناصر وقام بها الى أن توفى عام 823 هـ ، 1420 م .

ومحمد بن محمد العقاد المكى 1030 هـ ، 1620 م الذى مدح المنصور لدى خاقان ملك الاتراك .

ومحمد المجيدري اليعقوبى المغربى الذى كانت كانت له جولات
فى الحجاز وسائر أقطار الشرق .

وعبد الله السوسى الأديب الشاعر الذى أقام بتونس وفاق
أقرانه ثم توجه الى الشرق وخاصة الحجاز واستفاد من علمائه وعاد
الى افريقية حيث نقله الأمير على الى تونس (عيون الأريب عما
نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب للشيخ محمد النيفرج 2 ص 20
طبعة تونس 1351) .

ومحمد بن خليفة المدنى الرحالة الشاعر الذى توفى بمكناس
1313 هـ ، 1895 م .

ومحمد الفاطمى بن الحسين الصقلى الشاعر المحاضر دفين المدينة
المنورة 1311 هـ ، 1893 م ، له تاريخ فى علماء عصره ، كما فى الاعلام
للمراكشى ج 6 ص 157 ، مخطوط .

ومحمد بن أحمد بن سالم الصباغ المكى الذى توفى فى رحلته الى
المغرب 1321 هـ ، 1903 م له « تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام
والمشاعر العظام » الاعلام للزركلى ج 6 ص 247 .

عناية المغاربة بأدب الرحلات وعلم الجغرافية

كان الحج الى مكة سببا في تأصل فن الرحلات عند الاندلسيين والمغاربة ولذلك اهتموا بتدوين الرحلات وتخصصوا في هذا الفن ، وفرعوه الى رحلات جغرافية ورحلات أدبية ، ومن النوع الاول ما كتبه الوراق والبكري وأبو حامد الغرناطى ، والادريسي والاوديى وشهبون من المتأخرين . ومن النوع الثانى ما كتبه البلوى وابن بطوطة وغيرهم كابن رشيد والنميري . وغيرهم كثير ويرجع الاهتمام بالتأليف فى الجغرافية عند الاندلسيين الى عصر الخلافة الاموية الاندلسية ، فقد كتب محمد بن يوسف الوراق المكنى بأبى عبد الله وبالملقب بالتاريخى (291 - 362) كتابا فى مسالك افريقيا وممالكها والوراق نشأ بالقيروان ، ثم دخل الاندلس ، وأقام بها الى أن توفى بقرطبة وكان ذا حظوة فى عهد حكم المنتصر وقد اعتمد عليه البكرى فى كتابه ، وترك لنا الوراق كتابا عن أفريقيا - وأخبار ملوكها وحروبها ، كما ألف كتابا عن أخبار تيهرت ووهران وتونس وسجل ماسة ونكور والبصرة ثم جاء الجغرافى البكرى المولود بقرطبة سنة 432 والمتوفى سنة 487 الذى نشأ فى ولبة ثم خرج الى قرطبة بعد سقوطها واتصل بالمؤرخ ابن حيان ، ويرى دوزى أن البكرى أعظم جغرافى أنجبته الاندلس وقد ألف كتاب المسالك الذى ترجم (كاترمير) الجزء الخاص منه بالمغرب وأتمه دي سلان ، كما ألف معجم ما استعجم الذى وصفه دوزى بالدقة والوضوح ، وبعد البكرى جاء عبد المنعم الحميرى المتوفى سنة 866 هـ صاحب الروض المعطار فى خبر الاقطار الذى ينقل عنه المقرئ فى نفح الطيب والذى اختصره المقرئى ونشره لفى بروفنسال ، ومن جغرافى الاندلسى أبو حامد الغرناطى (ت 564) الذى كتب عن صقلية ومصر وآسيا الوسطى وخوارزم وبغداد وألف للوزير

يحيى بن هبيرة (المغرب من عجائب المغرب) ، وأشهر كتبه الجغرافية (تحفة الاصحاب ونخبة الاعجاب) ويتألف من مقدمة وأربعة أبواب ، الاول فى وصف الدنيا وسكانها والثانى فى عجائب البلدان والعمران . والثالث فى البحار والحيوانات والرابع فى الحفائر والقبور .

وتفوق المغاربة على الاندلسيين فى فن الرحلات ويرجع ذلك لما فطر عليه المغربى من جدية فى الاستقصاء وصبر على الترحال ، وساعدهم على ذلك الاستقرار والامن وبناء الربط ومنازل الاستراحة وهى حسبما ذكره القرطاس تقع ما بين السوس الاقصى الى (سويعة بنى مطكود) وما كان بالبلاد من تكسير بلاد افريقية من يرقة الى النول ومن سوس طولا وعرضا بمقياس الفراسخ . . . ومن أشهر كتب الرحلات الادبية كتاب المعجب ، وهو كتاب هام فى الجغرافية والتاريخ ختمه مؤلفه عبد الواحد بن على التميمى المراكشى (581 - 618) بنبذة عن اقليم المغرب والاندلس وجغرافيتهما العامة ، وأبو الخطيب سهل بن القاسم زغبوش المكناسى مؤلف تاريخ مكناس ، وهو من مصادر بن غازى مؤلف الروض الهتون ، وأبو يحيى ابن المعلم الطنجى معارض الشقندي فى تفصيل المغرب على الاندلس ، ومؤلف الاستبصار فى عجائب الامصار الذى كان فى عصر عبد المومن بن على (سنة 587) ثم أبو على المراكشى المشهور بأبحاثه الرياضية (660) ، وابن فاطمة المغربى الذى ينقل عنه ابن سعيد فى (المغرب) ، وقد قام بجولات بحرية فى جنوب افريقيا حيث غرقت السفينة التى كان بها عند الرأس الابيض بعد أن تعرف على الساحل الافريقى المغربى . ومن هؤلاء الجغرافى عبد الرحمن بن هارون المغربى الذى تكلم عنه الحافظ ابن الجوزى المتوفى سنة 751 ، واهتم المرابطون والموحدون بصفة خاصة بعلم الجغرافية ، وكان بعض الخلفاء والامراء ذوى عناية واهتمام بدراساتها ونقل صاحب نفح الطيب أن الخليفة يوسف ابن عبد المومن سأل أبا عمران موسى بن سعيد عن قرطبة فقال أبو عمران ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب

أمير المؤمنين فيها فأخذ الخليفة يحدثه عن قرطبة وديارها ، وشوارعها ومياها ونهرها وهوائها وموقعها الجغرافي وضواحيها وفلاحتها فتعجب منه ، وكان الخلفاء الموحدون يباهون بجمال بلادهم ويروى صاحب نفح الطيب أيضا أن تاج الدين السرخسي سأله يعقوب المنصور عن رأيه في بلاد المغرب وموازنتها بالبلاد الشامية فلم يجد جوابا الا في أن البلاد المغربية تنسى الاوطان اما هو فقد أبان عن معرفته بها ، وقد نتج عن اهتمام الخلفاء بالجغرافية ان أخذ الكتاب يدونون رسائل جغرافية في المفاضلات بين المدن ، كرسالة الاديب أبي بحر صفوان بن ادريس التي أهداها الى الامير عبد الرحمن بن يوسف بن عبد المومن ورسالة ابن المعلم الطنجي ، وذكر مؤلف نفح الطيب أن الامير الموحدى أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن أرسل الى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار ويعرفه بضرورة الحرية التجارية ويهدده بأن في وسعه أن يضيق على تجار بلاده الخناق ، ولكنه لا يقبل ذلة لانه لا ينهى عن خلق ويأتى بمثله ، ولا شك أن تحسن التنقلات البحرية وتقدم بناء السفن في عهد الموحدين كان من أشد العوامل أثرا في ازدهار الرحلات وتقدم علم الجغرافية اذ بذل العلماء جهودا في تحديد البلدان والمواقع وعام حركات الافلاك ومقاييس الطول والعرض وتحديد السمات واستغلال البرصة البحرية . فكان ذلك ذا أثر لا ينكر في تقدم علم الجغرافية بصفة خاصة وينقل المؤرخ سديوفى تاريخ العرب أن أبا الحسن المراكشى كان راصدا بصيرا جال في أوائل القرن الثالث عشر المسيحى جنوب اسبانيا ، وكثيرا من افريقيا الشمالية فأبان عن ارتفاع القطب في احدى وأربعين مدينة واقعة بين افران على المحيط الاطلانطكى وعاصمة مصر أى ما تعدل مساحته تسعمائة فرسخ من الشرق الى الغرب . وعن ولوع المغاربة بالسياحة والتجوال في مشارق الارض ومغاربها يقول الاستاذ برانشفيك في مقدمة كتاب (رحلة عبد الباسط) بأن من الطبيعي أن ينتج المغرب الاسلامى مؤلفى الرحلات بوفرة عظيمة وينبغ به

عدد من الرحالة لان المغاربة والاندلسيين كانوا يشعرون بدافع شديد ينزع بهم الى كتابة ذكرياتهم وتسجيل ما يختلج بأنفسهم عن رحلتهم الى الشرق بقصد طلب العلم وأداء فريضة الحج ، أو دوافع أخرى ذات أصل ديني كنشر الدين في البلاد الافريقية ، وما يتبع ذلك من رباط وجهاد أضف الى ذلك ما ذكر الادريسي في نزهة المشتاق عن ثروة أهل أغمات المكتسبة من تجارتهم مع السودان حيث كانوا يدخلون بأعداد الجمال الحاملة لقناطر الاموال من النحاس الاحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من زجاج وأصداف وأحجار ، وضروب الافاويه والعطر وآلات الحديد ، وتطورت التنقلات في المغرب في الحج الى سفريات منظمة في (الركب الحجازي) يركب أبى محمد صالح المتوفى سنة (631) وقد أورد تفاصيل عنه الكانوني في كتابه (اسفى وما اليه) . وكان أتباعه يبنون المنازل للحجاج فى طريقهم الطويل التى تبتدىء من بلاد حاحة الى الاسكندرية . وتأسيس مراكز لايواء الحاج المغربى و عرف المغاربة طريقا صحراويا عن سجلماسة كما عرفوا طريقا بحريا وساحليا . . . وتعود المشاركة رؤية هؤلاء الحجاج فاحتفوا بهم فى طريقهم لاداء الفريضة . ويروي ابن جبير أن صلاح الدين الايوبى جعل مسجد ابن طولون مأوى الغرباء من المغاربة يسكنونه وأجرى عليهم الارزاق فى كل شهر كما صنع نور الدين نفس الصنيع مع المغاربة فى دمشق .

وكانت المعلومات الجغرافية التى انتهت اليها المدرسة المغربية نزاعة الى العلم المعتمد على التجربة والاختيار لا الى الرواية والحكاية . ولذلك فقد حققوا كثيرا من الآراء والاقوال وعرفوا عدة حقائق ويذكر مؤلف عقود الجمان أن المهدي ابن تومرت كثيرا ما كان ينشد :

ومن أعجب الاشياء انك قاعد
على الارض فى الدنيا وأنت تسيّر

وسيرك يا هذا كبير سفينة
بقوم قعود والشراع تطير .

وقال ابن عربى الحاتمي فى الفتوحات أن الارض تدور حول نفسها
وان حركتها خفية عند وسطها لانها كرة كما أن له آراء فى الاثير لا تخلو
من طرافة . وابن عربى تلقى دراسته بالاندلس والمغرب وهو انما يروى
أفكار معلمية ، كما نقل ابن خلدون عن ابن رشد الفيلسوف قوله بأن
ما وراء خط الاستواء فى الجنوب بمثابة ما وراء الشمال فيعمر منه ما
عمر فى هذا ، ويقص الشريف الادريسي خبر الاخوة المغرورين الذين
وصلوا الى جزر الانثيل .

ولعل معرفة المغاربة الدقيقة بمجاهل افريقيا وتعرفهم على
نهر النيجر وروافده ، ثم معرفتهم بالديار المصرية ونهر النيل ، حفزهم
الى البحث عن ينابيع هذا النهر فكان لهم الفضل فى اكتشاف أصله ، وقد
ألمع الشريف الادريسي فى النزهة الى ينابيع النيل وأوضح ذلك فى خريطته
وصورها فى بحيرات عند خط الاستواء ، وقد نقل جرجى زيدان هذه
الصورة الفريدة عن خريطة بمتحف (سان مرتين بفرنسا) ، بل ان مؤلف
مسالك الابصار يروى عن شرف الدين عيسى الزواوى بأن الامير أبا
دبوس بن أبى عبد المومن حدثه أنه وصل الى البحيرة التى ينبع عنها
نيل مصر أيام هربه من بنى عبد الحق المرينى .

وأبدع المغاربة فى ميدان الجغرافية الرياضية فذكر ابن الطفيل فى
رسالة حى بن يقظان بأن الشمس ليست حارة بذاتها ، وانها كروية
الشكل ، وأعظم من الارض بكثير ، وأن الارض كروية مثلها وان الجزء
الذي يستضىء منها أبدا بالشمس أعظم من النصف الآخر ! .

ويذكر مؤلف (تاريخ العرب العام) أن ابن رشد ذكر أنه رأى كلفتين على وجه الشمس وأثبت ذلك في مختصر المجسطي ، كما أبدع المغاربة في المزاويل الشمسية ، لمعرفة الاوقات ومدارات الشمس ورسموا صورتها على رخامات ضخام في أغلب المساجد المهمة ، واهتموا كذلك بالساعات المائية وتفوقوا في الربع المجيب والاسطرلاب ، وشاع تعليم الجغرافية في المغرب القديم ، فكانت تدرس بجانب التنجيم والحساب في جل المعاهد العلمية وغزت مصطلحاتها الفنية لغة الكتاب والشعراء .

فن الرحلات في الأدب العربي

لعل أول رحلة مطولة شبه موسوعة جغرافية نعرفها في تاريخ هذا الفن هي التي كتبها أرنيمذورس الرهاوي ، أحد جغرافي اليونان وقد عاش في بداية القرن الاول قبل الميلاد ، وطاف بايطاليا واسبانيا ، وسواحل المحيط الاطلسي ، وتأثر بمن سبقه من الجغرافيين والمؤرخين اليونانيين كـ (تيموستينوش) واراتوستينس ، وأغاترخيذس ، وبوليبيوس . . . ويشمل كتابه أحد عشر سفرا خص السابع ، بوصف أحوال البربر ، وقد كان يعتنى بذكر البلاد ووصفها وبيان نظام الحكومات والاسفار ، ونقل عنه سترابون في كتابه التاريخي المشهور كثيرا من المعلومات على أن من أشهر الرحلات اليونانية القديمة ، رحلة هلاكس اليوكانى في القرن الرابع بعد الميلاد ورحلة حنون القرطاجنى حول القارة الافريقية ، ورحلة عملقون الى سواحل أوربا الغربية .

وكانت (شرشال) عاصمة علمية في عهد يوبا الثانى المتأثر بالثقافة الهلينية ، فكانت بها حركة علمية تاريخية ، كما كانت بها جامعة لدراسة الطب ظهر فيها عدة علماء وأطباء ورحالة مؤرخين من البربر أشهرهم

القديس أوفستينيس ، وترترليانوس ، ومرونتوس القرطبي ، ،
وأوريليوس ، وأولوجيلوس ، وأوبوليوس مؤلف رواية الحمار الذهبي
الذي تناول الحياة المغربية العامة بوصف دقيق مستعرضا ذكر عدد
من الشخصيات المغربية في عصره كما كان بها فلوروس المؤرخ البربري الذي
عاش في العصر الروماني في المغرب وهو أثبه ما يكون بلبن خلدون ،
فكلاهما فيلسوف باحث اجتماعي وراوية ، وكلاهما كان رجلا سياسيا
في عصره خدم الاول القياصرة وراسلهم شعرا ونثرا ، فخر تاريخ
الشعوب والحكومات ، وهو الذي قسم الدولة الى أربعة أعصر وتبعه ابن
خلدون في ذلك (2) .

ولما بلغت الدعوة الاسلامية الى المغرب تسابق سكانه الى اعتناقها
ايماها بمبادئها الصادقة وتحريرها لهم من ظلم الوندال والرومان ، وأعانت
فريضة الحج على الهجرة والرحلة الى المشرق حيث عرف المغرب أعلام
التاريخ والرحلات لما يوجب الاسلام من حج وما استلزمته الفتوح من
دراسات جغرافية ، اذ بعد الفتح الاسلامي اضطرت الادارة العربية الى
تكليف العمال والموظفين بالتقارير الجغرافية عن الامصار ، والاقاليم
التي كان المسلمون قد فتحوها وبذلك نمت معارفهم الجغرافية عن
جزيرة العرب والشام والعراق وبلاد العجم وبلاد التتار وجنوبي روسيا
والصين والهند وكان ذلك بداية علم الاقاليم كما ذكر ذلك مؤلف (الفروع
بما هو مطبوع) (ص 47) ويذكر مؤلف صناعة الطرب في تقديمات
العرب (ص 419) أن الخلفاء في صدر الاسلام أمروا أمراء جيوشهم
وعمالهم ليرسم كل منهم خططا للبلاد التي فتحوها واستولى عليها ،
وفي (كتاب التواريخ المصرية) تقرير جغرافي كتبه عمرو ابن العاص لعمر
رضي الله عنه جاء فيه « مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر
وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون

(2) انظر كتاب البربر ، للاستاذ عثمان الكعاك .

الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، تظهر به عيون الارض وينابيعها حتى اذا عجز عجيجه وتعظمت أمواجه لم يكن وصول بعض أهل القرى الى بعض الا في خفاف القوارب وصغار المراكب فاذا تكامل في زيادة نكص على عقبه كأول ما بدأ في شدته وطمى في حدته فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابييه (أعالي الارض وأسافلها) يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حنى اذا أشرق وأشرف (ظهر وبان) سقاه من فوقه أندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء اذا هى عابرة سوداء ، واذا هى زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميتها ويقر قاطناتها فيها ويقبل قول خسيسها وان لا يستادى خراج ثمرة الا فى أوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل ، وقال مؤلف (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) المطبوع بليدين سنة 1850 مسيحية فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب قال (لله درك يابن العاص لقد وصفت لى خبرا كأنى أشاهد) وتقرير عمرو بن العاص اهتم به المستشرقون وترجم الى عدة لغات (أوستاف أوزان) فى مجلة (الفيجارو) . وقالوا عنه علامات تقدير واعجاب .

رحلات شرقية ومغربية

ظهر أدب الرحلات كفن مستقل فى بلاد المشرق حيث بدأ بما كتبه العلماء عن رحلاتهم العلمية للدراسة والتعليم والتفقه ، وكانت رحلة الامام الشافعى العلمية (205) أول أثر معروف لدينا فى هذا الباب كما كانت رحلة الخطيب البغدادي المتوفى سنة (463) فى طلب الحديث أكثر افادة وشرحا من سابقيها ، ويذكر حاجى خليفة عدة كتب تدخل فى

اعداد هذا الصنف ، منها رحلة تقى الدين أبى عمر عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح الشهرزورى ورحلة بدر الدين بن رضا الدين الغازى المتوفى سنة 984 وأخبار الهند والسند والصين من تاريخ الاسلام للذهبي ورحلة جلال الدين السيوطى المتوفى 911 هـ المسماة بالرحلة الفيومية المكية الدمياطية ورحلة ابن نباتة ورحلة السرخسى للاندلس والمغرب وفى الباب الخامس من نفح الطيب تعريف بمن رحل من الاندلس الى بلاد المشرق كما فى الباب السادس تعريف بمن رحل من المشرق الى المغرب . وهذه الرحلات كلها تتناول الموضوع عن الاتصال بالعلماء وأخذ السند من غير اهتمام بالمدن ووصف الحياة الاجتماعية والبيئة فهى تبت أعلام ، وهذا النوع من الرحلات شاع فى المشرق والمغرب ، ولم تختص به بلد من البلاد الاسلامية بل لم يشع هذا الصنف من الرحلات فى الاندلس والمغرب وانما شاعت بها (الرحلات الحجازية) واختص فيها المغاربة وتفوقوا فيها ، ولعل أول أثر عربى فى هذا الموضوع هو ما كتبه أحمد بن فضلان الذى أوفده الخليفة المقتدر المتوفى سنة 332 بلدايا الى أمراء بلغار (الفلجا) فكتب رحلة عن مشاهدة نشرت فى ترجمة المانية سنة 1827 وحققتها من المتأخرين الدكتور سامى الدهان (3) وزار أبو حامد الغرناطى سنة 564 هـ 1473 م مصر وبغداد وخرسان وسوريا ودون رحلته عن هذه الزيارة ، كما كتب عن المغرب تاج الدين الحموى السرخسى سنة 573 الذى زار الاندلس والمغرب سنة 593 وألف رحلة استفاد المقرئ منها فيما كتبه ورحلة الحميرى الجغرافية ورحلة ابن هارون الاغماتى وما كتبه المراكشى وابن دحية ، وتداول بعد ذلك ابن الخطيب فى الاندلس حيث كتب (خطرة الصيف ورحلة الشتاء والصيف) ، كما ألف ابن الحاج النميرى المولود 713 رحلة قبض العباب واجالة فدح الآداب «

(3) ذكر ياقوت الحموى فى معجمه رحلة ابن فضلان لدى كلامه على بلغار ، وله ايضا رحلة اخرى فى خوارزم ساق ياقوت نبذة منها لدى كلامه على خوارزم وكذب المؤلف فى مواضع منها .

وكتب المقرئ روضة الآس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس وألف ابن الطيب الشرقي الافق المشرق بتراجم من لقيناه بالمشرق ، وبجانب هذه الرحلات ظهرت (الرحلات السفارية) فقد كتب في هذا أبو الحسن علي بن محمد التمكروتي الذي سافر الى عاصمة العثمانيين ، ومحمد بن عبد الوهاب الغساني المعروف بالوزير مؤلف رحلة الوزير في اغتكاك الاسير وهي عن سفارته الى اسبانيا من طرف المولى اسماعيل وكتب الغزال في عهد محمد بن عبد الله رحلته الى اسبانيا لعقد صلح مع شارل سماها نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد .

ولأبي قاسم الزباني المتوفى سنة (1249 هـ - 1833 م) رحلة الترجمانة الكبرى ، ولأبي عباس أحمد بن عبد القادر الكردي رحلة الى اسبانيا في عهد المولى الحسن الاول اسمها التحفة السنوية للحضرة الشريفة الحسينية بالملكة الاصينيولية في 15 شعبان سنة 1302 وكان بجانب هذه الرحلات السفارية رحلات الى أوروبا للبحث عن تقدمها وتطورها ألفها كتاب استهواهم الفضول العلمي والبحث عن مظاهر التقدم الغربي ومن هاته الرحلات ما كتبه محمد السائح عن رحلته الى باريز المسماة الرحلة الباريزية .

على أن فن الرحلات الذي توفق فيه المغاربة هو الرحلات الى الحجاز (1) ويرجع ذلك للحنين الى مهبط الوحي والارتواء من معين الينابيع الاسلامية والاخذ عن علماء الاسلام المشهورين ، وقد امتازت بأسلوب خاص في العرض والعمل اذ غالبا ما يستخير الرحالة قبل العزم ، ويكون الخروج من بلده يوم الخميس كما يهتم في كتابه بذكر تاريخ الوصول وتاريخ الخروج من كل مدينة ويعطى الكاتب معلومات واضحة عن المدن والقرى والاولدية والحياة الاجتماعية والعوائد والادارة والتجارة والفلاحة

وعن العلماء الذين اتصل بهم ، ويهتم بوصف مساجد المدينة ومنابر أكابرها كما يتكلم عن عدد السكان ، ومراحل السفر ، ومراكز الماء وكانت الطريق اما على الساحل أو في البحر أو مخترقا الصحراء وعندما يصل الرحالة الى الحجاز يتحدث عن مناسك الحج ، ثم بعد أدائه للفريضة يتوجه الى أهم عواصم الاسلام ولا شك أن دراسة هذه الرحلات يقدم لنا صورة حية عن المجتمع الاسلامي وحالته السياسية والاقتصادية كما أن دراسة تاريخ الرحلات يعرفنا بمدى تطور العالم الاسلامي وتقدمه ، أو تأخره وانحطاطه وأسباب ذلك .

ومن أشهر الرحلات الحجازية رحلة العبدري 688 ورحلة أبي الحسن محمد أحمد ابن جبير (540 — 614) الذي عاصر ابن رشد الذي عصره من أبهى عصور الثقافة الاسلامية . وتعتبر رحلة أهم ما صنف في هذا الفن ، ورحلة أبي عبد الله بن رشيد سنة 658—711 التي تقع في عدة أجزاء يوجد أغلبها في الاسكوريال ، ورحلة ابن سعيد المغربي (605 — 685) المسماة بالنفحة المسكية في الرحلة المكية . ورحلة أبي العباس أحمد بن الحسن ابن قنفذ القسطنطيني المولود سنة 770 موافق 1345 م — المتوفى 809 وهي رحلة بها عدة تراجم ، ورحلة التجاني المسماة بالرحلة التجانية ، ورحلة الرعيني السراج من أعيان أواسط القرن الثامن ، ورحلة البلوي في أواسط القرن الثامن ، ورحلة زروق في أواخر القرن التاسع وهي رحلة ذات طابع فقهي .

ولاحمد بن عبد الله بن أبي محلي السجلماسي المتوفى سنة 1023 هـ رحلة (الاصلية الخريت في قطع بعلوم العفريت النفريت) ، ولأبي علي الحسن بن مسعود اليوسفي المتوفى سنة 1102 هـ ، ورحلة حجازية لم تكن تعرف له ، وإنما كان الظن أن الذي كتب الرحلة هو ولده أبو عبد الله محمد وقد حج معه ، ويطلق أحيانا اسم الرحلة على كتاب المحاضرات له ، وهي غيرها .

ولعبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي الغنامي المعروف
برحو الشاوي رحلة حجازية (رحلة القاصدين ورغبة الزائرين) قام بها
المؤلف سنة 1141 هـ .

ولمحمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1239 هـ - 1823 م
رحلة الحجازية الكبرى وهي من أهم ما كتبه المغاربة في هذا الفن وقد
فرغ من كتابتها في التاسع والعشرين من جمادى الاولى 1199 ، ولم
يذكرها ليفي بروفنصال ولا بروكلمان (6) .

غير أن التدهور الذي أصاب المغرب الاقصى والنهاية المؤسفة
التي انتهت اليها الاندلس أدت الى تقلص العصور الذهبية للثقافة العامة
وظهرت رحلات أقل أصالة مما كان من قبل وأصبح التصوف السلبي
يطبع أدب الرحلات وبذلك ظهر في الرحلات نوع مهمل يعتمد على السرد
وعدم الوحدة في معالجة الموضوع والاعتناء بالتوافه والاهتمام بالفتاوى
التي لها موضوع آخر غير أدب الرحلات ولكن مع ذلك فقد كتبت رحلات
أو فصول منها ذات طابع مشرق كرحلة المقرئ في مقدمة نفح الطيب
وكرحلة أبي العباس أحمد أفوغاي (1598 م -
1638 م) ورحلة الشهاب الى لقاء الاحباب ورحلة
أحمد ابن محمد بن داود بن يعقوب الجزولي الهشتوكي المسماة
هداية الملك العلام الى بيت الله الحرام ورحلة بن المليح في القرن
لحادى عشر المسماة أنس السارى والسارب في أقطار المعارب (1)
1042 هـ (30 - 1633 م) - 1633 ميلادية ، ورحلة العياشى
(1090 - 1137) ورحلة أبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى
ورحلة الورثليانى ، ورحلة أحمد القادري 1640 ،
1721 المسماة نسمة الآس في هجرة سيدنا أبي العباس وهي ترجمة

6، تاريخ الفكر الاندلسى ص 522 .

7، راجع مجلة الدراسة العربية سنة 48 ، للحاج صادق محمد .

(1) نشرها الاستاذ محمد الفاسى .

أبى العباس أحمد بن عبد الله معن ، ورحلة محمد بن الخطيب الصميلي الشركي استاذ الشيخ مرفضى ، ورحلة البنانية لمحمد بناني سنة 1141 ، ورحلة الحظيكي ، المسماة بلوغ المرام الى بيت الله الحرام ، ورحلة العلامة الروداني ، ورحلة أحمد الهلال ، ورحلة عبد القادر الكوهن ، ورحلة القاسية للشيخ الطيب ابن كيران ، ورحلة محمد طاهر بن عبد الرحمن الفاسي المسماة الرحلة الابريزية الى الديار الانجليزية 1276 هـ 850 م ورحلة محمد السائح المسماة الرحلة الحجازية ، رحلة الهولري المسماة بالرحلة الحجازية ، وقد ظهر في الشرق أيضا ، هذا الفن في أسلوب جديد حيث كتب البتنوني رحلة قيمة الى الحجاز سنة 1909 وذاعت رحلة مرآة الحرمين في العالم العربي ، كما كتب الدكتور حسن هيكل منزل الوحي وبعده كتب الدكتور عبد الوهاب عزام رحلته الحجازية في أسلوب قشيب وملاحظات دقيقة .

وكذلك اهتم الكتاب المغاربة بنقد الرحلات ، فانتقد ابن الخطيب رحلة ابن بطوطة كما انتقدها ابن خلدون في المقدمة ، يذكر الزياتي في الترجمة الكبرى أنه عرض على علماء الهند ، الذين اجتمع بهم في مكة ما جاء في كتاب ابن بطوطة عن الهند فانكروا كثيرا مما فيها من أخبار ملوكهم وأبطلوا قضاء ومصاهرتة . . . وكما يذكر الزياتي أن ابن بطوطة لما عاد من رحلته وذكر ما لقيه من الملوك ومصاهرتة لملك الهند وولاية القضاء وأنه قد حصل بذلك على أموال عظيمة ، ريفه الناس وكذبوه ، وأنه لما عاد للعدوة لم يتصل بالسلطان أبى عنان المريني بل في رحلته للسودان أخفق في سعيه ، ولما بلغ خبره للسلطان المريني كتب له واستقبله وعندما اجتمع به عاتبه على عدم الاجتماع به لما قدم من الاندلس لفاس ، وكان أبو عنان فرغ من تشييد المدرسة المتوكاية فاعتذر ابن بطوطة بأنه لما رجع لفاس ورأى المدرسة المتوكاية لم ير لها نظيرا في الشرق الأدنى وأوروبا والشرق الأقصى وبلاد الاسلام كافة وأراد أن يتم رحلته في

أفريقيا ليتأكد من عدم وجود ما يضاهيها في العالم ، فأكرمه أبو عنان وأمره أن يؤلف رحلته ويذكر فيها مدرسته التي زعم أنها لا نظير لها في المعمور ، وقد علق الزيانى على قول ابن بطوطة مؤيدا لنقد ابن الخطيب والبلوي (9) لابن بطوطة ، وقال أنه دليل على ما لمزه به فقهاء الاندلس ، لما في عدة بلاد أخرى كمصر والشام والعراق من المدارس والمساجد ما هو مثلها وأعلى منها . ويذكر الزيانى أن أحد الطلبة كان يسرد لسيدى محمد بن عبد الله العلوى سلطان المغرب رحلة ابن بطوطة ولما وصل الى ما ذكره ابن بطوطة عن ابن تيمية من آرائه في الاستواء والنزول وأنه نزل من محل جلوسه وقال كنزولى هذا قال له السلطان أطو هذا الكتاب وبعه في السوق وكل ثمنه لحما ، فهذا رجل كذاب من أهل التجسيم كمن نقل عنه ، ووالله لو حضر بين يدي لأضرب عنقه ، ويقول عنه الزيانى أنه تحقق عنه بما وسمه به أهل الاندلس من الكذب سيما وهو من أهل البدع ، وينقل الزيانى عن الاحاطة نقلا عن شيخ ابن الخطيب أبى البركات البلفيقى أن عبد الله اللواتى الطنجى كان رجلا له مشاركة في الطب ، ورحل الى المشرق وتزى بزى الصوفية وجال في بلاد العجم والسند والهند والصين وعاد لبلاده طنجة وجاز البحر للاندلس وبلغ غرناطة واجتمع مع فقهاءها في دعوة وكان يحدثهم عن رحلته يومه وليله فاستغربوا أخباره واستبعدوها . وفي سلسلة الروائع نقد لابن بطوطة وذكر لاغلاطه في رحلته كما بسطت ذلك في كتابى عن ابن بطوطة .

الرحلات في أدب الملحون

نجد في الشعر الملحون المغربى قصائد طويلة تدخل في فن الرحلات ، ولكنها رحلات خيالية لان الشاعر كان يصور أنه يوجه

(9) ولم أجد نقدا لابن بطوطة في رحلة البلوى .

طائرا لزيارة مكة والمدينة شوقا الى البقاع المقدسة وقبر الرسول ،
فيصف الطائر المراحل التي قطعها . . . وأحيانا يوجه الطائر الى حبيبه
البعيد فيصف ما وجدته في طريقه من البلاد وتسمى هذه القصائد في لغة
الملحون بالورشات والحمام ، والمراحل المطلعة . ويعنى الشاعر فيها
بوصف البلاد ، وأحياء المدينة الى يتخيل أن العشوقة تركت عند حبيبها
(حليا) أو (خلخال) أو « دمليجا » 1 أو « دواحا » (10)
أو (سالف) (11) . . . وللشاعر المدعري قصيدة مشهورة وكقصيدة
الطرشون لابن على (12) .

رحلة البلوى بين الرحلات المغربية والأندلسية

تعتبر رحلة البلوى رحلة أدبية لما في أسلوبها من نثر محكم وتغيير
بليغ وعبارات منتقاة ، وقد استوفت شروط الرحلات الادبية لاهتمام
المؤلف بقضايا الفكر ، وترجمة الاعلام الذين اتصل بهم ، وأخذ عنهم ،
وذكر الكتب العلمية والدواوين الشعرية الذائعة في عصره ، بل يعتبرها
كثير من رجال الرحلات والمؤرخين والمترجمين نموذجا يحتدى ، لذلك
فلا بدع أن نرى رحلة البلوى مرجعا هاما عند علماء التراجم وكتاب
الرحلات وأن نراهم جميعا يذكرونها ، وينقلون عنها في ثقة وتقدير
لمؤلفها .

(10) سوار

(11) ضفيرة شعر .

(12) انظر هسبيريس : عدد 66 - 17 .

الرحلات في أدب الموريسكو

ظل أدب الرحلات شائعا في الاندلس حتى بعد سقوط غرناطة وفيها رحلة تسمى (رباعيات حاج ييويء منسون)

Conlas del Al Hichante du pney Monçon

وهي رحلة الى مكة قام بها حاج موريسكي في القرن السادس عشر الميلادي ، ونظمها في شعر فشتالي يتركب من مقطعات Conlas رحل صاحبها الى الحج من ينسبه الى تونس ، وزار مصر والحجاز . . ووصف الديار المقدسة . . وقد وجد نصها الاسباني مكتوبا بحروف عربية صعبة القراءة ، وغير واضحة ونشرها المشرق ، (مريانا دي بانو) بحروف لاتينية .

الأسلوب الادبي في رحلة البكوي

يعتبر أدب الرحلات فنا مستقلا بذاته لم يخضع بعد لدراسة تحليلية عن نشأته وتاريخه ومميزاته وتطوره ، وان كان من البديهي أنه عمل فني من الفنون النثرية التي تظهر عادة متأخرة عن الشعر في مختلف الحضارات ، كما أنه من فنون الكلمة المقرؤة التي تدخل في نوع القصص السردي الادبي الذي يقرأ وينسخ كالمحمة والرواية والقصة والاقصوصة والمقالة ، وادب الرحلات له صلات بعدة فنون أدبية وعلمية أخرى تجعل هذا الفن المزيج من هذه الانواع فنا مستقلا بذاته .

فالرحلات صلة بالرواية الادبية بمفهومها القديم الذي يعنى سرد التجربة الغنية بالصور والمفاجآت كرواية ألف ليلة وليلة في الادب العربي وأقاصيص ديكامبيرون وقصص بكثيو الايطالي وقصص المغامرات الفرنسية التي ازدهرت في القرن السابع عشر ، الا أن الرحلة لها طابع الصدق في السرد والامانة في الرواية ولا دخل لعنصر الخيال فيها ، أما بمفهومها الحديث الذي يعنى بتصوير صراع الانسان في مجتمعه مصورا لنفسيته وبيئته ، فان الرحلة لها صلة ضئيلة به فالرحالة عادة يتحدث عن نفسه ويتحدث عن المجتمع الذي يعيش فيه ، وهو وان لم يعن بتصوير النفسيات فان في وسعنا أن نعرف نفسية الرحالة ونفسية المجتمعات التي يتقلب فيها من خلال ذكره لعلاقته مع مختلف البيئات وتأثره بذلك ، ويرى بعض المتأخرين أن أدب الرحلات يمثل الناحية الرومانتيكية في الادب العربي .

واذا كان كثير من النقاد يقرنون نشأة أي فن أدبي بظاهرة اجتماعية ويلاحظون أن الرواية نشأت بعد ظهور الطبقة الوسطى وسيطرتها وانتشار الطباعة ، فإن أدب الرحلات نشأ نتيجة لظاهرة اجتماعية أيضا هي التهاب العاطفة الدينية في نفسية المسلم الذي يحن دوما الى زيارة البقاع المقدسة للتملى بمنزل الوحي والاتصال بعلماء المسلمين في المؤتمر الاسلامي (الحج) ، كما كانت نشأته نتيجة لظاهرة اسلامية هي استقلال شخصية الفرد المسلم ، والتقرب بعلمه وأداء رسالته الاجتماعية والانسانية والتعبير عن واقعه الثقافي والاجتماعي ولم يظهر هذا اللون فقط من الادب السردى عند العرب بل ظهر في الادب العربي أيضا أدب روائى فلسفى كقصة حى ابن يقظان ، لابن طفيل وأدب روائى خيالى كألف ليلة وليلة ، وسيف بن ذي يزن وجازية ، وأدب روائى كلامى لم يهتم الا بالاسلوب البلاغى كقصص المقامات وأدب روائى واقعى كأدب الرحلات الذى نحن بصددده .

ولادب الرحلات خصائص أسلوبية وعلمية ، فهو يمتاز بسهولة الاسلوب ووضوح التعبير وأمانة النقل ، كما يمتاز بالعناية بتقويم البلدان وتراجم الشخصيات واثارة مباحث دينية وتسجيل مجموعة من الملاحظات بطريقة موضوعية ، ولذلك يصبح من هذه الناحية شديد الشبه بأدب المذكرات مع فارق وحدة العمل الذى يتطلبه أدب الرحلات .

الأسلوب الادبي في رحلة البكوي

يلاحظ كثير من نقاد الادب العربى أن رجال الفكر كانوا يأنفون من الصراع السياسى أو لا يعنيههم فيلجأون الى القصور مهما تغير حكمها ، فكان هؤلاء الحكام يستفيدون من تجربتهم وخبرتهم وينافسون بهم غيرهم من الامراء والملوك ، أما الادباء فكانوا يستغلون هذه الحياة الهادئة فيكتبون ويؤلفون وينتجون ، ولذا تنقل الكتاب والادباء والعلماء في معظم البلاد العربية والاسلامية ، وبذلك وحدوا نماذج الادب تقريبا

وبما أن البلاد العربية والإسلامية كانت تسهم في الانتاج العلمى والثقافى والادبى متأثرة عواصم البلاد الإسلامية الأخرى ، فقد توحد الأسلوب الادبى وشاع أتباع أسلوب موحد للبحث العلمى أو أسلوب الكتابة الادبية ، ظهرت مكانة أئمة مذاهب كما ظهر مقلدون وأتباعيون ، وبذلك كانت الأمة جمعاء تسهم في البناء الثقافى ، وتأثر العلماء والادباء بقيادة الفكر المشهورين في مراكز الثقافة بالبلاد الإسلامية حيث كان هؤلاء يتوجهون دائما الى هذه المراكز العلمية ليحظوا بالتشجيع المادى والادبى (2) ، فلا عجب اذا كانت الاندلس والمغرب قد تأثرا بالانتاج الادبى المشرقى في بعض الفترات ، من تاريخهما ، ولكنه تأثر لا يلبث أن يمضى ويصبح انتاجا محليا كما يظهر في النماذج الادبية والآثار الفكرية . والذي يعنينا من هذه المقدمة أن نذكر أن النهضة الادبية في المغرب بدأت الاندلس قبل بلاد المغرب في عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم حيث ظهر ابن عبد ربه وأبو على القالى وابن حزم وابن شهيد المتوفى سنة 426 هـ وابن زيدون المتوفى سنة 463 هـ وظل الاندلسيون والمغاربة يقلدون المشاركة في معالجة الشعر والنثر على السواء ، واذا كان المشاركة قد عرفوا مذاهب النثر الثلاثة المعروفة وهى مذهب الصنعة ومذهب التصنيع ومذهب التصنع ، فان الاندلس والمغرب عرفا (3) هذه المذاهب كذلك ، وكان آخر ما استقر في الاندلس مذهب القاضى الفاضل المتوفى سنة 596 هـ وزير صلاح الدين الايوبى ، وهى طريقة مؤسسة على مدرسة ابن العميد مع المبالغة في الجناس والنسج المتكلف مع طول الجملة وكثرة التوريات والجناسات والطباق والاقتباس والتضمين ، واندفع العصر الايوبى متأثرا بأسلوب القاضى الفاضل وبأسلوب الكاتب عماد الدين الاصبهانى الذى كان مع القاضى الفاضل من مؤسسى مدرسة

(2) النثر ومذاهبه في النثر العربى (للدكتور سوتى ضيف) وبالاخص ص 239 و ص 254 .

(3) نفس المصدر

التصنع ، وعيب هذه المدرسة أنه لا يمكن أن يحسنها الا المتفوقون من الكتاب ، أما متوسطو الثقافة غينزلون بالاسلوب ، وهذه الطريقة تعرض الفكرة للضياع وتعرض الكتاب لسوء فهم الاسلوب فيعتقدون أنها الالفاظ دون المعانى (4) ، وعند حكم الموحدين للاندلس ازدهرت بها الحركة الفلسفية والفقهية وضعف الادب ، ولا نعرف الا آثارا نثرية باهتة دون النثر الاندلسي المعهود كآثار ابن خاقان وابن بسام وغيرهما (5) . وأصبح التعبير بأساليب محفوظة متواثرة . . . وفي نهاية عصر الموحدين وبداية عصر بني النصر ظهر كتاب كبار من المعهم ابن الخطيب (713 - 776 هـ) الذي كان له أسلوب مطبوع قليل السجع كثير الاطناب ، تطول جملته فتكرر المعانى ، انتقده المقرئ وقال عنه : هو كاتب مرسل بليغ لولا ما فى انشائه من الاكثار ، الذي لا يخلو من عثار ، والاطناب الذي يفضى الى الاجتناب ، الخ .

وقد تأثر ابن الخطيب بأسلوب القاضى الفاضل من حيث بناء الجملة على أساس انتقاء اللفظ ومقتضيات البديع ، ولكنه مدد الجملة وأطنب فى التعبير على أسلوب طريقة القاضى الفاضل فأحدث أسلوبا جديدا يعتمد على الفقرات ومزج الشعر والنثر على أسلوب غير متداول ، فهو يعقب (بيتا) على فكرة سلف أن كتبها (نثرا) ولكن قد يكتب الموضوع فى عشرة أسطر ينسج على منواله مقطوعة شعرية تؤشك أن تجعل النثر شعرا والشعر نثرا وهكذا أسس ابن الخطيب مدرسة جديدة فى عصره وتصدر زعامتها .

ويلاحظ الدكتور شوقى ضيف جمودا فى النثر الاندلسي ويقول عنه :
(يحس الانسان فيه بضروب مختلفة من التلفيق والتصنع واللف والدوران

(4) نفس المصدر

(5) الفن ومذاهبه للدكتور شوقى ضيف ص 354 مكتبة الاندلس

(6) نفع الطيب ، والفن ومذاهبه .

الدكتور شوقي قد بالغ في اتهام النثر الاندلسي بالجمود ورأى أنه لم حول المعانى والصور التى يجترها الادباء اجترارا ، بل صارت ظاهرة مهمة وهى التعبير بالاساليب المحفوظة التى لا تفصح عن فكرة محدودة كما فى الذخيرة والقلائد حيث أن هناك مقدمات لتقديم الادباء لا تعبر عن معان واضحة وانما تعبر عن صور جامدة الخ . . (7) ، ويظهر أن الدكتور شوقي قد بالغ في اتهام النثر الاندلسي بالجمود ورأى أنه لم يعد أكثر من أدب مكرر معاد سواء فى أساليبه أو عباراته المعادة مئات وآلاف المرات وليس هناك من جديد الا ما يتصنع الكاتب من مصطلح علمى أو لون بديعى أو اشارة الى مثل ، أو استخدام الغريب اذ هذه العبارات مجحفة بالنسبة لنثر ابن الخطيب الغزير ، ونثر البلوى المحكم ونثر ابن الازرق وغيرهم كثيرين ، ولا جدال بأن ابن الخطيب كان أعظم كتاب الاندلس حتى قيل أنه « كاتب الارض الى يوم العرض » .

والواقع أن ابن الخطيب كان امام المدرسة النثرية فى الاندلس وأسلوبه يعتمد على السجع المتضمن لبعض المصطلحات العلمية التى تدل على تمكنه من البلاغة والعلوم الشائعة فى عصره ، بل بينى السجعات على حرف نادر ويستخرج من كل سجة سجتين داخليتين ، ويقول الدكتور ضيف أنه ضرب جديد من التصعيب وصل اليه لسان الدين الذى يريد أن يثبت تفوقه فى عصره (8) ، وهو لا يسجع سجعا بسيطا ، بل سجعا مركبا ، وهو بهذا كان يسعى الى التمسك بأهداب مذهب التصنع الذى شاع فى الشرق ، بل أخذ يقترح على الكاتب أسلوبه الشجعى المركب ليدل على مبلغ تفننه ، مع تكلفه الواسع لالوان البديع

(7) الفن ومذاهبه للدكتور شوقي ضيف 249

(8) نفس المصدر ص 252

وزخارقه ، أى زخرف الجنس والسجع ، وهو يجمع بين التصنيع والتصنع (9) .

وكان ابن الخطيب يفرض أسلوبه الأدبي على سائر الأدباء المغاربة في عصره ويتهممهم بالتقصير أن قصروا في احتذائه بوصفه أستاذهم ، وابن الخطيب معروف في هجماته التي لا تخلو من أنانية ، فقد رأيناه في مثلى الطريقة في ذم الوثيقة يتحامل على القباب ، كما نراه في خلع الرسن ينتقد أبا الحسن انتقادات خالية من النزاهة ، فلا يستبعد أن يكون قد تحامل على البلوى أيضا « كما يقول المقرئ » وهو أعرف النقاد بابن الخطيب (10) . . ولا نحتاج الى عرض نماذج من نثر البلوى الذى هو من صميم مدرسة ابن الخطيب ولكنه يقل عنه براعة وروعة وثقافة .

الأسلوب العلمي في رحلة البلوى

يمتاز البلوى بالاهتمام بأمانة الرواية ، فهو حريص على ذكر الرواة المشهورين بالصدق والمعروفين بأمانتهم العلمية ، ولذلك فهو يسلسل السند حتى يرجع به الى الاصل ويعتمد على فن الرواية في أخذه للحديث وأخذه لفن القراءات وروايته للشعر ، وإذا كان من المألوف في الحديث وفي القراءات اثبات الرواية فان الادب له صفة أخرى لان نصوصه لا يتعبد بها ، انما يترك فيها للفكر عملية النقد ، غير أنه لما كان الشعر والنثر يحتويان على المفردات والتعابير العربية السليمة التي لها صلة بلفظ النصوص الدينية حرص اللغويون والأدباء كذلك على تحري الدقة فى أسلوب الرواية في نقل الشعر ، واستمروا على ذلك حتى بعد أن بعد بهم العهد عن العصور الاولى التي كانت مظنة وجود الثقة في الرواية فأصبحت الرواية عادة يقصد بها تركية الرواي والحيطة في صدق روايته ، ولهذا

(9) نفس المصدر

(10) ذكر القاضي أبو الحسن النباهي أن مؤلفات ابن الخطيب فيها تحريف للحقائق (أزهار الرياض ج 12 ص 213) .

فقد حرص العلماء على السند في كل مروياتهم ، وتنافسوا في الفهارس والاثبات وأخذ العلم من أفواه الرجال ، وكان هذا من أسباب الرحلات العلمية حيث تنافس الادباء في التنقل والرواية .

وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا في موضوع أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة تزيد كمالا في التعليم ، وقال ذلك بأن البشر انما يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون من المذاهب والغضائل تارة علما وتعليما واللقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، الا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكما وأقوى رسوخا فعلى كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مغلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنهم ذلك الا مباشرتة لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يغنده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طريقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها تعليم وطرق توصل وتنهض قواه الى رسوخ والاستحكام في المكان وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد ، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال « فكان الاهتمام بالرواية عن المشايخ ومباشرة الرجال » ، وكان الاهتمام بالرواية عن المشايخ بليغا مما حدا بالادباء واللغويين أو يسلكوا طريقة المحدثين ، وقد خصص السيوطي في المزهري (11) فصلا خاصا في معرفة الطبقات والحفاظ والثقافة والضعفاء ، فلذلك ظلت العناية في أخذ الادب ولو في عصوره المتأخرة بروايته ليتأكد الطالب من عراقة الرواية وصحتها ، وفي ذلك تركية لقيمة كتاب (رحلة البلوي) من الوجهة الادبية .

ويلاحظ ابن حزم (12) أن نقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم شيء خاص بالمسلمين دون جميع الملل والنحل أما مع الارسال والاعضال فيوجد عنه اليهود ولكن لا يقربون من موسى بل يقفون حين يكون بينهم وبينه أكثر من ثلاثين نسبا وذكر محمد بن أبي الحاتم المظفر أن الله أكرم هذه الامة وشرفها بالاسناد وليس لاحد من الامم قديمها وحديثها اسناد موصول وانما هي صحف في أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم فليس عندهم تمييز ما نزل من التوراة والانجيل ومما ألحقوه بكتبهم من الاخبار التي اتخذوها من غير ثقة .

واذا فان ضرورة السند في الرواية سواء كانت حديثية أو فقهية أو لغوية أو أدبية وقد ظلت الى عصور متأخرة الا أنها في الادب قد ضعفت لعدم الحاجة اليها وبقيت قوية متسلسلة في الحديث فقط للحاجة الى الضبط والخوف من الوضع والتحريف .

ويذكر البلوي أن سنده في الحديث قوى جدا ، فهو يروى موطأ مالك برواية أبي عبد الله عبد السلام ، وهي أصح رواية ولا يوجد مثل سندها في المغرب كما ذكر في رحلته .

رأي ابن الخطيب في كتاب تاج المفرق

يتهم ابن الخطيب البلوي تهمة خطيرة يرددها في غير ما كتاب من كتبه التاريخية وتناقضها المترجمون للبلوي عنه ، فهو يرى أن البلوي سرق كتاب البرق الشامي ، وقبل ادانة البلوي بهذه التهمة الخطيرة سأرجع الى موضوع السرقات الادبية لنتعرف على مدى صحة تهمة ابن الخطيب للبلوي .

(12) الملل والنحل لابن حزم

ان موضوع السرقات الادبية من الموضوعات التي شغلت النقد الادبي القديم ، لانه كان من الطبيعي أن يتتبع الادباء من آثار بعضهم سواء من حيث القوالب أو من حيث الاسلوب أو من حيث الافكار والاراء أو من حيث الصور الخيالية ، وعلى قدر تأثر الادباء واحتدائهم بمن سبقهم يكونون قد أخذوا واتبعوا أو نسخوا ، أو ألموا ، الى غير ذلك من الاساليب التي فصلها ابن رشيقي في العمدة (والجرجاني في أسرار البلاغة) (13) .

ومن الملاحظ أن النقد القديم لم يحفل بالسرقات النثرية احتفاله بالسرقات الشعرية لمكانة الشعر وعناية النقد به . وقد اتهم نقاد الشعر العربى بعض الشعراء الجاهليين والامويين بالسرقات الشعرية كما حدث بين طرفة وأمرىء القيس وكما حدث بين جرير والفرزدق ، بل يذكر السجستاني كما في الموازنة للآمدى أن أبا تمام ليس له معنى تفرد به فاخترعه الا ثلاثة معان (14) . وكان أبو فراس الحمداني يرجع كثيرا من معانى شعر المتنبي الى من سبقه من الشعراء . لذلك اهتم نقاد الادب القديم بموضوع السرقات وبالاخص السرقات الشعرية منذ القرن الثالث كأحمد بن أبى ظاهر المنجد ، وأحمد بن عمار ، وبشر بن يحيى ، كما في الموازنة والوساطة (15) ثم أخذ النقاد في القرن الرابع يؤلفون في فن السرقات كتباً خاصة . فألف بعضهم في سرقات أبى نواس وفي سرقات أبى تمام وما أخذه البحتري عنه (16) ، وفي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة بحث في السرقات ، حيث استعمل كلمة (الاخذ) ولم يستعمل كلمة (سرقة) (17) ، ويرى الآمدى المتوفى سنة 371 هـ

(13) راجع اصول النقد الادبي ، أحمد الشايب ص 225 والموازنة للآمدى ص 55

(14) اصول النقد الادبي ص 263 (بتصرف)

(15) اصول النقد الادبي ص 265

(16) نفس المصدر (بتصرف)

(17) نفس المصدر (يتصرف)

فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى بأن لا سرقة فى الالفاظ اذا كانت مباحة غير محظورة ، وانما السرقة فى المعانى البديعية المخترعة التى يختص بها شاعر ، ولا بين المعانى المشتركة بين الناس التى هى جارية فى عادتهم وأمثالهم على أن الجرجانى المتوفى سنة 361 يرى فى كتاب الوساطة أن السرقة تكون فى الالفاظ والمعانى والاعراض والمقاصد وتكون واضحة وغامضة يعرفها اللبيب حين يعتمد الشاعر اخفاءها على أنه يلتبس لشعراء عصره العذر لان المتقدمين قد سبقوهم الى أهم المعانى ويرى من الصعوبة الحكم على الشاعر بالسرقة لاحتمال توارد المعانى (18) ، أما العسكرى المتوفى سنة 395 هـ ، فهو يرى أن المعانى حق مشترك بين الناس جميعا ، لكن على الآخذ أن يكسو المعنى ألفاظا من عنده ويقسم العسكرى السرقة الى سلخ وحسن أخذ على أن قببح الاخذ أن يغير على اللفظ والمعنى جميعا أو يفسد المعنى (19)

ويقسم ابن الاثير فى المثل السائر السرقة الى نسخ وسلخ ومنسخ (20) ، وقد لخص الاستاذ أحمد الشايب رأيه فى الموضوع بقوله :

« على أن ذلك البحث الطويل العريض انتهى فى السرقات الشعرية الى أصول قليلة ، أهمها أن السرقة لا تتحقق فى المعنى العام الذى هو حق مشترك بين الناس ، ولا فى المعنى الذى أصبح كالعام المشترك لكثرة شيوعه وتداول استعماله ، وانما تكون فى المعنى الخاص أو البديع الذى انفرد به صاحبه وعنه أخذ الآخرون .

كذلك لا سرقة فى الالفاظ المباحة المتداولة ما دامت اللغة حقا للجميع ، وانما تكون السرقة هنا فى استعمال الالفاظ وطريقة وضعها

(18) نفس المصدر (يتصرف)

(19) أخبار البحترى للصوفى ص 152 ، طبعة دار الفكر ، دمشق . وأصول النقد الادبى ص 267 .

(20) أصول النقد الادبى ص 271 .

وصياغتها عبارات وأساليب اذ كان ذلك مناط البراعة ، ومجال الابتكار .
ومعرض الاصاله » .

ومما يجيزه النقد الادبي القديم في التقليد النثرى أن يأخذ الاديب عن سلفه الفواصل والاسجاع وان يستغلها بدون تضمين وقد شرح هذه النظرية النقدية الادبية غريط (21) وذكر أنه وجه سؤال الى اديب المغرب في عصره أحمد بن المامون البلغيتي في موضوع السرقات النثرية ، حيث أن علماء البديع اذ تكلموا عن السرقات الشعرية فقط ، لا سيما وأن هناك أدباء كبار أخذوا جملا عديدة من غيرهم وأدرجوها في نثرهم فوسمهم أهل عصرهم بالسرقة ولم تكن هناك شبهة تدرأ حد الملام . وقد رد عليه استاذة بأن النقد يحصر ذلك في أربعة أقسام ، أخذ الشعر من الشعر أو نثر من نثر ، والأخذ طبعاً ليس هو الاقتباس ، فأخذ الشعر من شعر معروف عند علماء النقد ، وأما الشعر من النثر هو المسمى بالعقد فيجوز طريقة الاقتباس ، وأما أخذ النثر من الشعر فهو المعروف بالحل ، وأما أخذ النثر من النثر فلم يتكلم عليه النقاد القدماء في التلخيص والمفتاح والايضاح والتلويح . الخ ، وان كان يظهر أن أنواع السرقة الشعرية تجري عليه قطعاً .

وعلى هذا ، فالنقد القديم لم يكن قاسياً على أبى البقاء البلوي لا سيما وقد انتحل طريقة رئيس مدرسة نثرية لا بد أن يتأثر ببناء جملته وتركيب عبارته ، ولما كان أسلوب الرحلة على النفس كثير الشجع محكم التعبير ، ومنتقى المفردات ، لا يسير على أسلوب ابن الخطيب ومدرسته ، فقد اتهم ابن الخطيب البلوي بالانتحال لكلام العماد الاصبهاني وتهمة ابن الخطيب بالنسبة لكتاب البرق الشامى ، تهمة واهية لا تؤيدها حجة ، وانما هى أنانية ابن الخطيب وسلطة لسانه ، وتصديه لادباء عصره الذين لم يحفلوا به ، ولذلك فلا يكاد يذكر البلوى حتى يثير قضية البرق الشامى من قريب أو بعيد فيقول مثلاً :

(21) فواصل الجمان للشاعر محمد غريط .

خليلي ان يقض اجتماع بخالد
فقولا له قولا ولن تعدوا الحقا
سرقتم العماد الاصبهانى برقه
وكيف ترى فى شاعر سرق البرقا

وعندما زار ابن الخطيب فتورية تعرض لذكر البلوى فى تهكم وقال :
« يكفى من البرق شعاعه وحسبك من شر سماعه ، ويسير التنبيه ، كاف
عن التشبيه ، وهو يريد بالبرق كتاب (البرق الشامى) العماد الاصبهانى
وقال ابن الخطيب أيضا فى الاحاطة : « وقيد رحلته فى سفر وصف فيه
البلاد ومن لقيه (بغصول) جلب أكثرها من كلام العماد الاصبهانى
وصفوان وغيرهما ، وكان أبو البقاء يتضايق من هذا النقد حتى أن ابن
الخطيب ذكر أنه يتظلم من ذلك وينطوي من أجله على الوجدة ودافع المقرئ
عن أبي البقاء بقوله : — ان ابن الخطيب كان منحرفا عنه ، ولذا قال عنه ما
قال فى كتابه خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف ونقل ما جاء به فى
الاحاطة من كلامه (السالف الذكر) .

والواقع أن ابن الخطيب كان قاسيا على البلوى فى اتهامه بالسرقة
لان البلوى لم يكن امام مدرسة وانما كان مقلدا كأكثر الكتاب فى
عصره ، ومن حقه أن يتأثر بمن يشاء من الكتاب ، وعلى هذا فالبلوى لم
يكن سارقا فى نظر النقد ، بل هو مقتبس بعض التعابير الوصفية والادبية
والانماط التصويرية ، واذا انتقلنا من النثر الشرقى ومذاهب الاخذ فيه
الى النثر الاندلسى وطابعه الخاص ، فان البلوى يكون أكثر حصانة
وذلك لفقدان التقاليد النثرية فى عصره ، ومحاولة المغاربة عامة تقليد كتاب
نابهن فى الشرق ، وابن الخطيب لم يكن منصفاً فى نقده ، لانه اذا كان
يرى أن أبا البقاء اقتدى أسلوب العماد فى السجع ورواية القصائد
والمقطوعات بل وفى تكوين نفس بعض السجعات والتصميمات فالنقد
لا يتوجه لمنهاج البلوى ، ولا يرى فى ذلك ما يوجب الاختلاس لان اقتفاء

العماد الذي كان يعد بحق استاذ مدرسة نثرية، اقتفى البلوي أسلوبه اقتناء التلميذ للاستاذ ، أما اذا كان ابن الخطيب يريد أن البلوي سلخ الرحلة ونسبها لنفسه فان ابن الخطيب لا تساعد البراهين لاختلاف الموضوع وما أظن من النزاهة في شيء أن يكون البلوي في قفص الاتهام ، فالعماد في البرق الشامي لا يعنى باجازة العلماء بقدر ما يعنى بالوصف القلمى للناحية الاجتماعية وبالاخص للبلاط ، كما يهتم بوصف المدن التي زارها كوصفه لنصيبين ودمشق وحران أو بوصفه لحياة القصور كخروج النساء الانابكيات وولوع السلطان بالصيد ، وأحيانا يعرب عن مقدرته البلاغية فيكتب الفصول الممتعة في تفضيل دمشق وفي تفضيل الشام وفي وصف شاطيء فرامان ، وفي وصف القلم والنشاب وغير ذلك في أسلوبه المطبوع بمذهبه في الترسل وهو لا يكاد يستمر حتى يعود الى الموضوع الاول تحت عنوان (عاد الحديث) وهذا ما لا يفعله البلوي ولا يمكن أن نتهم البلوي بنقله أوصاف المدن لان المدن التي زارها والخطة التي سلكها هي غير المدن التي زارها العماد ، وغير الخطة التي سلكها (22) ويقول دوكايتري بأن الرحالة في المغرب كانوا ينأثرون بأساليب الكتاب الشرقيين في رحلتهم ، ولذلك تأثر أبو البقاء بكتاب البرق الشامي للعماد الاصبهاني ولكن ابن الخطيب سخر بالاديب البلوي في مقطوعة هجائية ، ويختم دكايتري ملاحظته قائلا : « انا نرى أن الوزير الغرناطي الشهير لم يتخل عن طابع العصر ولم يقو على عدم النيل من شاعر معاصر له » (23) .

ولنأخذ أسلوب العماد من البرق الشامي لنرى تشابه تركيب جملته مع البلوي ولا يمكن أن نقول أنها مسروقة ومنقولة حرفيا ، يقول العماد لدى ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج :

(22) انظر البرق الشامي تصوير مبكر وفلم (230) الخزانة العامة بالرباط .
(23) انظر مقدمة ترجمة النفحات المسكية

وكان الرحيل يوم الجمعة شهر ربيع الأخير ، ومعترك معترك ، وفاجر مساجر ، وأطلس رثبال ، وأمرط خال ، فعاموا في بحر العمى ، وحاموا في الردى حول الحمى ، واغاروا لاقتحام الوغى ، واضجروا مضجرا صفى من في غيل القنا ، وطما سيل خيلهم على الوهاد والربى . .

وهذه مقاطع تتشابه مع أسلوب البلوى وليست نقلا حرفيا عن العماد كما يرى ابن الخطيب .

ومن حسن حظ البلوى ان ابن الخطيب فاته أن البلوى (سرق) بعض فقرات كتابه من كتاب سبقوه لم يفتن لهم ابن الخطيب وبالاخص مما كتبه أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي شيخ الكتاب المغاربة والاندلسيين والذي كان كاتباً للموحدين في الاندلس والمغرب ، وكان كاتباً أيضا لبعض أمراء الطوائف ثم كان في آخر حياته مستشارا للخليفة المنتصر الحفصي وأول قاض لمدينة الرباط ومن أوائل أعلامها كما فى كتاب الاغتيال (24) .

فقد جاء في وصفه لمحلة الخليفة الذي رحل معه في تجواله في المغرب في سنة 637 - 646 (24) ما يأتى :

« وانتهينا الى المحلة وهى روض يثمر خيلا واعنة ، وبحر يزخر قتا واسنة ، وذوائب الاعلام تخفق ، وألسنة عذباتها تكاد بالنصر تنطق ، والاحوال قد استقامت والاخبية على القاعدين فيها قد قامت ، وهى مبيضة كسقيط الثلج ، مصطفى كبيوت الشطرنج ، وأطللنا على أفراق فراق ، وأعار ذلك الجو الاشرار ، الخ .

ويقول البلوى في وصف محلة ابن سعيد المرينى في تلمسان :
« وحللنا فى المحلة وهى روض يثمر خيلا واعنة ، وبحر يزخر قنى

23 تاريخ الرباط الحسن السايح .
24 دعوة الحق العدد 8 السنة الثامنة جوان 1965 صفر 1385 ، بحث عن أبى عميرة المخزومي

واسنة وذوائب الاعلام تخفق ، والسنة عذباتها تكاد بالنصر تنطق ،
والاحوال قد استقامت والاخبية على القاعدين فيها قد قامت وهى
كسقيط الثلج مصطفى كبيوت الشطرنج .
فهذه عبارة منقولة عن ابن عميرة بوضوح لا لبس فيه ولو أطلع
عليها ابن الخطيب لشهر به واتم ملف اتهامه .

أهمية رحلة البلوي الأدبية

قرظ رحلة البلوي جهابذة عصر البلوي وهم ، أبو القاسم بن سلمون
ابن على بن سلمون الكتانى وأبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بأبى
النجار وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سلمة الغرناطى وأبو الحجاج
بن حصن ويوسف بن على بن محمد بن محمد الحولانى ، والوزير
الكاتب أبو جعفر أحمد بن زرقالة (25) وأبو عبد الله محمد بن حسين
وأبو عبد الله محمد بن جعفر بن مشتمل البليانى ، وقد اثنوا جميعا
على جهود المؤلف وقدروا منهجه وثقة نقله .

أما بعد عصر البلوى فقد ظلت هذه الرحلة حية تناقلتها الخزائن
وتهافت عليها الوراقون ، لذلك تعددت نسخها ، وجود خطها ، وقلمها خلت
منها خزانة أديب من أدباء عصره ، فقد ذكر أحمد بابا السودانى أنه
وقف عليها ووصفها أنها رحلة فى سفر وفيها فوائد ونقل عنها عدة تراجم
وذكر فى آخر الكتاب أنه اعتمد عليها ، كما اعتمد على فهرست صديقه
أبى عبد الله الحضرمى واختصرها عدة أدباء وينقل على بن محمد بن على
الجزولى الدرعى التمجرورتى المتوفى سنة 1003 هـ - 1594 م (26)
كثيرا من فصول رحلة البلوى فى رحلته : النفحة المسكية فى السفارة
التركية .

(25) اديب أندلس ، ألف كتاب رائق التحلية فى فصل التورية ، وهو معاصر لابى
البركات ابن الحاج البلفينى .

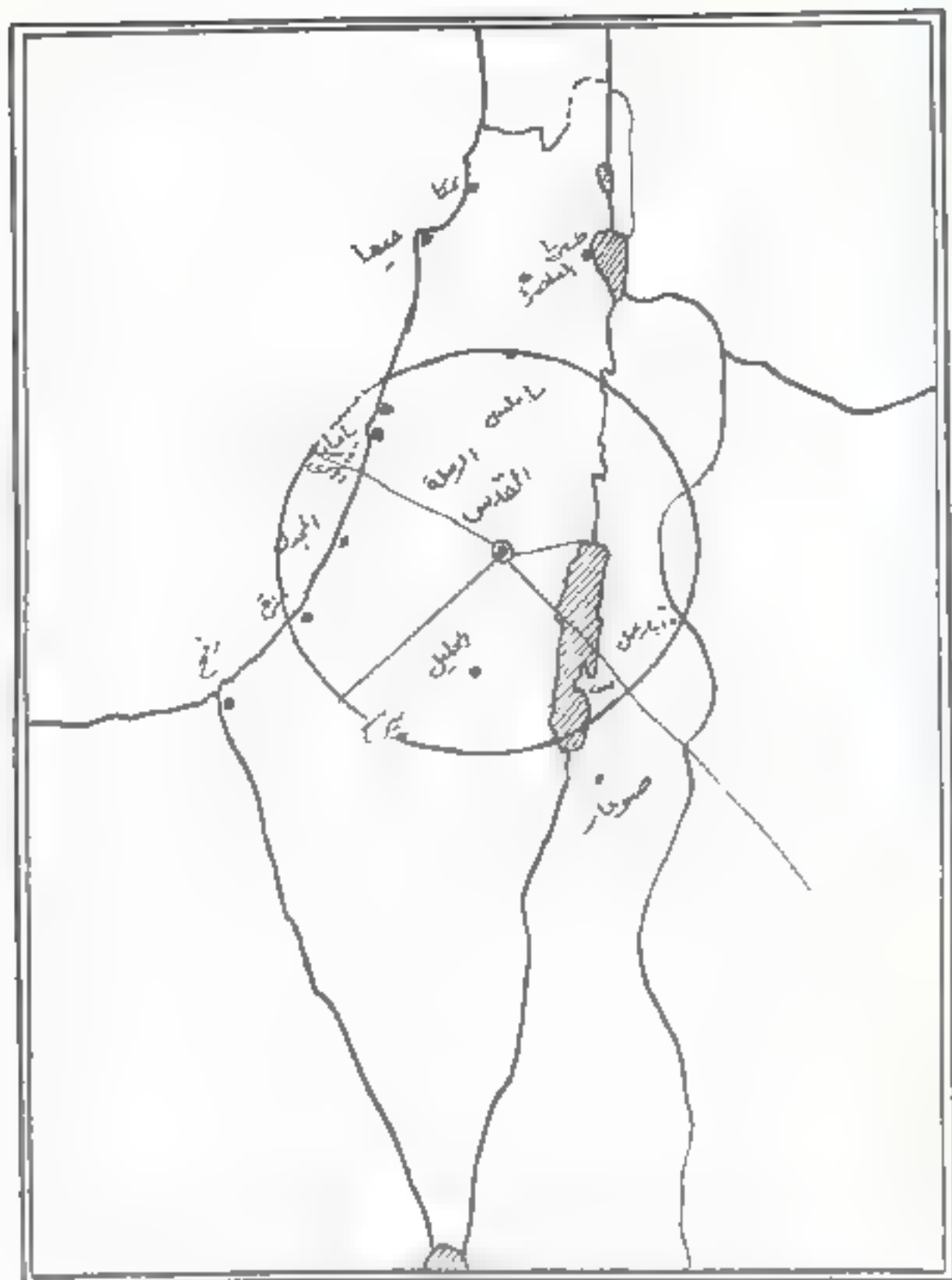
(26) انظر ص 9 - 149 من مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 755 . ومطبوعة
كتاب دوكاسترى حيث لاحظ أن أكثر من عشرين صفحة منقولة من رحلة البلوى .

الجانب الجغرافي للرحلة

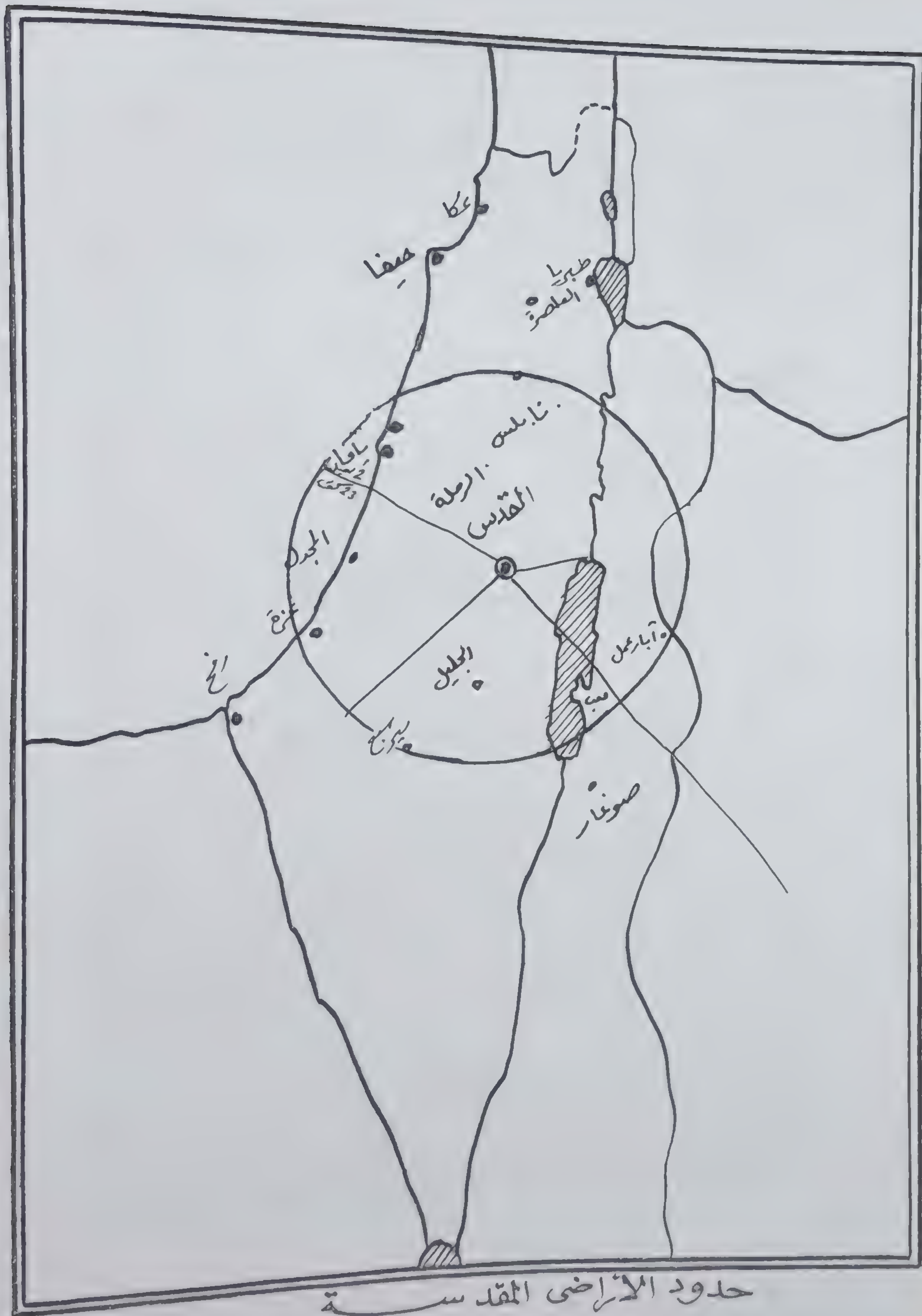
علم الجغرافيا عند المشاركة والمغاربة

مُعْجَمٌ

باسماء المدن التي زارها البَلَوِي



حدود الأرض المقدسة



حدود الاراضى المقدسة

علم الجغرافيا عند المشاركة والمشاركة

لعل من المؤلف عند علماء اللغة أن يرجعوا كلمة الجغرافية الى أصل يوناني اذ الواقع أن العرب لم ينظروا الى المعلومات المتعلقة بهذا الفن نظرة علمية مركزة الا بعد اتصالهم بالحضارة اليونانية في أواخر عصور بنى أمية وأول عصر بنى العباس في بغداد ، ولا شك أن تجاربهم القديمة ، وآراءهم في هذا الموضوع كانت من دواعي تعزيز هذا العلم وتطوره ، أضف الى ذلك ما أوجبه الدين الاسلامي على المسلمين اقامة الصلاة والتوجه الى القبلة ومعرفة جهتها ، والحج اليها من سائر الامصار ، وما تقتضيه طبيعة التوسع من حب الاستطلاع ومعرفة الاقاليم سيما ونظام الجزية يدعو الى البحث عما فتح عنوة ، وعن طبيعة الاديان المنتشرة في الاقاليم قبل الفتح الاسلامي ، وحالتها الاقتصادية والستراتيجية كل هذه العوامل ساعدت على شرح مدلول الكلمة اليونانية ، وما انتهى اليه الاغريق وغيرهم حتى أن حاجي خليفة يلاحظ في كشف الظنون أن مدلول كلمة الجغرافيا لا تمثل مدلول معناها عند العرب ، اذ معناها الاصل معرفة سطح الارض ، ولعل اليونان جمعوا أصول هذا العلم عن الكنعانيين الذين جاسوا المتوسط الى الاطلسين وآسيا الصغرى حتى اذ جاء هيرودوت ق.م. سنة 484 ق.م. ترك تقريراً مجملاً عن حدود الارض المعروفة اذ ذاك واستنتج برميندس أن الارض كروية ، فأكد أرسطو هذه النظرية كما استعمل ايراتوستين سنة 276 ق.م. متوازي الطول والعرض ، ثم جاء بعده بطليموس سنة 167 ق.م. فأصلح المساحات والخطوط . كل هذه

التحديدات تتجاوزها العرب عندما تناولوا ما وصلهم من أبحاث في هذا الموضوع ، ولكنهم لم يستعملوا كلمة ذات مدلول جديد لتحديد هذا العلم كما تصوره ، وكما أضفوا عليه من سعة تفكيرهم ، وظلوا الى القرن السادس عشر ، وهم لا يملكون عبارة تنفى بغرضهم ، اذ مدلول كلمة (جغرافيا) يتجاوز في الاصطلاح تحديدات بطليموس كما هي عنده . وظلوا يستعملونها مجردة من آل المعرفة لانها دخيلة ، وقد اعتمدوا عليها أول الامر ، بصفة استثنائية ثم تجاوزوها الى كلمات أخرى ، فسلموا هذا العالم تارة على الاطوال والعروض ، وتارة علم المسالك وتارة علم عجائب البلدان ، وهذه الاسماء المستعملة لهذا العلم تشمل فروعه ، ولا سيما علم الاطوال والعروض وتقويم البلدان (1) .

ولا شك أن اتصال الجغرافية بالتاريخ والفلك والنجوم والجيولوجية كان عاملا قويا في عدم تحديد مفهوم هذا العلم عند العرب ، ولذلك ظل التعريف باهتا ، وظل اسمها متأرجحا بين عدة ألفاظ تعبر جميعها عن هذا العلم ولا يحدد واحد منها مفهومه بالضبط . وظل العرب الى القرن السادس عشر كما يقول (بلاشير) ، وهم لا يملكون عبارة خاصة لتسمية هذا العلم بدقة ، وكانت الرحلات التي تعتبر مجالا للعرض الادبي والمذكرات من بواعث تقدم هذا العلم عند العرب ، وكذلك التاريخ الذي له علاقة بالجغرافية كدراسة للحدود والاقتصاد والتجارة مع الشعوب ، بل ان التاريخ لا يدرس الا على أساس جغرافي ، وبعد الالمام بمباديء هذا العلم أو بعبارة أدق يعتبر التاريخ هو دراسة للزمان ، والجغرافية دراسة للمكان ولا تستغنى أحداث الزمان عن المكان ، فالعوامل الجغرافية تتحكم في التاريخ الى حد بعيد ، وأسباب الهجرات ترتبط بالجغرافية ، واذا كنا نعرف أول الآثار الجغرافية على يد الاغريق فقد أثبت تاريخ العلوم أول رحلة هي رحلة البودي (يوان شوانج) الذي تغيب في رحلته عن الصين ستة عشر عاما ، حيث عبر الصحراء

(1) انظر الجهشيارى والصولى وابن النديم .

متجها الى الهند عبر ممر خيبر ، ثم عاد لوطنه عن طريق افغنستان وعكف بعد ذلك على وضع كتاب عن رحلته التي تعتبر من عيون الادب الصينى الكلاسيكى ، وبقي مؤلفها بقية حياته فى أديرة الصين يترجم الادب البوذى الى اللغة الصينية ونمت .

ويقسم المهتمون بتاريخ الجغرافية موضوعات الجغرافية عند العرب الى جغرافية أدبية وجغرافية علمية فرحلات واكتشافات ، ثم دراسه المسالك والممالك ، وأخيرا تقسيم الاقاليم واشتهر فى القسم الاول ابن خرداذبة مؤلف المسالك والممالك ، والبلاذرى المؤرخ النسابة مؤلف البلدان (1) وابن رسته صاحب الاعلاق النفسية ، وقدامه ، واشتهر فى القسم الثانى أبو بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه مختصر كتاب البلدان ، ومن رجال الرحلات القدماء ابن فضلان سفير المقتدر لبلاد البلغار ، وابن شهریار من أواخر القرن الرابع المتجول فى بلاد خوزستان ، أما المسالك والممالك فقد اشتهر بها اليعقوبى والبلخى وابن حوقل مؤلف المسالك والممالك ، والمفاوز والممالك والبكرى . كما اشتهر فى تقويم البلدان المقدسى والادريسى . على أن هذا التقسيم لا يمنعنا من ذكر أعلام الجغرافيين الذين تألق اسمهم بجانب هؤلاء فى المغرب والمشرق والذين كانوا متبعين أكثر مما كانوا مبتدعين ، كابن سعيد صاحب بسط الارض فى الطول والعرض ، وابن عبد الحق صفى الدين مؤلف مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، وهو مختصر لكتاب ياقوت الحموى ، وينسب للسيوطى أيضا ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الابصار الذي يعتبر كتابه دائرة معارف جغرافية وتاريخية وهو كاتب سر السلطان ابن قلاون ، والغرناطى مؤلف تحفة الاصحاب ونخبة الاعجاب وابن رشيد السبتي ، وابن رشيد الورنشريسى ، وابن الوراق ، والحميري وأبو القاسم الزمخشري مؤلف الجبال والامكنة والمياه ، وزين الدين مؤلف خريدة

(1) انظر الجهشيارى وابن النديم ، والدكتور حسن ابراهيم حسن فى تاريخ الاسلام.

العجائب ، وفريدة العجائب ، وأبو الفداء . هذا وقد اعتمد معظم الجغرافيين الذين سبق ذكرهم على ما كتبه بطليموس في تفصيل الاقاليم وصورها (2) ، ولعل مما يثير النظر أن يكون معظم هؤلاء في أول الامر كانوا من المشرق ، وذلك لانتساع نطاق التجارة في العصر العباسي واتصال بغداد برا وبحرا بالبلدان القاصية ، وتعبيد الطرق ، واستقرار الامن ، فكان لذلك كله أثر في تسهيل السفر وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين ، فظهر مشاركة مسلمون قاموا برحلات مهمة وألفوا أسفارا عديدة ووصفوا ما شاهدوا وصفا دقيقا .

ونمت معلومات المسلمين الجغرافية بسبب الاستفادة من مكاسب الفتوح والعمل على تنظيم طرق المواصلات في البر والبحر ، ولوائح المحصولات ليتأتى العمل بالخراج والمكس ، وكانت مصلحة البريد ذات فائدة في تنظيم هذا العلم معتمدة على قياس الابعاد وتحديد الاقاليم ، فالعرب ورثوا عن الرومان ادارتهم في الاقاليم المفتوحة ، ومنها نظام البرية (الذي احتفظوا به كما تركه الرومان) وكان الرحالة الاولون اهتموا بهذه الدراسة يؤدون عملا اداريا يكافئون عليه ومن هؤلاء البلاذري (218) وابن خرداذبة 272 هـ 912 م واليعقوبي 278 وقدامة 907 ميلادية والبلخي 322 هـ 934 م وابن حوقل 380 هـ 981 م . وبما

(2) انظر منتخبات من آثار الجغرافيين ، بلاشير ودرامون . وكذلك اعتمدت على أصحاب المعاجم ودائرات المعارف ومؤرخو الادب العربي كجرى زيدان وحنا الفاخوري .

أن مهمة هؤلاء كانت محدودة فقد أتم مختلف التجار المسلمين في المشرق والمغرب عملهم حيث وصلوا الى بلاد الفرو شمالا ، والافاويه شرقا والمعادن جنوبا وأقدم ما وصل إلينا من أثر هؤلاء أسفار السندباد البحري ورحلة التاجر سليمان والناخذاة ابن وهب الى الهند والصين في منتصف القرن التاسع ومما زاد عليها أبو زيد السيرافي (851 م) ورحلات ياقوت الحموي مؤلف معجم البلدان الذي اهتم بالجغرافية الانتروبولوجية ورحلة الشاعر أبي دلف ابن مهلهل المي بحاري والتبت والصين وافغانستان أوائل القرن العاشر صحبة بعض أمراء الهند المدونة في كتاب عجائب البلدان وهو من مصادر ياقوت والقزويني ورحلة المسعودي 956 م والبيروني 1048 مؤلف تاريخ الهند وغيرهم (4) .

وخلف لنا هؤلاء ثروة علمية هي خلاصة التجربة والمشاهدة ، فقد وصل بعضهم في عصر هارون الرشيد الى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين . بل يقال انهم وصلوا بحرا الى كوريا . وكان لجغرافي الشرق العربي أثر في ارتياد الاوربيين الاقطار الشرقية للكشف والعلم كما كان لجغرافي افريقيا فضل اكتشاف القارة الافريقية كلها فيما بعد ، ولعل من الحق أن يكون اكتشاف أمريكا على يد العرب الاندلسيين قبل أن يعرفها كرسستوف كلومب بثلاثة قرون ، كما أن للعرب آراء طريفة غنى الجغرافية الرياضية والجوية . ولا شك أن ازدهار المسلمين اقتصاديا ساعد على نمو هذا العلم اذ أن هذه الثروة الجغرافية التي خلفها جغرافيو المسلمين ورحالوهم لم تظهر ظهورا واضحا الا في العصر العباسي الثاني فظهر كثير من كتبوا في الجغرافيا نذكر منهم :

1 — ابن خرداذبة وهو فارسي الاصل كان عاملا للبريد وعاش في النصف الاول من القرن الثالث الهجري (282 هـ) (912 م) ويعد أقدم جغرافي المسلمين وبالاخص في العصر العباسي بعد البلاذري (218 هـ =

892 م) وقد خلف المسالك والممالك الذى يعتبر أقدم الكتب الجغرافية وكان دليلا يستعين به المسافرون فى الاهتداء الى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب نهر ذجلة ويصل الى الهند والصين (نشره دى غوية) . (بليدن سنة 1888) مع نبذ من كتاب الخراج ، وصنعة الكتاب لابن فرج قدامة ابن جعفر ، ويشمل الباب الحادى عشر من هذا الكتاب ديوان البريد والسكك والطرق الى نواحي المشرق والمغرب أما البلاذرى المتوفى سنة 218 هـ 892 م فقد صنف كتبه للخليفة المتوكل ، والمستعين ، واشتهر بالنقل عن الفارسية وترك لنا كتاب فتوح البلدان وانساب الاشراف (5) وابن الحائك 945 م 334 هـ . ألف المسالك والممالك .

2 - أحمد اليعقوبى المتوفى سنة 278 هـ - 897 م ، صاحب البلدان الذى قام برحلات طويلة فى أرمينية وايران والهند ومصر والمغرب ودون نتائج رحلته ، ويوافق روايات الطبرى (نشرت رحلته فى جزئين طبعه دى غويه بليدن وترجمه للفرنسية جاستون فيت) .

3 - جغرافيو القرن الرابع كقدامه بن جعفر ، 320 هـ 922 م والبلخى 322 - 934 م أبو زيد السيرافى المعلق على رحلة التاجر سليمان والناخذاة ابن وهب ، والشاعر أبو دلف ابن مهمل الذى سافر من بخارى فى أوائل القرن العاشر الميلادى برفقة أحد أمراء الهند فزار التبت والهند مارا بكشمير وأفغانستان وسجستان ، ودون ملاحظاته فى كتابه (عجائب البلدان) .

4 - أبو محمد الحسن الهمدانى (توفى 334 هـ) 973 م الذى ترك (صفة جزيرة العرب فى جزئين) .

5 - على المسعودى (ت 345 هـ 956 م) وهو رحالة عظيم ، زار كل أجزاء العالم تقريبا الى الفرس والهند وسيلان ، وصحب التجار الى

(5) راجع تراجم هؤلاء عند مؤرخى الادب العربى وعند الدكتور حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام (راجع تراجم هؤلاء) .

الصين وزار (زنجبار) بسواحل افريقيا الشرقية ، والسودان ، وقزوين ، وآسيا الصغرى ، وبلاد الشام ، وفلسطين ، وزار مصر فى عهد محمد طنج الاخشيدى مؤسس الدولة الاخشيدية ، ووصف الاهرام والمبانى وطبقات الشعب وحالة السكان ونظام الرى وجبر الخليج وقطع السدود وليلة الغطاس ، وتكلم على أعمال المصريين فى ميدان البحث والتنقيب والآثار ، وكشفهم أخبية الهياكل والموميات ، كما زار المسعودى آسيا الصغرى كلها وقضى أواخر أيامه فى سورية ومصر آخر عهد الاخشيد ، وألف مروج الذهب فى التاريخ والاجتماع ، والتنبيه والاشراف فى الجغرافيا (نشرهما دى غوية) ، وله كتب أخرى منها أصول الديانات وسر الحياة ، وكتاب فى الامامة وكتاب (أخبار الزمان) منذ بدء الخليقة وهو وصف للعالم وعجائبه وبحاره ، ومرتفعاته ومنخفضاته وجباله وأنهاره ومعادنه وجزره وبلدانه ، وهو يتناول الكلام على العالم منذ البدء الى سنة 324 هـ وله (كتاب الاوسط) وهو عبارة عن حوليات فيه تاريخ العالم من البدء الى الوقت الذى انتهى من وضع أخبار الزمان ، وحاول الكلام على نظام الطوائف والجماعات المختلفة ولا سيما الاحتفال بالاعیاد والمواسم وبذلك وضع اللبنة الاولى لعلم الاجتماع وأخذ عنه ابن خلدون كثيرا من الآراء

6 - أبو اسحاق الاصطخرى الفارسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى (أى العاشر الميلادى) وألف كتاب الاقاليم ، موضحا بالخرائط كما ألف المسالك والممالك ، وهو نتيجة رحلته ونقل كثيرا من كتاب صور الملوك للبلى (ت 322 هـ) صاحب كتاب البدء والتاريخ وينسب الى المقدسى واعتمد على ما دونه بوزرج بن شهریار أحد سكان (رامهرمز) الذى كتب عجائب الهند باللغة العربية مستعينا بمشاهدته وما نقله عن غيره من الرحال ، ولم يكب أحد عن حياة الاصطخرى والمعروف أنه التقى بابن حوقل سنة 340 هـ .

7 - أبو القاسم ابن حوقل البغدادى (ت 380) (981 م) وقد راجع مسالك الاضطخري وزاد عليه كتاب (المسالك والممالك والمفاوز والممالك) نشره ذى غوية فى المكتبة الجغرافية العربية ، ويحتوى كل من كتاب الاضطخري وابن حوقل على وصف دقيق لاجراء العالم الاسلامى وأشهر مدنه ، وقد شاهد كل ما كتب الا الصحراء الكبرى .

8 - شمس الدين المقدسى (ت 387) ألف أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، وقد نشره ذى غوية .

9 - البيرونى (440 هـ 1048 م) من خورا رزم ، ترك الآثار الباقية وله كتاب عن الهند ، والبيرونى فيلسوف ، ورياضى مشهور .

10 - ناصر خسرو (ت 481 - 1008 م) ألف سفرنامه - أو زاد المسافر ، ودون به مشاهداته فى بلاد الفرس والعراق والحجاز والشام ومصر ، وقد زارها فى عهد المنتصر الفاطمى سنة 422 ووصف البلاط وابهته وكان وزيرا فى بلاط خراسان ، واعتزل الاعمال السياسية فحج البيت وأصبح داعيا للاسماعلية ، وكتابه ألفه بالفارسية ترجمة شفر الى الفرنسية .

11 - أبو عبد الله البكرى (ت 487 هـ) 1040 - 1094 م ألف المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب (طبعه دوسلان) وهو جزء من كتاب المسالك والممالك .

12 - شهاب الدين ياقوت الحموى الرومى (ت 626 هـ) (1229 م) هو افريقى المولد أسر صغيرا وبعث به فى تجارة الى الخليج الفارسى وعاش على بيع الكتب ونسخها ورحل ثلاث رحلات للتجارة ولم يحد عن الرحالة الا قبل وفاته بسنتين وقد ترك :

معجم البلدان فى (10) أجزاء ، ومراصد الاطلاع على أسماء الاماكن والبقاع . وقد اختصره عبد المومن بن عبد الحق المتوفى سنة

(739) من معجم البلدان في أربعة أجزاء وطبع بلندن ، وارشاد الاريب الى معرفة الاديب في سبعة أجزاء .

13 — عبد اللطيف البغدادى (ت 629) ترك الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ترجمه دوساسى وعاق عليه .

14 — الشريف الادريسى (ت 564) ألف نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والاقطار والبلدان وهو مختصر لنزهة المشتاق المطبوع برومة سنة 1592 ورسم الادريسى خريطة العالم ، وقد طبع ملير خريطة الادريسى (6) .

(6) راجع فى هذا فصل كتاب الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه (الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى) طبع بمصر — 1945 .

مَعْجَمُ بِأَسْمَاءِ الْمَدَنِ الَّتِي زَارَهَا الْبَلَوِيُّ

تَهْتَمُ رَحْلَةُ الْبَلَوِيِّ بِذِكْرِ الْمَدَنِ وَالْقُرَى وَالْجُزُرِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي مَرَّ مِنْهَا فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْحَجِّ . . . وَهِيَ بِهَذَا تَعْتَبَرُ مَعْجَمًا جُغْرَافِيًّا لَعَدَّةِ مَدَنٍ أَقَامَ بِهَا فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْحَجِّ أَوْ فِي رَجُوعِهِ مِنْهُ مِمَّا حَتَمَ أَنْ أُبْحَثَ عَنْهَا فِي الْمَعْجَمِ الْجُغْرَافِيِّ لِلتَّحَقُّقِ مِنْ ضَبْطِهَا وَعِمَارَتِهَا وَحَيَاتِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ .

أَقْرِيطَشْ : جَزِيرَةٌ فِي بَحْرِ الْمَغْرِبِ يُقَابِلُهَا مِنْ بَرِّ أَفْرِيقِيَا لُوبِيَا وَهِيَ جَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ فِيهَا مَدَنٌ وَقُرَى وَيُنْسَبُ إِلَيْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَتَحَهَا جَنَادَةُ ابْنِ أَبِي أُمَيَّةَ سَنَةَ 54 هـ (أَنْظَرَ يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ) .

الْأَسْكَندَرِيَّةُ : مَدِينَةٌ عَتِيقَةٌ بِمِصْرَ تُنْسَبُ لِلْأَسْكَانْدَرِ (أَنْظَرَ تَارِيخَهَا وَوَصْفَهَا الْقَدِيمَ فِي الْمَلْحَقِ بِالْمَعْجَمِ) .

أَشْغَرَابُطَةُ : أَحَدَى جُزُرِ الرُّومِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ قَبْرِصَ كَمَا وَرَدَ فِي الْبَلَوِيِّ وَلَكِنَّا لَمْ نَعْثُرْ عَلَى ذِكْرِهَا فِي الْمَعْجَمِ .

بَاجَاةُ : بَلَدٌ بِأَفْرِيقِيَا ، نَعْرِفُ بِبَاجَاةِ الْقَمْحِ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ تُونِسَ يَوْمَانِ وَوَصَفَهَا الْبَكْرِيُّ فَقَالَ : إِنْ حَصَنَهَا أَزَلَى كَمَا وَصَفَهَا بِكَثْرَةِ الْإِنْهَارِ .

بَجَايَاةُ : مَدِينَةٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَيْنَ أَفْرِيقِيَا وَالْمَغْرِبِ كَانَتْ قَاعِدَةً بَنَى حَمَادُ وَتُسَمَّى النَّاصِرِيَّةَ وَتَقَعُ فِي مَفْتَرَقِ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ وَمِنْهَا تَرْكَبُ السُّفُنَ الْمَحْمَلَةَ بِالْمُنْتَوِجَاتِ إِلَى جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ مِلْيَانَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .

بجائنة : مدينة بالاندلس من أعمال البيرة وانتقل اليها أهلها الى المرية بينها ، وبين المرية فرسخان وبينها وبين غرناطة مائة ميل ، وهى ثلاثة وثلاثون فرسخا ، ومنها أبو الفضل مسعود بن على البجاني وعلى بن الحسن وعلى بن معى بن سمعان بن موسى الرعينى البجاني وعلى بن الحسن المرى . .

برشانة : قرية قرب اشبيلية .

بطن مر : من نواحي مكة عنده يجتمع وادى النخلتين غيصيران واديا واحدا .

بلش : بالفتح والتشديد اللام بالاندلس ينسب اليه يوسف بن جبارة البلشى على ما ذكره ابن الفرضى .

بيت المقدس : مدينة بها مساهد دينية وبه مغاور ومواقع مقدسة وهى أعظم عاصمة فلسطين .

بونة أو العناب : أصل العناب النخل الطويل والعالى فى السماء الذى لا ينبت شيئا وهى مدينة تقع على مقربة من قسطنطينة .

تبـورك : موضع بوادى القرى والشام وبه حصن عظيم بينها وبين المدينة اثنتا عشرة مرحلة .

تلمسان : وبعضهم يقول تتلمسان مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر أحدهما قديمة والاخرى حديثة أختطها الملتزمون ملوك المغرب ، واسمها نافرزت (بكسر الفاء) يكون الراء والزاي (يقيم بها الجند والموظفون واسم المدينة القديمة أقادير يسكنها الرعية كالفسطاط التى ظلت المدينة التجارية والقاهرة التى أصبحت بعد انشائها مقرا للسلطات والحاشية والجند .

تونس : مدينة كبيرة حديثة بافريقيا على ساحل بحر الروم
عمرت على انقاض - قرطاجنة وهى قصبة افريقية (أنظر البكرى) فى
المسالك و (ياقوت) فى المعجم .

الجزائر : مدينة على ضفة البحر بين افريقيا والمغرب ، كانت
المسافة بينهما وبين بجاية أربعة أيام وتعتبر من عواصم بنى حماد بن
زيرى بن مناد الصنهاجى كما تعرف بجزائر بنى فرغاي . وقال البكرى ،
وبها آثار تدل على أنها كانت دار ملك لسالف الامم .

خليل : بلدة فيها حصن وعمارة وسوق قرب بيت المقدس
بينهما مسيرة يوم ، بها قبر الخليل وفيها مآهير وزوار وقرامون فموضوع
القبر واسمها الاصلى خبرون .

خليص : حصن بين مكة والمدينة .

دمنهـور : بلدة بينها وبين الاسكندرية يوم واحد فى طريق
مصر وهناك ، دمنهور أخرى تسمى دمنهور الشهيد ، بينها وبين الغسقاط
مسافة قريبة .

ذات الحمام : بلد بين الاسكندرية وافريقية وهى الى الاخرة
أقرب (كما فى ياقوت) .

ر ا بـغ : قرية على البحر الاحمر ، تعتبر ميقاتا مكانيا لاهرام
أهل المغرب ومصر الخ . .

الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين . كانت رباطا للمسلمين ، بينها وبين
القدس 18 ميلا ، وبها آثار ومشاهد ، وكانت ذات شأن فى الحروب
الصليبية .

بلاد الزاب : منطقة واسعة تشغل المساحة الواقعة بجنوب جبال أوراس وتشمل بسكرة وما حولها (ياقوت) .

شاطبة : مدينة كبيرة قديمة تقع جنوب الاندلس في شرق قرطبة .

طبرق : أو طبرقة بالتحريك وبعد ألراء الساكنة مدينة بالمغرب على ساحل البحر الابيض المتوسط وتمتاز بآثارها الكثيرة على ساحل البحر ونهرها الكبير .

العملا : اسم لموضع بناحية وادي القرى بينها وبين الشام ، نزله الرسول في طريقه الى تبوك وبنى في مكان مصلاه مسجدا .

العقبة : منزل في طريق مكة بعد واقصة وقبل القاع وهو ماء لبنى عكرة .

عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر ، قرب غزة وهي مدينة قديمة كان يسمى ايلياء .

العباد : مرتفع جميل خارج مدينة تلمسان كان مدفن العلماء والاولياء وفي تلمسان موضعان يعرفان بهذا الاسم (احدهما) العباد الفوقى وهو بعيد عن المدينة و (الثانى) العباد السفلى بباب الجياد .

غرناطة : أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الاندلس ، يشقها نهر (حدة) أو (شنيل) وقد أصبحت عاصمة الاندلس في عهد بنى النصر .

فوة : بليدة على شاطئ النيل على مقربة من رشيد الواقعة على البحر الابيض المتوسط تمتاز بأسواقها ونخلها .

قاطية : أو قطية قرية في مصر تقع مقربة الفرما التي كانت تعد مفاتيح الديار المصرية واسمها القديم يبلوزة .

القاهرة : عاصمة قطر مصر بجاب الفسطاط أسسها جوهر الصقلي سنة 357 هـ .

قبرس : جزيرة في بحر الروم ذكرها يطليموس في كتاب ملحمة الارض (أنظر ياقوت الحمري) .

قتورية : سلب الكلام عنها في التعليق .

القرافة : خطة بالفسطاط بمصر ، وكانت في عهد ياقوت الحموي مقبرة بها مشاهد الصالحين والاكابر كابن طولون ، والشافعي رضي الله عنه .

قسنطينة : بفتح القاف وفتح السين وسكون النون ، وهي مدينة وقلعة كبيرة تقع في حدود افريقيا ويقول عنها البكري في الممالك أنها مدينة أزلية .

قوسرة : أو قوصرة جزيرة في بحر الروم بين المهديّة وجزيرة صقلية فتحت في أيام معاوية بن أبي سفيان .

الكرك : (بفتح أوله وثانيه) قلعة حصينة في طرف الشام من نواحي البلقاء تقع بين ايلة وبحر القلزم والبيت المقدس ، وهي على جبل عال تحيط به أودية الا من جهة واحدة .

مالقة : مدينة اندلسية من أعمال رية على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمريه .

مالطة : جزيرة في البحر المتوسط قريبة من صقلية وافريقية المدينة : أو يثرب أو مدينة الرسول ، مدينة مقدسة بها قبر الرسول عليه السلام ومسجده .

مرشانة : مدينة من أعمال فرمونة بالاندلس .

المرية : بفتح الميم وكسر الراء وفتح الياء المشددة مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الاندلس وكانت هي وبجاية بابى الشرق، منها يركب التجار ، وفي المرية مرفأ ومرسى للسفن والمراكب ، يضرب ماء البحر سورها ويعمل بهما الوشى والديباج ، وفيها يكون ترتيب أسطول المسلمين، ومنها يخرج الغزاة الى بلاد الافرنج، وهناك مرية أخرى تسمى مرية بفتح الياء وكسر اللام والتشديد من أعمال رية على ضفة نهر المدينة وكانت مرسى يركب منها فى البحر الى بلاد البربر فى العدو من البر الاعظم (أنظر لفظ المرية فى معجم البلدان لياقوت) .

مكة : مدينة عتيقة مقدسة ، وتسمى بكة ، وأم القرى ، والبلد الامين وبها مشاهد الاسلام ، وبها تؤدى شعائر الحج ، حيث مكة المكرمة .

هنيين : بكسر الهاء وكسر النون مع التشديد فرضة بسواحل تلمسان بالمغرب الاوسط قريبة من تاجرة التى ينسب اليها عبد المومن بن على .

وادی الاراك : على مقربة من مكة وهو يتصل بغيقة قريب من جبل عرفة .

وادی الصفراء : قرب المدينة وبينه وبين بدر مرحلة .

وادی القرى : وادی بين المدينة والشام وهو من أعمال المدينة ، كثير القرى .

وادی العفر : واد بناحية المدينة ، به عيون ونخيل وقصور ودور ومنازل .

الينبوع : والصواب (ينبع) قرية غناء قرب المدينة .
يصب واديها فى غيقة .



أفريقيا الشمالية
في القرن الخامس الهجري

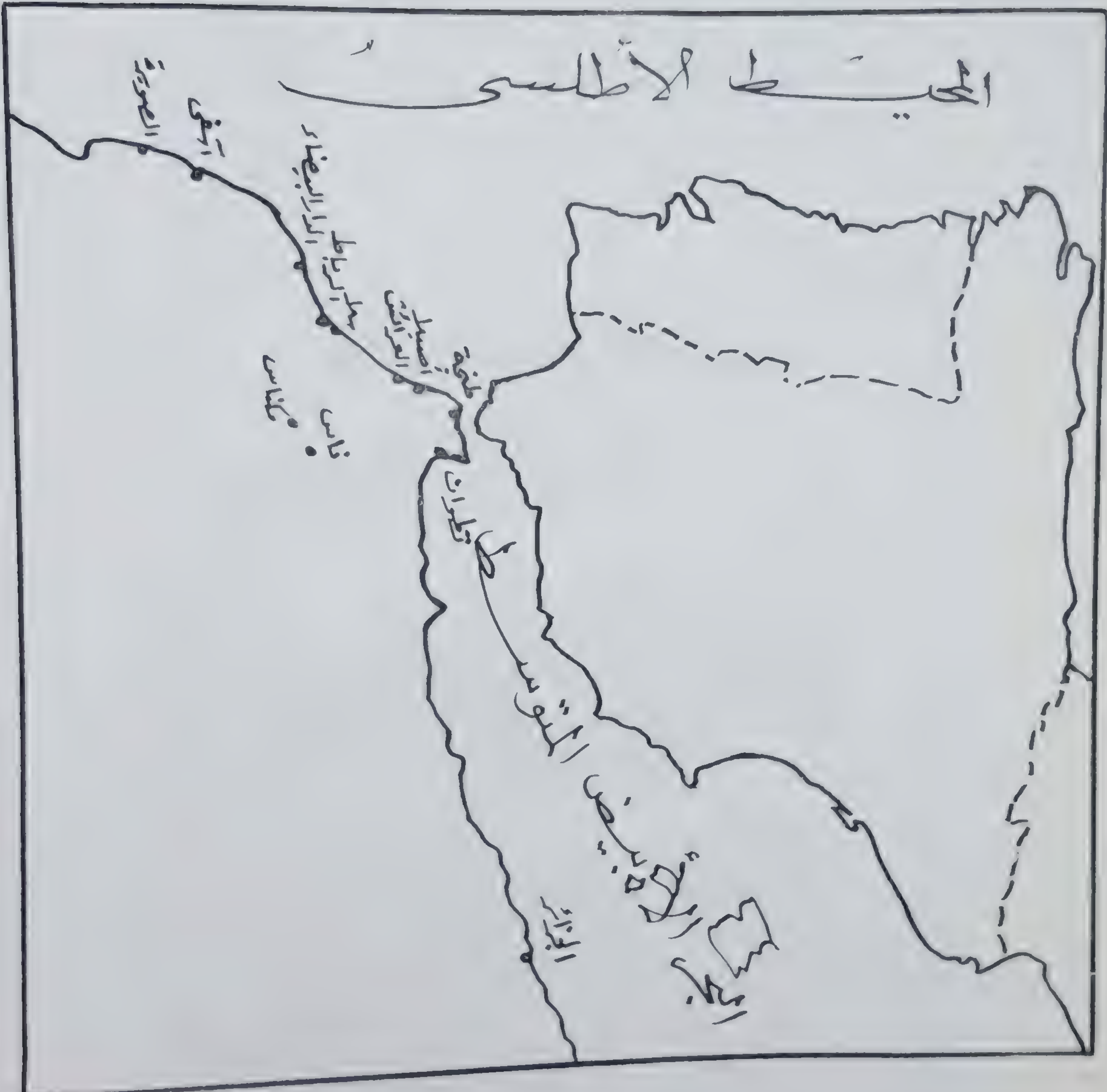
الجانب الوثائقي للرحلة

البلوي والوثائق العلمية

فهرس

بأسماء الكتب والإجازات والقصائد والدواوين
والأراجيز والتخریجات والأماي والمختصرات
المذكورة في الرحلة





البلوي والوثائق العلمية

أشار البلوي في رحلته الى عدة كتب وشروح واجازات وفهارس واسانيد ، ودواوين وقصائد ، وأراجيز ، وتخريجات وأمالى ومختصرات . مما يدل على الامامه بثقافة عصره واطلاعه على المصادر والمطلق المعروفة في وقته . ولهذا سنذكر جميع ما أشار اليه في ذلك تنميما للفائدة .

فهرس

بأسماء الكتب والإجازات والقصائد والدواوين
والأراجيز والتخریجات والأمالی والمختصرات
المذكورة في الرحلة

- نظم الكاتب أبی بكر بن الخطاب القلمسانی .
اجازة أبی عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشید .
اجازة أبی عبد الله محمد بن جعفر (من علماء بجاية) .
اجازة أبی الحسن علی بن عبد الله (من علماء قسطنطينة) .
اجازة الشيخ المنتصر التونسي .
اجازة أبی عبد الله بن عبد الستار التونسي .
اجازة ابن برال التونسي .
كتاب التيسير في القراءات .
لامية حرز الامانی للامام ابن فيورة الشاطبي .
عقيلة أتراب القصائد للشاطبي .
اجازة ابن الحباب .
كتاب ابن الحاجب الفرعی .
اجازة ابن عبد السلام التونسي .
موطأ مالك بن أنس .
صحيح مسلم بن الحجاج .
اجازة أبی أحمد ابراهيم بن محمد الطبري المكي الشافعي .
اجازة ابن حريز .
اجازة ابن عبد السلام التونسي .
مهب نواسم المدائح ، ومصب غمائم المنائح ، في مدح الخليفة الحفصية
(لابن حريز) .
قصيدة ابن سردر العراقي .
الروض الاریض في علم القريض للنقاوسی .
رسالة أحكام الصنعة للوزير أبی عبد الله ابن عبد الغفور .
تلخيص مشكل الحديث لابن فورك .

حديقة الناظر في تلخيص المثل السائر في علم البيان .
 شرح كتاب المصباح لابن مالك .
 ايضاح السبيل الى القصد الجليل في شرح قصيدة ابن الحاجب العروضية .
 تاريخ الهروى .
 الاكتفاء لابي الربيع بن سالم الكلاعى .
 اجازة وجيه الدين ابي زكرياء يحيى بن محمد ابن الامان الاسكندرى .
 كتاب سحر الشعر .
 اجازة ابن المصطفى الاسكندرى .
 كتاب المطمح .
 الشهاب للقضاء .
 تنبيه المذنب بالطير والحوث ، قبل أن يموت ، لشمس الدين ابي عبد الله
 بن النعمان .
 الحجة والزورة المحمدية للشيخ ابي زكرياء البغدادى .
 القصائد الوترية في مدح أشرف البرية لمجد الدين .
 اجازة ابن عبد الله محمد بن عز الدين ابي القاسم عبد الرحمن عطية
 اللخمى الاسكندرى .
 سند في حديث الرحمة لابي خالد عيسى البلوى .
 اجازة الحافظ ابي القاسم اسماعيل السمرقندى .
 الاربعون الكبرى الصحابية لابي الحسن المقدسى .
 برنامج الرواية لابي خالد عيسى البلوى .
 أربعون حديثا لأربعين شيخا في أربعين بابا لأربعين صحابيا .
 اجازة الامام السيورى .
 قضاء حوائج الاخوان واغاثة اللفان للحافظ محمد بن على النسرى .
 اجازة المصنف نور الدين الهوارى التونسى .
 تخميس ابن مهيب لعشرينيات ابي زيد الفزازى .
 التنقيح لشهاب الدين القرافى .

شرح كتاب ابن الحاجب الاصلى للهوارى .
 شرح تنقيح القرافى .
 اجازة محمد عبد الرحمن القرشى الاسكندرى .
 منتقى أخبار أبى بكر الانبارى .
 اجازة أبى عبد الله الرىعى الشافعى الشاذلى .
 اجازة أثير الدين ابن حيان .
 الاحاديث البلدانية للحافظ أبى طاهر السلفى .
 كتاب التجريد بالاسانيد فى القراءات .
 الارجوزة الالفية فى علم العربية لابن زكرياء يحيى بن معط .
 القصيدة البائية من نظم الامام شمس الدين الانصارى الخيمى .
 ثلاثيات الامام البخارى .
 عقد اللئالى فى القراءات السبع العوالى .
 اختصار نهاية ابن رشد لابن حيان .
 الفوائد والفرائد المنتقاة والغرائب عن الشيوخ العوالى لابن حيان .
 البحر المحيط فى تفسير القرآن العظيم .
 ارتشاف الضرب فى لسان العرب .
 كتاب الشذرة النحوية لابن حيان .
 ديوان اثير الدين ابن حيان .
 سورة الالباب ، وذخيرة الكتاب ، لآبى محمد بن الحسن ابن الفرج .
 اجازة تقى الدين بن السبكى .
 شرف أصحاب الحديث للحافظ أبى بكر البغدادى .
 اجازة ابراهيم الاموى القرشى .
 اجازة شمس الدين الكتانى العربى .
 اجازة أبى البركات عبد الرحيم ابن جماعة .
 تنقيح المناظرة فى تصحيح المخابرة .
 المنهل الروى فى علوم الحديث النبوي (وهو اختصار كتاب ابن الصلاح) .

غرر الخيال لمن يسم في القرآن .
 تجويد الأضداد في وجهات الجهاد .
 مستند الأضداد في آلات الجهاد .
 بنية المتقوس في عوالي حديث مالك بن أنس .
 تخريج كتاب الموطأ لأبن جعدة الكندي .
 مجتد الشعر لأبي الحسن جعفر بن الحاج الورقي .
 منبج نواسم الذائع ومصب غوامض المناطح لأبن شريز .
 قصيدة شجاعت الذين اللامية المستندة على معجزات الرسول .
 اجازة علاء الدين المتقوس الشافعي .
 اجازة نسس الدين محمد الخولاني الأندلسي .
 عوارف المعارف لسحاب الدين السبروردي .
 رسالة أبي القاسم القشيري .
 فضل الخيل لحافظ شرف الدين عبد المؤمن الحمياطي .
 نصيح أبي العباس شعلب .
 اجازة جمال الدين أبي العباس أحمد المصغوني .
 كتاب الاربعين حديثاً تخريج تقي الدين أبي دقيق العيد .
 العمدة في الحديث تأليف أبي محمد عبد الغني المقدسي .
 اجازة تاج الدين أبي محمد بن هبة الله المقدسي .
 عيون الحقائق للشيخ أبي سليمان داود الشافعي .
 الطريقة الصوفية لأبي محمد رعية الله المقدسي .
 اجازة فخر الدين أحمد .
 المجالس الثلاثية من أمالي الحافظ علي المقدسي .
 اجازة محمد بن المنير .
 أحكام السماع بشروطه لناصر الدين أحمد بن المنير .
 الأرجوزة الكبرى ، في تفسير القرآن لناصر الدين أحمد بن المنير .
 تخريج ابن المظفر منصور الهمداني الشافعي في صوم مشرم .

اجازة ناصر الدين أبى عبد الله محمد بن مبادر الشافعى .
 اجازة الشيخ عز الدين .
 الاربعون حديثا السباعية الفراوية النيسابورية .
 الاربعون حديثا الودعانية .
 اجازة أبى عبد الله محمد العلامى الشافعى .
 تاريخ الرقة للحافظ أبى على الفشيرى الحرانى الرقى .
 اجازة أبى العباس أحمد الرصافى .
 الدر المنظم .
 اجازة أبى محمد عبد الله اليافعى اليمنى الشافعى .
 الانشاد والتطريز لليافعى .
 اجازة جمال الدين أبى عبد الله محمد بن خلف الخزرجى .
 تخريج الامام البرزالى للاربعين حديثا .
 الزيارة لابن اليمن عبد الصمد ابن عسناكر .
 الشفاء لابن سبع .
 اجازة أبى عبد الله محمد بن عمر المكى المشتهر بخليل .
 اجازة أبى العباس أحمد بن ابراهيم الشافعى .
 اجازة أبى العباس أحمد القرشى الحجازى .
 الاربعون حديثا البادية لابن طاهر السلفى .
 اجازة أبى الحسن على زين الدين هبة الله ابن الانصارى .
 شرف أصحاب الحديث للحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى .
 التهذيب لابن سعيد البراعى .
 اجازة الشيخ القمى الاسكندرى .
 كتاب الاربعين ، المخصوصة بالتعيين للحافظ شرف الدين المقدسى .
 كتاب الاربعين فى فضل الدعاء والدعين ، لشرف الدين المقدسى .
 الثلاثينيات المخرجة لعبد اللطيف الحرانى المعروف بابن الصيمل .
 اجازة أبى عبد الله محمد بنى يحيى بن أبى فليته .

برنامج أبى الحسن بن قطرال .
 اجازة أبى القاسم عز الدين محمد بن الكهف القرشى الشافعى .
 سداسيات الرازى .
 اجازة الشيخ عماد الدين الكندرى .
 قصيدة اللامية فى النسب النبوى .
 العشرات فى اعاريض الشعر .
 "رجز فى علم الفرائض .
 الجواهر والدرر لآبى الحسن الجيانى .
 تخميس قصيدة الامام أبى عبد الله بن أبى الخصال .
 اجازة ابن هارون .
 اجازة أبى زكرياء يحيى بن الشيخ ابن اسحاق الشهير بالسلاوى .
 تخميس القصيدة الشقراطيسية لابن عتيق .
 اجازة ابن عبد الله محمد التنوخى .
 أمالى المجالس الخمسة لآبى طاهر أحمد السلفى الاصبهانى .
 شرح مختصر ابن الحاجب الاصولى وشرح مختصره الفرعى للامام
 ابن هارون .
 شرح المعالم الفقهية للامام ابن هارون .
 اختصار المطيطة لابن هارون .

تاج الفهرق في تحلية علماء المشرق

تأليف:

خالد بن يحيى السبكي

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم وصلاة على سيدنا وعلى آله وصحبه

قال عبيد الله (1) سبحانه ، الراجي عفوه وغفرانه ، خالد بن عيسى ابن أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن علي بن خالد البلوي ، لطف الله به وأخذ بيده وبرحمته (2) آمين .

الحمد للذي فرض حج البيت على من استطاع اليه سبيلا ، وجعله تأسيس (3) ابراهيم خليلا ، وقال واذا جعلنا البيت مثابة للناس (4) وأمنا ، ومن أصدق من الله قبلا ، وجعل جزاء الحج المبرور الجنة ، وأصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ، نحمده على نعمه التي لا تحصى ، وأولها مقاما ورحيلا ، ونصلي على نبيه محمد الذي بعثه بالحق رسولا ، وفضله على جميع مخلوقاته تفضيلا ، وأنزل عليه الكتاب تبياننا لكل شيء وتفضيلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبل نصرته وخدا

(1) ذكر المؤلف كلمة عبيد الله « بصيغة التصغير لكلمة (عبد الله) تأديبا في مقام الدعاء ولم يرد بكلمة « عبد الله » انها علم له ، اذ هو يدعى خالد بن عيسى وكانت الطريقة المتبعة في المغرب ان من اسمه محمد لا يقال فيه الا ابو عبد الله ، وعبد الله لا يعرف الا بأبي محمد ، وزكرياء بأبي يحيى ، واسحاق بأبي ابراهيم ، وابراهيم بأبي اسحاق الخ ، مما يؤدي الى الالتباس في تعيين الاشخاص عندما نذكر كنانهم دون أسمائهم ، وهذه الكنى اصطلاحات لا تتفق مع ما كان عند العرب في القرون الاولى ، اذ كان استعمال الكنية للتبجيل فينسب الرجل الى اسم البكر من اولاده ، وزاد الالتباس عند المتأخرين من المشاركة اضافة القاب خاصة للتشريف كنخر الدين الخ ...

(2) هكذا ورد بالاصل والصواب « برحمته » باستقاط الواو .

(3) الا سلم ان يقول وجعل مؤسسه ابراهيم خليلا .

(4) سقطت كلمة (للناس) في قوله تعالى (واذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) في سائر النسخ .

وذميلا (5) ، وذلّلوا بين يديه أعناق الجبابرة تذليلا ، وجردوا لاماطة صدأ الدين عضبا صقيلا (6) ، ومهدوا سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ونستوهب من الله سبحانه لاملاكتنا الكرام من آل نصر (7) الذين تبوأنا في أيامهم من العدل كل وثير المهاد ، وجمعنا بفضل مساعيهم المبرورة ، وتحت رايتهم المنشورة المنصورة بين الحج والجهاد ، أن يجدد الرحمة على من قضى منهم وسلف ، ويتم النعم على من خلف ، ويخص بالتأييد والحنى والمزيد ، رافع رايات فخرهم ، والقائم بأعباء نصرهم ، والمجدد لآثارهم ومآثرهم ، والمحيى لمكارمهم ومفاخرهم ، فخر الملوك الجلة ، وناصر الملة ، والبدر الذى زان أفق الملك من أبنائه السعداء والامراء بالنجوم والاهلة ، امام الهدى ، وغمام الندى ، وحسام الله المسلول على العدى مولانا السلطان أمير المسلمين وناصر الدين ، أبا الحجاج يوسف بن مولانا السلطان هازم أحزاب المشركين وقد جاشت ، ومسلط سيوفه العضاب على عاتى تلك الرقاب فما استنتت (8) ولا حاشت (9) ، أمير المسلمين المقدس السعيد الشهيد ، أبى الوليد ابن نصر ، وصل الله لهم عادة تأييده وعضده ، وحباهم بكل نعمة من عنده .

هذا تقييد ، أطلعه عون من الله وتأييد ، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية ، وذكر معاهد الوجهة المشرقية ، جعلها الله تعالى فى ذاته

(5) الذميل ، بفتح الذال المشددة وكسر الميم المشبعة ، نوع من سير الابل الهادى المطمئن .

(6) فى بعض النسخ وجردوا بالاحاطة عضبا « وفى بعضها » جردوا الاماطة صده ، « والاسلم » وجردوا لاماطة صدأ الدين . الخ

(7) آل نصر أو بنو الاحمر هم آخر أسرة اسلامية حكمت الاندلس . واضطر آخر ملوكهم الى تسليم مفتاح الحمراء للنصارى غرة ربيع الاول 897 هـ . ثم دخل الى المغرب مع عائلته وأفواج من المسلمين تاركين وراءهم أمجاد ثمانية قرون . وفى عهد بنى الاحمر ، شب خالد بن عيسى مؤلف هذا الكتاب .

(8) اضطربت

(9) فزعنت .

وابتغاء مرضاته ، بمئه وكرمه ، وألمت مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من
العلماء الفضلاء الذين يطئون ذيول البلاغة ، ويجرون فضول البراعة ،
ولهم كلام يتألق منه شعاع الشرق ، ويتفرق عليه صفاء العقل ، وينبث
فيه فرند الحكمة ، ويعرض على حلى البيان ، وينقش في فص الزمان ،
ويحفظ على وجه الدهر ، ويفضح عقائل الدر ، ويخجل نور الشمس
والبدر وألمت بذكر نبذ من غوائدهم ، واختيار طرف من أناشيدهم ،
ومزجتها بما جرت اليه العبارة ، وحسنت فيه الإشارة ، من قطع الشعر
المناسبة قطع النور ، المنتظمة من جواهر اللفظ ، البعيدة الغور ، الغريبة
الحفظ ، الآخذة من الحسن بأوغر الحظ ، مقتديا في ذلك كله بقول
القائل :

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم
في العين فضل ولكن ناظر العين
حرفان في ألف طومار (10) مسودة
وربما لم تجد في الالف حرفين

ولما بوبت ما ألفت ، ورصعت ما جمعت ، وشبعشت ما
وضعت ، فجاء كما تراه حسن الزي ، عذب الري ، عالى القدر ، غالى
الدر ، مسبوك الحلية والتبر ، فيه للمسمع مراد ، ولل فکر معاد ،
وللالباب مسرح ومرتاد . سميته : بتاج الفرق ، في تحلية علماء المشرق .
ودعوت الله تعالى في مواطن الاجابة ، أن يوفقنى فيه للاجادة والاصابة ،
وأن ينفع به كل من ياتمس النفع به في المطالعة أو الكتابة ، وهو سبحانه
سميع الدعاء ، مجيب النداء ، محقق الرجاء ، وهو حسبى ونعم الوكيل .
فأقول مستعينا بالله سبحانه : انى خرجت قاصدا للحج ، وطالبا للعلم

من بلدى قنورية : البلد الذى طال سناه ، وطاب مغناه ، وانتطق بالجوزاء ،
وناجت أبراجه بروج السماء ، فكأنه فى الحصانة جبل منيع ، وفى الحسن
ربيع بديع :

بلد صحبت به الصبابة والصبأ
ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيتـه
وعليه أغصان الشباب تميد

فوقع اتفاق الخروج من ضحوة يوم السبت ، الثامن عشر لصفر
من عام ستة وثلاثين وسبعمائة ، مودعا لجميع الـاهل ، ومتجرعا من
ذلك ما ليس بالعذب ولا بالسهل :

ودعت قلبى يوم ودعتهم	وقلت يا قلبى عايـك السلام
وقلت للنوم انصرف راشدا	فان عينى بعدهم لا تنام
محرم يا عين أن ترقدى	وليس فى العالم نـوم حرام

وكان لذلك الوداع موقف مشهور مشهود ، نثر فيه من جمان
الدمع لؤلؤ منظوم منضود ، وفيه قلت :

موقف للفراق أرخص فيه	كل در لنا وكل عقيق
بجموع كوجدنا فى اجتماع	ودموع كالشمـل فى التفريق

وقد أعدت الركاب ، وطاشت الالباب ، وحضر للوداع جميع
الاحباب ، وأنا أصبر كصبر ميت على النزاع ، وأقول ما خلق الله من

عذاب أشد من وقفة الوداع ، أعالج السياق ، وأعين المنايا بين اخفاف
النيق :

أقول لصحبي حين ساروا، ترفقوا لعلى أرى من بالجناب الممنع
والثم أرضا ينبت العز تربها وأسقى ثراها من سحائب أدمعى
وينظر طرفى أين أترك مهجتي فقد أقسمت أن لا تسير غدا معى
وما أنا ان خلفتها متأسفا عليها وقد حلت بأكرم موضع

ولما تبرأ التابع من المتبوع ، وطفئت نيران الوداع بمياه الدموع،
وعطف المودعون لى بالعودة لقطرهم والرجوع ، وهم بين راجع بالجسم
وهو لى بالقلب مصطحب ، وضاحك بما يرجوه لى وهو على وداعى
منتحب ، أخذت فى الارتحال ، وأنشدت بلسان الارتجال ، بل بلسان
الحال :

ليت شعرى انلتقى بعد هذا أم وداعا يكون هذا اللقاء
فاذكرونى وزودونى دعاء خير زاد تزودونى الدعاء
ثم امطيت الطرق طريقه ، ولم أبلعه فى الاناة ريقه ، والفراق
يردى فريقه ، وقلت :

أذهبـت ، أيام الشبيبة والنوى
واتلفت باقى العمر ؟ يا ضحوة السبت

فقل لجديد العيش : لا بد من بلى .
وقل لاجتماع الشمل : لا بد من شت .

وسرت بعزيمة لا يفل حدها ، ولا يتجاوز حدها ، وخرمة (11) لا
يثنى رسنها ، ولا يلم بعين وسنها ، وأخفقنا في السير شباب ذلك
النهار ، وجاريت بدموعى جريان تلك الانهار ، وببت بساحة واد حالنا
به بين ظفر التوحش ونابه ، أكن الوجد ما غاية الثكلى أن تكنه ، وأجن
من الحنين ما لا تطبق الجوانح أن تجنه ، وأردد :

أهذا ولما تمض للبين ليلة ؟ فكيف اذا مرت عليك شهور !

حتى اذا بقى من الليل حد الوصية من المال ، قضينا على معزول
السرى بالاستعمال ، وسرت أحمل أنفاس الصبا حقائب الوجد ، واتمتع
من شميم عرار نجد ، فما طلع من الغد وجه النهار ، ولا بدا غيه حاجب
الاسفار ، الا وقد أشرفنا على (المرية) ، تتلع الينا أجياد قصابها
وغرفاتها وتبتسم عن ثغور أسوارها ، وبلج شرفاتها ، كالعدارى
شددن مناطقنا (12) ، وتوجن بالاكيل مفارقا ، كأن ترابها عنبر ، وحصاها
عقيق ، وهواها نسيم وماءها رحيق ، مغان لها عندى معان وأماكن ،
فسكانها للنفوس سواكن .

دمن طالما التقت أدمع الحـ زن عليها وادمع العشاق

فهنالك شاهدت الأطباء مختلطة بالآرام ، والغزاة أنيسة النفور
والشادى يبادر بالسلام ، والعطف من العطف لا يخلو ، والحقف بحمل
الغصن يمر فى كل حين وكلما مريحلو ، فحمدنا عند الصباح السرى
ودخلنا المدينة أم تلك القرى :

ألوي الخلوع من الولوع بخطرـ من شيم برق أو شميم عرار
وأنيخ حيث دموع عيني منهل يروى وحيث حشاي موقد نار

(11) الخرمة : موضع الخرم من الانف . ويقصد الناقة التى يركبها فى رحلته .
(12) فى الاصل مناطقها ، ومفارقها ، ولعله تحريف من الناسخ

وعند دخولنا اليها مررنا على بعض البساتين المجاورة لها ، فحيانا
بوجه مشرق ، وحيانا من مذاربه برواء مغدق .

ودولاب اذا أن (13) يزيد القلب أشجانا
سقى الغصن وغناه فما ييرح نشوانا

فدخلت المدينة بقلب غير داخل ، وتلقيت المنام بطرف شحيح
بالكرى باخل ، وكلما فتشت للاوطان فى فكرى ذنبا ، اجعله سببا للسلو ،
أو عيبا أركن به الى الراحة والهدوء ، قال الاختبار لا سبيل الى ذلك ،
وجعل يعرض على من حسناتها ما جلا به ظلام الليل الحالك ، ولولا
أنى رجعت الى جميل الصبر بعد الذهاب ، وعالت الروح التى راح
سرهما لقرب الاياب ، لا مسيت أثرا بعد عين ، ولكنك أحد من قتله يوم
البيين :

البين جرعى نقيع الحنظل والبين أكلنى وان لم أكل
ما حسرتى ! ان كنت أقضى انما حسرات نفسى اننى لم أفعل
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل فى الارض يألفه الفتى وحنينه أبدا لاول منزل

فحلت منها المحل المودود ، وحلت بها المشدود والمعقود ،
وجددت بعلمائها العهود ، وأقمت لازم منها معهدا مألوفاً ، ومشهدا
بالحبائب محفوفاً ، الى أن تهيأ غراب دار الصنعة (14) ، وتيسر

(13) أن (من الانين) .

(14) ركب البلوى فى رحلته (قرقورة) وهى سفينة عظيمة تحمل الزاد والكراع
للاسطول وأصل اسمها بالاسبانية (كراكا) ومنها ما هو بثلاثة ظهور (اى
طبقات) ولها ثلاثة قلاع تسير بها فى الريح العاصف .

ذكرها ابن بطوطة كما ورد ذكرها فى رسالة ابن الأحمر الى ابن الحسن كما فى
الاستقصا (ج 2 ص 81) انظر تاريخ الاسطول العربى ص 31 — 57 .

اندفاعه في يوم الجمعة ، فجددت الوداع ، وشاع خبر الجواز وذاع .
وفارقت من فارقت لا عن ملالة . وودعت من وودعت لا عن تعويض .
وركبت فيه بباب الديوان في يوم الأحد : السابع لجمادى الاولى من
العام المذكور ثم وقفت ماشيا على الماء وقفة المتسلم ، وودعت الاندلس
وداع المتأمل المتألم ، وأنشدت :

خليلى هذا موقف من متيم شعوجا قليلا وانظراه يسلم

وسرنا في أطيب هواء . وأحسن استواء ، الى أن وافينا (مرسى
هين (15)) فنزلنا بها ضحوة يوم الثلاثاء . التاسع لجمادى الاولى
المذكور . فرأيت بليدة بضيرة ، لا كبيرة ولا صغيرة ، جميلة المنظر .
متوسطة بين الصغر والكبر ، موضوعة أسفل جبلين ، بين بحر وشجر .
يخفضها ارتفاع قلعة ، دار صنعة ، وأسواق موفورة ، ومساجد معمورة .
ولقربها من الاندلس هي مذكورة ، لقيت بها الخطيب : أبا عبد الله بن
جابر ، فجبر الوحشة بالايناس وأنشدنى لبعض الناس :

ابشر بخير عاجل تنسى به ما قد مضى

فرب أمر مسخط لك في عواقبه الرضى

ثم خرجت منها صبيحة يوم الخميس ، الحادى عشر لجمادى
الاولى المذكورة وسرنا نلتهم الارض التهام الضمير (16) نرتبط بالجد
ارتباط الفعل بالضمير ، الى أن وافينا مدينة (تلمسان) ، فحللنا به
ضحوة يوم الجمعة ، الثانى عشر من الشهر المذكور ، فرأيت مدينة
قل مثلها ، وجل عرارها وبانها واثلها ، بطاح وأدواح ، وربى ملاح ،

(15) مدينة بين مليية وبنى سف Honaine أنشأ جامعها أبو الحسن المرىنى .
ورد ذكرها فى المسند الصحيح لابن مرزوق ، وفى وصف افريقيا الشمالية
والصحراء المقتبس من نزهة المشتاق للادريسى (المجلد 5 سنة 1925
ص 33) .

(16) الضمير : الهزيل ، وهو من الابل والخيول ما كان خفيف الحركة سريع المشى .

وضياء وانشراح ، وبسيط له اتساع وانفساح ، ومياه لها على در
الحصا انسحاب وانسياب ، وروضات يعترى ويعترض اليها اهتزاز
وارتياح ، وجنات ريقها ندى وثغورها اقحاح ، فسيحة الارجاء ،
صحيحة الهواء ، ممتدة الغاية في الحسن والانتهاء ، جوها خفيف ،
مجتلاها جميل ، ونشرها أريج النفس عليل .

وأرض من الحصباء بيضاء قد جرت
جداول ماء فوقها تتفجر

كما سبحت تبغى النجاة أراقم
على روضة فيها الاقحاح منور

وكم للعباد (17) من أطراد مذاربها واخضرار جوانبها ، من نفحات
رحمة ، وبيضاء تربي على كل مستحمة ، تحييك بالوجه الوديع ، وترى
الغصن يصلى بتحيات النسيم ، فنزلت منها بالمحلة المنصورة ، الحاضرة
للمدينة المذكورة ، محلة السلطان العادل ، الهمام الباسل ، ملك الاسلام
والمسلمين وناصر الدنيا والدين ، أبى الحسن بن السلطان (18) الفاضل
الغمام الهاطل ، أمير المسلمين ، نخبة الملوك والسلاطين ، أبى سعيد
العابد ، الم رابط المجاهد أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ،
أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى ، أيدهم الله تعالى وأسعدهم ،
فما حططنا الركاب ، ولا وضعنا الاقتاب (19) الا والشمس يتبين
زوالها ، وطهارة المكتوبة يتعين استعمالها فامطنا وعشاء السفر ، واخذنا

(17) العباد مرتفع جميل خارج مدينة تلمسان ، كان مدن الاولياء والعلماء . وفى
تلمسان موضعان يعرفان بهذا الاسم (أحدهما) يسمى العباد الفوقى وكان بعدا
عن المدينة (والثانى) العباد السفلى وكان بباب الجياد من أبواب تلمسان .

(18) « أبى الحسن المرينى » هو السلطان أبى الحسن على بن أبى سعيد ، عثمان
ابن يعقوب المنصور يعرف بالسلطان الاكحل لانه كان اسمر اللون . تولى بعد
وفاة والده سنة 731 هـ وحكم حتى سنة 749 هـ (الناصرى ج 3)

(19) الاقتاب جمع قتب : الرحل

فى غسل الجمعة بالاثـر ، ثم تمتعنا بالخطبة والخطيب ، بعد أن أخذنا
 بحظ وافر من الطيب ، والعود الرطيب ، وند (20) ما له ند ، تعاطيه
 من السنة ، اذا أدخلته النار حكى رائحة الجنة ، وجلنا فى المحلة ، وهى
 روض يثمر خيلا واعنة ، وبحر يزخر قنا وأسنة ، وذوائب الاعلام
 تخفق ، وألسنة عذباتها تكاد بالنصر تنطق ، والاحوال قد استقامت ،
 والاخبية على القاعدين فيها قد قامت ، وهى مبيضة كسقيط الثلج ،
 مصطفة كبيوت الشطرنج ، وقد أشرق الجو بأشراق الخمائل والنبات
 وأشرف على مدينة أهدقت بها الازهار والانهار من جميع الجهات ،
 فأقمنا هنالك درر الانباء ، ونحتلب در النعماء ، وأنا أمرح فى جهاتها ،
 مرح العين فى منتزهاتها ، حتى تمتعت فى ذلك الجمع الحافل ، بقاء
 جماعة من الافاضل ، وأنشدنى بعضهم لبعض أهلها وهو الكاتب أبو بكر
 بن الخطاب ، رحمه الله تعالى ، وهو مع سائر نظمه عندى بالاجازة عن
 الشيخ الخطيب المحدث الحاج الفاضل أبى عبد الله محمد بن عمر
 بن محمد بن عمر بن رشيد الفهرى رحمه الله ، قال أنشدنا شيخنا
 الكاتب الاديب البليغ أبو بكر بن خطاب بتلمسان لنفسه :

سرى البدر فارتاع الفؤاد لومضه
 فبت وجفنى لم يذق طعم غمضه
 تبدى كعرق فى الغمامة نابض
 يدل على سقمى تواتر نبضه
 سجدت له لما تراءى يمانيا
 وأكملت من دمعى طهورى لفرضه
 وقضيت من حق الصباية واجبا
 برئت من العشاق ان لم أقضه

(20) الند : عود يتبخر به

وذئري عسر الشباب وطيبه
 وعيشنا تحايينا ماينا بغضه
 وعهدا شددنا عقده بيد الوفا
 فلا بطشت كف تمد لنقضه
 غيا ساري البرق الذي ضاعف الاسى
 على دنف (21) ما زال يشقى بنفسه (22)
 عندك من أهل العقيق (23) رسالة
 أقارنك عن ابلاغها خير قرينه
 والا فبلغهم تحية موجع
 يعانى الذي ينهد رضوى لبعضه
 وجرد على واديههم ذيل ديمة
 تتمم بالازهار صفحة أرضه
 حنينى الى الوادي لاجل جوارهم
 مجاورة المخفوض تعدى بخفضه

ثم زرت تربة ولى الله تعالى ابن مدين مرة أولى وثانية ، واقامت
 بالمحلة اياما ثمانية ، وكان خروجى منها ورحيلى عنها فى صبيحة يوم
 السبت ، الموافق عشرين جمادى الاولى المذكور ، ولم نزل نقطع مهامه
 قفار ، ونجوز فى اودية وبحار ، ونشاهد من الارض والسماء كل نهر
 سائل وغيم مدرار ، الى أن وردنا (مدينة الجزائر) ، فى آخر يوم

(21) الدنف : المرض الملازم

(22) نض الماء بنض نضا ونضيشا . حال لا يلا لالا . واستاد النض المرض .
استعارة .

(23) العقيق : اسم مكان . فى أماكن متعددة ، فهو بالمدينة المنورة (وهو المقصود)
وباليمامة ، وبالطائف ، وبتهامة ، وبنجد

الخميس الثانى لجمادى الثانية من العام المذكور والليل قد غول ، والنهار قد تحول ، والقلب لا يصبو الا لاول منزل ، ولا يحن الا الى الحبيب الاول ، ولما طرزت طرة الظلام يد الا صباح ، وأرسل الفجر فى رداء السحر خيط الصباح اسرعنا مبادرين ، وبادرنا مسرعين ، وتفرقنا فى سكك المدينة أجمعين ، فرأيت محيا صبيحا وتربا مليحا ومسجدا عتيقا ، وبناء أنيقا ، وأناسا قد سلكوا الى الحسن والاحسان طريقا ، من مدينة أقسمت بعلو هضابها الا يفوز مبسم الثريا برشف رضابها ، فلا ترتقيها الا الظنون ، وكأنها ضب ومن يطمع فيها نون ، قد أحاط بها البحر احاطة السوار بالزناد فألبس ذلك الجسم روح المجد ، وركب خلائق الوهد على ذلك النجد ، فأقمنا بها نحكم فى حزن الانس وسهله ، حكم الصبى على أهله ، حتى قرب أمد الرحيل ، وغلب واجبه على المستحيل ، فعزمت على الخروج ، وسرت على بياض ذلك الساحل وخضرة تلك المروج .

يا بياضا أدري دموعى حتى عاد منها سواد عيني عتيقا
وخرجنا فى صبيحة يوم الاثنين السادس لجمادى الثانية المذكورة فدخلنا فى أمر عظيم ، وطريق غير مستقيم ، وعذاب يوم عظيم ، نصعد على التهاشم ونغور فى النجود ونسلك كل مخدع لم يكن بالمألوف ولا بالعهود . ولا كان مسلكا الا للذئاب واللصوص والاسود ، الى شعراء بالخوف مشعرة ، وأرض خالية مقفرة ، وجبال منخرقة فى الجو وعرة ، تقطع الاسباب ، وتخلع الالباب ، وتذكر الصراط والميزان والحساب ، وأظن الخطابى اياها عنى بقوله :

سلكت عقابا فى طريقى كأنها صياصى ديوك أو أكف عقاب
وما ذاك الا أن ذنبى أحاط بى فكان عقابى فى سلوك عقاب

فبقينا نكابد عظيم ذلك الامر ، ونسير ولا نفارق ساحل البحر ، ونرقى العنق التى تقربنا من السماك وتدنيننا من النسر ، وقد اشتد البرد ، وبلغ الجد ، وفرع الجهد ، ووقع الثلج ، وعمى النهج ، وابتلى به

الفج والمرج ، فتصبح وصباحنا أبيض ، وجناحنا لا ينهض ، والعروق
 لا تنبض ، والبروق لا تومض ، والخيام لجمودها واقفة على غير عمودها ،
 والنيران مقرورة ، وشفاة الجليد مطرورة ، والزناد كابية ، والصعاد
 نابية ، والوجوه في عبوس ، والوجود في بوس ، وقد جمدنا كاننا بلا
 نفوس ، فنبت الايدي على أن تبطش ، والاقدام عن أن تنهض ، واسود
 يومى منه وان كان به أبيض ، وجاءت السماء بسيل عرم ، ولهب قمر
 يضطرم ، وقد صوب الغمام سهامه ، ولبس الجو لحرب المحل لاهمه ،
 فلم يبق قطر الا وقد نفدت فيه تلك السهام ، ولا أفق الا وعلاه من خيوط
 الودق المحتبسة مثل القتام ، فلا أحد الا وجد من ذلك ما أثقله ، وأحرق
 قلبه بتواليه وان كان في الحقيقة أغرقه ، وسرنا والعناء قد بلغ منا الغاية
 وانتهى بنا الى النهاية ، حتى وصلنا الى (بجاية) ، فدخلناها في يوم
 الاثنين الثالث عشر لجمادى الثانية (المذكور) بلدة قدرها خطير . وذكرها
 في كل زمن يطير ، وخطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس اثير .
 فكم هاجت من كفاح ، وملت عليها في بيض وصفاح . يمتد أمامها بسيط
 أخضر ، مد البصر قد أجرى الله فيه مذاب الماء تسقيه . وتضرب في
 نواحيه ، كأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد . محفوفة
 بالزمرد والعسجد ، والبساتين ملتفة الاشجار . يانعة الثمار . والنهر
 الاعظم ينساب بين يديها قد انعطف عليها انعطاف السوار . والحدائق
 تنتظم بحافتيه ، وتغىء ظلالها الوارفة عليه . غنى النضيرة الدوح .
 العذبة الانهار ، الطيبة الهواء المشرقة الاضواء . التي اجتمعت عليها
 الامراء ، وسلم لها الهواء ، وشيد فيها البناء . وبعد لها الحيت الممدود
 والثناء ، انتظم فيها من الوادى والبحر . قلادتان على ذلك النحر .
 قد حلينا ذلك البلد ، وتجلينا كوالد وما ولد . قد مرجها (24) الله بحرين
 يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان . فاذا صاحكتهما الشمس انعكسى

(24) مرج البحرين وامرجها جعلها لا يلتبس احدهما بالآخر ،

الضياء ، وزاد الاحتفال في النور والافياء ، الى حدائق قد أنتظمت انتظام
الاحباب ، وشقائق ترغل في اثواب الشباب ، وتسدل أذيالها بين تلك
القباب .

ورياض كأنما نثرت فـو ق تراها حريرة خضراء

أعين النرجس الجنى نجوم واخضرار الرياض منها سماء

للثرى تحتها ثيات وللما غطيـط وللغصون لقاء

فأول من لقيته من أرباب المحابر ، وركاب أعواد الكراسى والمنابر ،
فاضل الافاضل وكبير الاكابر ، الشيخ العالم المحدث ، أبو عبد الله
محمد بن جعفر رحمه الله ، قصدت لقاءه والاخذ عنه وقدمته وكنت أسمع
من ملفوظ حامده ، ومحفوظ محامده ، ما هو بغية السامع وحايية
للمسامع ، فلما رويت من مكارمه ما رويت ، استصغرت ما سمعت لعظيم
ما رأيت واستقللت ما سمعت أذنای ، لما عاينته عيناى ، وانشدت لنجم
الدين بن مهذب الدين :

كانت محادثة الركبان تخبرنى عن مجدكم وسناكم أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذننى بأحسن مما قد رأى بصرى

فأنزلنى بمنزله الكريم ، وقابلنى بالترفيـع والتكريم ، وأقامت معه
فيه يفيض على ن كرمه بحرا زاخرا ، ويغاوضنى من علمه منهل لا أجد
له آخرا ، ويروينى بمسوغاته الفاضلة ، ويروينى من مسموعاته
الحافلة ، فلا أدري من أى بحريه أعجب ، ولا أيهما أروى وأعذب ،
حتى قلت له :

أبكيت عين الغيث لما فته كرما فثغر البرق منه يضحك

فارتاح وتهل ، وأكثر من الافضل وما قل ، وجرى على عادته في
المكارم والانطباع فانشدته (25) :

ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

سمعت عليه تصانيف كثيرة ، واجازنى وكتب لى بخطه ، وكان
رحمه الله امام هدى وعدالة ، ووحيد معارف وجلالة ، حالى الرواية ،
كامل المعرفة والدراية ، رصين العقل ، اماما فى التحديث (26) والنقل ،
متفاوت الكرم ، بعيد الهمم زكى الشيم ، حسن المفازع ، مليح المبادئ
والمقاطع ، واقعا من النفس أحلى المواقع ، ذكر لى : قال ذكر لى الشيخ
القاضى أبو العباس الرندى قال : كنا جلوسا بحضرة تونس مع
القاضى بها أبى العباس ابن الغماز لارتقاب شهر شوال ، واذا بطفل
صغير وسيم قد نظر ورآه قبلنا فقال القاضى ابن الغماز : كنا جلوسا
مع الشيخ أبى الربيع بن سالم الكلاعى بمدينة بلنسية لارتقاب هلال
شوال فأول من رآه غلام وضىء الوجه من قرابة الشيخ ، فارتجل
الشيخ ساعتئذ :

توارى هلال الافق عن أعين الورى
وغطى بسجف (27) الغيم زهوا محياه

فلما أتى (شقيقه) ليزوره
تبدى له دون الانام فحياه

(25) البيت للمتنبى

(26) اراد بالتحديث الامور العقلية التى هى من حديث الشخص وليست نقلًا عن
كتاب أو سنة .

(27) السجف والسجاف . الستر .

ومما أنشدته فاستغربه وحفظه وكتبه ، ما أنشدنى الشيخ الخطيب
المحدث الحاج الفاضل أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد (28) اجازة
قال أنشدنى ناصر الدين نصير بن أحمد بن على المصري المناوي الحماوى
بحمامة بمصر لنفسه فى فتى اسمه فرج الله على طريق التورية .

أقول لقلبى وقد ذاب فى هوى شادن حاز حسنا غريبا
تصبر اذا كنت فى شدة عسى فرج الله يأتى قريبا

وأنشدنى لبعضهم عند الوداع :

يا راحلا ودموع العين تسبقه هل من سبيل الى لقياك تتفق
ما أنصفتك جفونى وهى دامية ولاوفى لك قلبى وهو محترق

وقد أفادنى من فرائد الفوائد ، ما لا يفيد الا فرائد العلماء الا
ما جد ، كانت مجالستى اياه ببجاية آخر العهد به فانه توفى بعد انفصالى
منها ونزوحى عنها على أحسن ما أجرى الله حاله عليه من حسن السيرة
وخلوص السريرة ، جدد الله عليه من الرحمة والمغفرة ، وجعله من
الدين قال الله فيهم وجوه يومئذ مسفرة ، ثم لقيت بها جملة من الفضلاء
وجلة من العلماء قد ضمهم الولاء فى فلكه :

لهم هم كما شمخت جبال واخلاق كما هشت بطاح (29)
ترى بهم النجوم ، ولا ظلام واوضح النهاو ولا صباح

(28) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد (مصفرا) الفهرى السبتي محدث
ورحالة شهير ، كان اماما فى القراآت وله صوت من مزامير آل داوود (التعريف
لابن خلدون ص 46) .

(29) فى الاصل دشت بطاح

قصدت الرؤية لهم والرواية عنهم ، فنحوا نحوه ، وحذوا حذوه ،
واقتمدوا بفعله ، وان لم يدركوا شأوه :

يا بارقا بأعلى الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن غاتك الشنب(30)

ثم أخذت في حركة الخروج من ذلك القطر الذى هو حاضرة البحر
ونادرة الدهر ، وموطن الفضلاء من أهل العصر الذين طبق ذكركم
تطبيق الغمام ونم كما نمت بأزهارها الكمام ، ولهم مآثر بتعاطى
الركب حمياها ، ويتعاطى نوافح رياها :

وما أرانى بمستوف مناقبهم ولو نظمت لهم زهر النجوم حلا

ففارقت الصبر عند مفارقة تلك المنازع ، وودعت الجلد عند وداعى
لذلك المسجد الجامع . وسرت وقلبي فى تلك التلاع وتلك الاجارع ، وقد
خامرني الفرق ، واستولى على جفنى الارق ، وأولعت بما يولع به
المشفق . وانفقت دمعى وكل أمرىء مما عنده ينفق ، ورحم الله زهيرا
المهلبى ، فعن حالى عبر بقوله :

الى كم جفونى بالدموع قريحة وحتى م قلبى بالتفرق خافق

ففى كل يوم لى حنين مجدد وفى كل أرض لى حبيب مفارق

ومن خلقى أنى ألوف وانه يطول التفاتى للذين أفارق

وأقسم ما فارقت فى الارض موضعا
ويذكر الا والدموع سوابق

(30) البيت من قصيدة أبى الحكم التى مطلعها ، يا مطلباً ليس لى فى غيره أرب .

غيممت خير ميسم (31) وفارقت غير مذمم ، وخرجت منها في
صبيحة يوم الاحد الحادي عشر لرجب الفرد ، من العام المذكور ، على
ضفة الوادي الكبير بين المنازل والقصور :

يا وادي القصر نعم القصر والوادي
من منزل حاضر ان شئت أو بادي
تري قري قره (32) والعيس واقفة
والضرب والنون والملاح والحادي

فعبرت من الوادي الصغير بمثل ما أجرتة جفوني من الدموع .
وخطرت من الرشة (33) على ما أبرزته من الربيع والربوع ، واجتزت على
الربيع الرفيع ، وحررت بالبديع البديع ، وسللت على تلك المربع الرائعة
بالنزهة والتوديع .

ولقد وقفت بها وكف ربيعها
في نسج حلة نورها يتأنق
وسدا خيوط المزن يرسلها الحيا
أبدا واكمام النبات تفتق

والروض تولاه الولي ووسمه الوسمي وجشمته نسيمات الرياح .
وأظلتها رايات الصباح ، وغازلت كواكب الفجر عيون فرجسه الوقاح .
وباكرت الصبا تقبيل ثنايا غوره الوضاح :

من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغوادي من شعور الاقحاح

(31) غيممت ... الخ إشارة الى قول المتنبي: فراقا ومن مارقت غير ميسم .

(32) في الاصل تر قراقره .

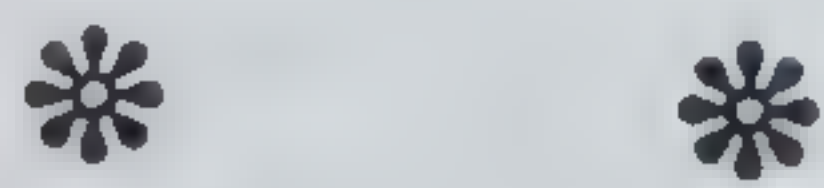
(33) الرشة من رشت العين رشا التت الدمع متفرقا والرش المطر الغليل .

والارض قد أخذت زخرفها وآزینت ، وبينت من حكمة الله سبحانه
ما بينت ورباها قد تعممت بملونات الازهار ، وأراقم المذائب قد انسابت
في مغائر الانهار ، والزمان قد استقبل اذاره (34) ، وخلع عذاره :

فالنور عقد والغصون سواف
والجزع زند والسرى سوار
رقص القضيبي بها وقد شرب الثرى
وشدا الحمام وصفق التيار

ثم جزنا الوادى الكبير وهو بحر عباب ، وفي كل رقعة من أثوابنا
ميزات . وسرنا والموج غمر ، وذلك الماء على الاجساد ثلج وفي أكبادنا
جمر ، والريح ترمى بحاصب ، والودق يأتى من كل جانب ، والدوائع
ترعب ، والمذائب تتعب ، والقطر قد ملأ كل خرق وسبب ، وورد آتیه
من كل آتى (35) ومذهب ، وجاء بكل صبح وغيب . ولم تنزل الامطار
تتوالى وتنزل :

كان السحاب دوين السما نعام تعلق بالارجل



فادمعها سح وسكب وديمة ورش وتوكاف وتنهملان

فسرنا على تلك الحال ، ونحن من طوفان تلك السحاب في أعظم
الاحوال ، وقد أعيا الركوبة (36) ما أدهى حمله من مستنقع الاثقال ، حتى
وصلنا الى (قسطنطينية) والركاب فاشلة ، والنفوس ذاهلة ، والتلاع

(34) فى الاصل اناره .

(35) اتى السيل : سيل ياتى من حيث لا يدري

(36) الركوبه ، والصواب الركوبة وهى ما يركب من الابل .

سائلة ، وجفون السحاب هاملة هائلة ، والشآبيب مستمرة ، وحلاوة العيش ممرة ، والالوحال تمنع من خروج يعيد الابدان معفرة ، والثياب معصفرة ، فحللنا منها فى حصن حصين ، ومكان مكين ، وربوة ذات قرار ومعين ، وقاعدة أمن وتأمين ، وتمهيد وتسكين ، صحيحة الهوى ، بعيدة المهوى وبسبب ذلك تنسب الى الهوى المقصور ، فيقال : قسطنطينة الهوى ، ناهيك من مدينة تحوم حول سحاب القطر ، وتسوم بارتفاعها مراقى الكواكب الزهر ، وتصون بامتناعها من حدثان الدهر ، وتصول ببساط الملك وبسيط الزهر ، وتروق بناعم الروض وهامر النهر ، وتفخر بجمال المحاسن كل الفخر ، ويخترق بطاحها نهر ينساب فيها انسياب الارقم ، ويدور بها دور السوار بالمعصم ، ويغوص ببعض حافاتها فيغيب عن العين ، ثم يبدو بخارجها كأنه سبائك اللجين ، فيسيل على تلك البطاح سيلا ، ويتخللها جداوله فتجر بها ذيلا ، وتعمها شربا ، وتسقى منه بماء واحد ورياء تعود منه بما شئت من صلة وعائد :

نهر يهيم بحسنه من لم يهم
ويجيد فيه الشعر من لم يشعر

ما أصفر وجه الشمس عند غروبها
لا لفرقة حسن ذاك المنظر

بها تتوفر الارباح ، وباعلاها تتبارى الرياح ، وبشتى أقطارها يتلاقى التاجر والفلاح ، ويعتر الساكن منها فى الحصن الاحمى ، والموطن الاسمى ، والمحل الاسنى ، والعيش الاهنى ، ويمسك له فى خزائنه الواسعة من ياقوت القوت ما يفنى الدهر وهو لا يفنى ، تهابه النفس عند موافاته وتأوى الفتخ الكواسر بأدنى حافاته ، وتزل اقدام الصاعدين اليه على أكثر صفاته ، وتعجز أوصاف الواصفين عن بعض صفاته :

يأوى إليه كل أحور ناعب
وتهب فيه كل ريح صرصر

ويكاد من يرقى إليه مرة
من دهره يشكو انقطاع الابهـر (37)

وبادرت فدخلناها في يوم الجمعة السادس عشر لرجب المذكور .
وبادرت الى لقاء الفضلاء ، ومباحثة النبلاء ، اجتلى واجتنى ولا
اجتنب ، وأنا والطرس في ملأ انتقى منهم وانتخب . فمما أنشدنى
المنزل ، رب المنزل الشيخ الامام الراوية الحاج الفاضل المتفضل : أبو
الحسن على بن عبيد الله لبعضهم :

ما رأينا ما سمعنا كزمان نحن فيه
كل من تلقى تراه يشتكى ما تشتكيه

وذكر لى قال كتب بعض السؤال الى بعض أهل هذه المدينة
يستجديه ويستحثه بقوله :

ماذا أقول اذا سئلت وقيل لى
ماذا لقيت من الجواد المفضل

ان قلت : أعطانى ، كذبت ، وان أقل :
يخل الجواد بما له لم يجمـل

فاختر لنفسك ما أقول ، فاننى
لا بد أخبرهم وان لم أسئل

أجابته المسئول بقوله :

أعجلاننا ، هاتاك عاجل برنا

قلنا ، ولو أمهلتنا لم نل

لقد القيل وكن كائك لم تقل ،

ونكون نحن كائننا لم نسأل

والخبرني قال : أبل ابرابي الى داود بن المهذب فقال له : انى
سألتك وأبشع . فقال على رسلك . ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال :
ال ، فان أحسنت حكمتك ، وان لم تحسن قتلناك غانثا يقول :

أبشع بداهة وجود يمينه من الحدث المعشى والبؤس والفقر

أصبحت لا أخشى بداهة نبوة من الحدثان ان شددت به أزرى

أبشع حكم ليمان وسورة يوسف وحكم سليمان وعدل أبى بكر

فقال له : بل قد حكمتك ، فان شئت على قدرنا وان شئت على
قدرك . قال : (بل على قدرى) فأعدلاه خمسين ألفا . فقال له جلساؤه :
هنا أملاست على نجرة الأمير لا فقال لهم : لم يكن فى ماله ما يفى بقدره ،
فقال له داود : أنت فى هذه العمر منك فى شعرك . وأمر له بمثل ما
أعدلاه .

والله اعلم أيضا فائدة نظيدت فى غير هذا . وأجازنى جميع مروياته ،
أهم : روضة الأديب الناضرة الغنية ، وصحيفة الرواية النقية المبيضة ،
ومحاول المكارم الملقنة والمحامد المرفضة . وجامع المحاسن التى
بها أدمج الصلابة والمنفعة ، ألنا لمن وأخاه : السنى فى كل ما يتوخاه ،
المألف على ما يعتمد عقابه . العارف بما رواه ورواه ، الحفى بمن

آتاه المنيب الى أواه ، الخاشع لمولاه ، أبو الحسن بن عبيد الله ، تغمده
الله برحمته ، وجعل الجنة نزله ومثواه ، برحمته ، ولم أزل أوالى أهل
الولا ، واختص بذوى السؤدد والملا ، حتى جاء الفراق ، ومارق ولا
راق ، فأنشدتهم وقد قوى العزم ، لابی المغيرة بن حزم :

واجد بالذليل من برحاء الشو ق وجدان غيره بالحبيب
ان قابى لكم لكالكبد الحرى وقابى لغيركم كالقلوب

وخرجت منها ضحوة يوم الاحد ثامن عشر من رجب المذكور في
جمع وافر ، ذى خف وحافر ، سرنا نقتفى البيداء ، ونغتدى فى كل
ثنية جرداء ، قد دأبنا على الترحال ، وركبنا متون الوحال ، سمونا على
الماء كسمو حبابه حالا على حال ، الى أن وافينا بلد العناب ، (وتسمى
أيضا بونة) وصلناها أيضا بيمن الله على أفضل الاحوال ، ودائرة
البيضاء اليمنى مركز الزوال ، فدخلناها فى يوم الجمعة الثالث والعشرين
لرجب المذكور ، فرأيت مدينة مكينة ، وقلعة حصينة شهيرة الامتاع ،
بائنة الارتفاع ، ومعدومة الشبيه والنظير فى القلاع ، تنزهت حصانة أن
ترام أو تستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الارض مسنديرة ، سامية
الارجاء ، واسعة الفناء ، موضوعة على نسبة حسنة فى الاعتدال
والاستواء ، والمدينة العجيبة كالعروس فى ناضيتها قد رفلت فى درع
واديتها ، وامتنعت بحسامه المسلول من غير الايام وعواديتها ، فأخذت
به من المطالب معتصما ، وتجلت فى سواره معصما فبكل مسقط نظرة
ما اشتهت الانفس من نعيم ونصرة ، نهر هتان ، يحفه بستان ، ومرآي
لخواطر الادباء فتان :

نهر يسيل كما يذوب نضار وتدور فى أيدي السقاة عقار
فاذا استقام غصارم دامى الخطا واذا انحنى جزع به فسوار
مغرورق التيار ، ملتطم كما خفتت بظهر مهب ريح نار

ناحمر وأخضر النبات بشطه فكان ذا خد وذاك عذار

لها أرض تقتنص النظر بتدريج زهارها ، وأضداد انهارها ، وتتوأم
الراكض بها من هفوة غبارها ، وسبوة عثارها ، كأنما نسج أديمها
منسج ، واستوت أطرافها وأوساطها فجوها سبسج ، ومتى تكملت
الفصول أعاد الله ثبابها ، فانشأها خلقا جديدا ، وجعل عودها مثمرا
وظلها ظليلا مديدا ، فبالله اتساع ضواهرها وبواديها ، والحسن البادي
ببحرها وبواديها ، وارتفاع تلك القلعة والحصن ، وما أوتى من
النعمة والحسن ، قد عمرت نجاهه وغيطانه ، واستقر بين خصب
الوادي ، ورحب النادى ثواؤه وأستيطانه صعدت إليه غرايت حصنا
مستقلا ، وكثيرا من الحسن لا مقل ، بل معقل الحسن ومستقره ،
ومجاز الانس وممره ، قلعة قد عقد الجبل حبوتها ، وازلق العراب أن
تطأ ذورتها ، وعسم سوار الوادي المنوى معصمها ، وحمت غرر
دهمائها أدهمها ، فالخيل تصعد منها انجما في غلك ، بين طالع كطالعها
أو غارب كغاربها ، والارجل منها على كرة لا تستقر بأخمص راجلها ولا
بحافر غرس راكلها وكأنها قد اعتزت لولا ما جعل الله الارض ذلولا ،
وأمر أهلها أن يمشوا في مناكبها ، فمشيت منها في مركب سام ، وألف
بالنجوم مسام ، ثم خرجت من المدينة في صبيحة يوم الاحد الخامس
والعشرين لرجب المذكور سالكا سبيل جبل الحفاء ، ومالكا من الرجاء
ما برح به الخفاء ، من جبل يترع الواصل إليه سن الندم ، ولا يكاد يشرب
الماء الا من قليب دم ، قد أفرط في الجفا ، واشتهر بالحفا ، وجمع
بين غلظ الشعراء والارض الوعراء ، فسلطنا منه في عقاب كفى بسلوكها
للمجرمين من عقاب ، نكتف الفرع ونلتحف الجزع ، الى أن جزممتنا
عوامله بالحذف ، ومنعتها علاته من الصرف ، وأسفر لنا وجهه العبوس
ومحياه الذى فى مشاهدته البوس ، عن قطعة من العرب كقطع الليل ،
حملت علينا حمل السيل ، فكان زوال كل ما ملكناه أسرع من لحسة

الكلب أنفه ، وناهيك عن صبيحة ذلك اليوم فجاءة حال ، وسرعة انتقال
« وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

لقونا فضموا جانبينا بصادق
من الطعن مثل النار في الحطب اليبس

وانقلببت اعدى من جام ونجوت برأس طمرة (39) ولجام ، منهزما
مكئما ، يثعب جرحى دما ، وصحابى قد منحوا الاكتاف والرقاب ،
ودماؤهم تسيل على الاعتاب ،

وتركتهم تعس الرماح ظهورهم من بين مقتول وآخر مسند

ولم نزل نخوض أحشاء كل واد كالثعبان ، نتلقف نفس الجرى
فكيف بالجبان ، فكأن تلك الاودية سيوف لقتل الانس مسالوة ، ولولا
زرقة ألوانها لقلت دماء مطالوة ، خاتم نظامها ومسك ختامها ، ومنتهى
كمالها وتمامها ، وآخر عذابها وانتقامها يسمى (أبو جردة) قيل لانه
يجرد الايمان من قلب شاربه ، كفأك هذا من أوصافه ومناقبه ، وهو
على اثنى عشر ميلا من الحضرة ، لم تنبت قط حوله عشبة نضرة ،
ترابه قد اسود ، وماؤه قد أظلم ، ويقال انه من أودية جهنم ، تعذر
علينا جوازه فى القارب فما توسطته راكبا الا والمركب قد غمرته المياه
وحلمتنى واياه ، وكنا من المغرقين لولا أن رحم الله ، ثم خرجت سابحا ،
وقد ذهب الوادي بأكثر القوم ، بسبب ما أنعم الله به على من معرفة
النسباجة والعموم ، وحصلت على ساحل النجاة ولا شىء الا مبلولا ،
ولا شد الا محالولا أو محمولاً .

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

(38) الجام الفرس الذى لم يركب مدة . وفى الاصل (اعرى من جام)

(36) فى الاصل فأرفعا الركوبة وهى ما يركب من الابل .

فوصلت الى (حضرة تونس المحروسة) فى ليلة يوم السبت أول
من شعبان المكرم من العام المذكور بعد اللتيا والتى ، وانضاء جسمى
ومطيتى ، واخلاق البيتين الذين لم أخلها عن فكرى ورويتى .

يقولون تونس مصر عظيم وأرجاؤها جنة زاهرة
نعم هى مصر لا ربابها وللواردين هى القاهرة

فأرحت الراحلة من الرحل . واستبشرت بالخصب بعد المحل ،
ولا بد دون الشهد من أبر النحل ، فبتنا بها جيران دولاب يهدل ، وأغصان
تثنى وتعتدل ، وستر الظلام ينسدل ، وتلك الحضرة تتلفع بثمارها
تلفع الكاعب بخضرة خمارها ، قد سلت على بساط الروض من المذانب
حساما ، وضحكت ثغور شرفاتها ابتساما ، والدولاب بन्दب من الزهر
الذاوى هديلا ، ويتوسل للروض بدموعه فيخلف له بديلا ، فبت أجاب
أنين ذلك الدولاب ، وأجاري بدمعى دمعته فى الانكساب ، وأنشد فيه
لبعض الاعراب :

باتت تحن وما بها وجدى واحن من طرب الى نجدى
فدموعها تحيا الرياض بها ودموع عينى أحرقت خدى

ولما تفرى عن وجنة الافق عذار الغيب ، وتتوج كسرى المشرق
بالتاج المذهب ، طفت اتمشى فى الاماكن المكيبة ، واتخلل سكك
المدينة واتعجب من محاسنها المستبينة ، ووضوح قدمها ورسوخ قدمها
وبهجتها وانفراجها ، وانفساح رباها وأبراجها ، ورونق رياضها ، وتذلل
الهموم لفرجتها وارتياضها ، واتساع جنباتها وافنائها ، وكما لها فى
البلاد البحرية وغنائها ، وايناع حدائقها المحدقات ، واحرام حجيج
الانس فى ذلك الميقات ، فدخلت منها جنة حفت من طرقها بالمكاره ،
وعقيلة عقلت قلب الطائع والكاره ، فهى الدمية الغراء ، والقبة اللعساء ،

والخريدة العيناء ، تزهى بها المحافل ، ويحتقبها الطالع والآفل والله
در القائل :

لتونس تؤنس من جاءها وتودعه لوعة حيث سار
فيغذو ولوحل أرض العراق يحن اليها حنين الحوار
ويأمل عودا ويشتاقه اشتياق الفرزدق عود النوار

فالتاح بتونس الانس ، وانشرحت النفس ، وصلت الحال
واللبس ، ووجدتها كما قال أبو الحسن المرى (40) :

تونس بالغرب خير دار تؤنس من حنّها غريبا
حالت عقد البعاد لما حالت من أهلها قريبا

وظللت القى أكابر الاولياء ، وآخذ عن العلماء الانتقياء ، فأول من
لقيته بها من الاولياء والاغراد ، والعلماء الزهاد ، السيخ العالم الولي
له تعالى ، أبو الحسن على ، المشتهر بالمنتصر ، أفاض الله علينا من
بركاته . هو صدر من صدور أئمة الدين ، وكبير من كبراء الاولياء
المهتدين ، وقدوة في أفراد العلماء الزاهدين ، حامل لواء المعارف ، ومحرز
التألد منها والطارف ، وحافظ للكتاب والسنة ، ومحافظ على اتباع
الشريعة والملة ، قائم بأعباء صلاح الامة ، باسط للضعفاء وذوى
الحاجات جناح الرأفة والرحمة ، كثير الصيام والقيام ، دائم الخلوات
ومستجاب الدعوات وقورا صموتا ، مهابا معظما :

قابلته فملت منه مهابه شغلت على فصاحتى وبيانى
ولثمت قرب فنائه فكانما قبلت من طرب خدود غوانى

(40) فى بعض النسخ أبو اسحاق المرىلى .

رحل الى المشرق قديما ووعدى الكثير ، وشأنه كبير ، وله من المكاشفات واجابة الدعوات ما هو أشهر من أن يذكر ، حلت بحالنه ، وانضويت الى جلاله ، وخيمت بسوارف ظلاله ، فالتقت فيه ركننا عظيمنا ومأوى كريمنا وابابرا رحيمنا واماما أوسعنى افادة ونصحا وتعليما ، وسبب ذلك أن أخى أبا بكر محمدا لما خرج الى وجهته الحجازية ، وعلم الله تعالى منه صلاح النية وخلوص الطوية ، وانتهى الى الحضرة التونسية ، جملة عوارف الالطاف الخفية . وعطفته عواطف القدرة الربانية ، الى لقاء شيخنا هذا والتبرك به ، وطلب الدعاء منه فتفرس رضى الله عنه فيه مخايل الذجاجة ولاحت له عليه دلائل الصدق والانابة ، غضمه الى جانبه الشامخ القواعد ، وكفله كفول الوالدة والوالد ، حتى جعل تحت حرمة ، واختص بصحبته ، وظهر فيه صدق فراسته وبركة دعوته ، ثم ارتحل عنه مشرقا بعد تراخى المدة ، وتوالى الايام والاشهر الممتدة ، قرير العين ، ملى اليدين ، فائزا بحظوة الدارين وحين وردت موارد ، وحضرت معاهده ، وسألت عن مطلع شمس ، مسير يومه وأمسسه ، فأخبرت أن الذى نعينه بالسؤال — قد بانست برحيله الرحال ، سقطت على التراب معفرا ، وأغضت غائشدت حين سـرى :

ماذا وقوفك والركاب تساق أين الجوى والمدمع المهرق
الغير هذا اليوم يخبأ أو ترى بخلت عليك بمائها الاماق
حتى لقد رحلوا بقلبك والكرى ان النواظر لا الدموع تراق

ثم نزلت منازلها ، فتمتعت بها دهورا ، وأقامت ألامها ليالى وأياما وشهورا ، وجعل الله لى بصحبة هذا الشيخ انتفاعا وظهورا ، ولهذا الرجل الصيت البعيد ، والباع المديد ، زهدا وانقباضا ، ونصيحة لعباد الله تعالى وحديبا على ضعفائهم ، ووضع له القبول فى الارض فلم يختلف

اثنان في فضله ، ولى منه حظ لا أعده به حظا عسى الله أن ينفع به
(وثانيه) في الفضل والولاية ، والعلم المتسع والدراية ، الشيخ العالم
خطيب الجامع الاعظم ، والرائق بقدّم الصدق وذروة مناره ، المعظم ،
أبو عبد الله بن عبد الستار ، نفع الله تعالى به امام من ائمة الفروع
والتفسير ، وسراج يقتدى به في ظلمات الدياجير ، انتهى من الفضل
الى أقصى أمدّه ، وكرع في بحرّه لا في تمده (41) وحل منزلة مقنعة من
علم اللسان ، ونظرت به عين التعين كالانسان ، اضاء بأنوار معارفه البلاد ،
وترادف على محله العلى العلمى القصاد ، وعلا سنه وسناه ، وبلغ من
وعى المعارف الدينية والاحاديث الكريمة النبوية قصده ومناه ، له جلالة
السبق ، ومهابة الولاية والصدق ، ومكانة القبول عند الخالق الخلق ، ذو
في الدنيا وأغراض عن زهرتها ، وعزوف عن طلابها ، وكان يدرس العلوم
في مدرسة الكتبيين التي استوطنها ، فسمعت عليه كثيرا من التفسير
والحديث والفروع والاصول وغير ذلك ، ولازمته وانتفعت به ، وشاهدت
له كرامات ومقامات تصدر الا من مثله أو من الولي الذي من قبله .

رحل الى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة
وأزكى السلام ، فغاز من ذلك بغاية سوله ، ونهاية مطلبه ومأموله .
وتواتر عنه أنه لما عاد الى وطنه ، أعاد جميع صلواته التي كان صلاحها
في سفره ، اذ لم ترتضها عبادته النزيهة ومعالي سيره ، وها هو قد
طعن في السنين ، ونيف على التسعين . فما ضعفت له قط موارد العبادة .
ولا تعطلت منه تلك المدرسة عن الدول المعتادة ومما تقلت منها : أن
الواقدي رفع الى المامون قصة يشكى فيها غلبة الدين وقلة الصبر ،
فوقع عليها ، أنت رجل فيك خلطان ، السخاء والحياء ، غاما السخاء
فهو الذي أطلق ما في يدك ، واما الحياء فهو الذي بلغ بك ما أنت عليه ،
وقد أجزنا ذلك بمائتي ألف درهم ، فان كنا أصبنا أرادتك غآزدد غسى

(41) في الاصل ثمرة والصواب تمده اي ، في مائه القليل .

بسط يديك وأن كنا لم نصبها فجنايتك على نفسك ؛ فأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد ان رسول الله عليه وسلم قال للزبير : ان مفاتيح الارزاق بازاء العرش ينزل الله للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم فمن كثر كثر له ، ومن قل قل له ، قال الواقدي : وكنت أنسيت هذا الحديث فكانت مذاكرته أياي به أعجب الى من صلته . وأعزهما بامام الدنيا ومتبويء الذرة العليا ، وسابق الغاية القصيا ، والشيخ العالم ، قدوة الائمة وواحد اسانيد الامة أبو عبد الله بن برال (42) أبقي الله تعالى بركته ، رجل أتاه الله تعالى كتابه وفتح عليه فيه أبوابه ، ووفقه في أدائه الى الصواب فأصابه ، فاجتمع الناس اليه وتتأغى المجودون من أهل القرآن في التلقف منه ، وانثالوا اليه عمن سواه فقامت له سوق ، وأجلى خبره عن تقديم أمثل الخبرة ، واطباقهم على تفضيله ، وكان هذا الشيخ قد أوتي من حسن اللفظ بالقرآن ما لم يوته أحد ممن بقى على الارض في هذا الوقت باجماع ، حضرت قيامه في ليالى رمضان بالاشغاع وانتدب الناس اسماعه من النواحي والبقاع فما قرع سمعى ولا وقع في أذن قلبى ، أحسن منه صوتا ولا أحلى تلاوة ، ولا أطيّب ايرادا ، ولا أعذب مساقا ، ولا أعجب احكاما ، ولا أغرب ترتيبا ، ولا أجمل جملة وتفصيلا . ولقد كنت في حين قراءته على قساوة قلبى ، وغباوة لبي أتغاشى وأتلاشى ويضج جامع تونس بأهله ، ويغص جمعه ، فبين باك وداع وخاشع وساقط من القيام ، وعادم وجوده في ذلك المقام ، كلهم يفعل فيه صدقه ، ويسكنهم نطقه ، ويسكرهم ذوقه ، قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات

(42) ابن برال : بضم الباء الموحدة ، وفتح الراء المشددة ، كما قيده ابن خلدون ومعاصره محمد بن ميمون البلوى الاندلسى بخطه ، واصل ابن برال من بلنسية بالاندلس ، كان اماما في القراءات ، اخذ عنه ابن خلدون (علم القراءات) انظر التعريف لابن خلدون ص 17 .

السبع جمعا (43) في ختمة واحدة والادغام الكبير في رواية أبي عمرو بن العلاء وترك الهمز من طريق أهل الرقة ، بطريق الامام أبي عمرو الداني (44) رحمه الله تعالى وهو آخر من قرأت عليه السبع من الائمة المقرئين والاساتذة المبرزين عددهم اثنا عشر شيخا ما منهم الا من قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات السبع افرادا وجمعا أو أفرادا ، أولهم الاب المرحوم ناجلي ، الكفيل بتربيته في نشأته وناحلي أول موهبة من تدريبيه في بدأته والدي عيسى رضى الله عنه قاضى بلدة قنورية وخطيبها ووالى كافة أمورها مدة من أربعين سنة قرأت عليه بالقراءات السبع على والده جدى الاستاذ الخطيب الحاج الزاهد أبى جعفر أحمد ، وقرأ والده جدى بالقراءات السبع على جماعة منهم والده الخطيب الصالح أبو اسحاق ابراهيم وقرأ والده جد والدي بالقراءات السبع كذلك على جماعة منهم والده الفقيه أبو جعفر أحمد بن على بن أبى خالد رحمة الله على جميعهم ، وهكذا تتصل لى هذه السلسلة بالقراءة السبع الى سابع جد ولله الحمد ، وحدثنى شيخى هذا أنه قرأ بالقراءات السبع افرادا مع الادغام الكبير في رواية أبى عمرو بن العلاء وترك الهمز من طريق أهل الرقة ثم جمع السبع في ختمة كاملة ، وقرأ قراءة أبى محمد

(43) الافراد والجمع في القراءات : الافراد أن يتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لاحد القراء السبعة أو العشرة المشهورين ، والجمع أن يجمع القارىء عند قراءة القرآن كله أو جزء منه بين روايتين فأكثر من روايات السبع أو العشر المتواترة ، ويسمى بالجمع الكبير أن استوفى القارىء سبع قراءات فأكثر والا سموه بالجمع الصغير .. وللقراء في صفة الجمع وحكمه من اباحه وتحريم خلاف معروف ،

(44) فهرست الحافظ ابن عمر عثمان بن سعيد المغربى الدانى رواها أبو بكر بن خير المتوفى سنة 575 هـ موافق 1179 م ، عن ابن يحيى على بن محمد بن لب ، عن أبى عبد الله محمد بن فرج المغربى ، انظر فهرست ابن خيصر ص 428 بتحقيق الشيخ فرنشكة قدارة (مكتبة المتنبي بغداد والمكتبة البخارية بيروت)

يعقوب الحضرمي (45) على الشيخ الفقيه المقرئ الصالح الرواية
أبي العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي الفتح الانصاري المشتهر
بالبطرني (46) وحديثه أنه قرأ بالسبع القراءات على الشيخ الفقيه
المقرئ الخطيب القاضي أبي محمد عبد الله بن يوسف بن أبي بكر
بن عبد الأعلى المغافري السبرتي بقراءة نافع أفراداً وجمعاً وباقي
السبع ختمة جمعاً لكل امام ثم جمع عليه السبع في ختمة كاملة مع
الادغام الكبير ، قال قرأت على خاتمة المحققين بل المقرئين بشرق
الاندلس أبي جعفر أحمد بن يحيى بن عون الله الحصار بقراءة نافع
أفراداً وجمعاً وجمعت عليه السبع في ختمة كاملة كما قرأت بالقراءات
السبع بالافراد والجمع مع الادغام الكبير فيهما على الشيخ الفقيه الزاهد
أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البنسي ، قال قرأت جميع
ذلك على الشيخ الفقيه المقرئ أبي داود سليمان بن نجاح الاموي ،
قال ، قرأت جميع ذلك على الامام الحافظ أبي عمرو وعثمان بن سعيد
بن عثمان الداني بسنده في كتاب التيسير ، وقد قرأت جميعه عليه وقرأت
عليه جميع القصيدة اللامية المسماة بحرر الاماني التي من نظم الامام
أبي القاسم بن فيرة (47) الشاطبي رحمه الله قراءة تثبيت وتبيين

- (45) هو يعقوب بن اسحاق بن زيد بن عبد الله الحضرمي البصري (117 — 205) احد القراء العشرة ، وله قراءة — مشهورة عنه ، وهي احدى القراءات العشر ، وقد رويت من طريقين (الاولى) رواية محمد بن المتوكل المعروف برويس (والثانية) عن روح بن عبد المؤمن الهذلي (طبقات القراء) .
- (46) البطرني : أبو العباس أحمد بن محمد البطرني ، ضبطه ابن خلدون وابسن بطرنة من اقليم بلنسية بشرق الاندلس انظر البيان المغرب 3/المغرب 252/3
- (47) الشاطبي : أبو القاسم الشاطبي ويكنى ابا محمد القاسم بن فيره (بكسر الفاء بعدها ياء آخر الحروف ساكنة مشددة مضمونة بعدها هاء) بن خلف بن أحمد الرعيني ، رحل المشرق ، ودخل القاهرة ، نظم قصيدته اللامية المعروفة بالشاطبية ، وبحرز الاماني والرائية التي تعرف بالعقيلة ، انظر طبقات القراء ج 2 / 20 — وطبقات ابن السبكي 297/4 .

لمعانيها واعراب لمشكلها ، وايضاح لاسرارها ، واستخراج لغوامضها
وجميع عقيلة اتراب القصائد من نظم الشاطبي أيضا وحدثني بجميع
ذلك عن شيخه أبي العباس البطرني المذكور ، ولشيخى هذا أسانيد
غيرها ، وسماع وتبذل ، وانقطاع ومواصلة للقرآن واعتناء بذلك الشأن
فجمع بين علو الاسناد ، والسلسلة الذهبية وتوسع كثيرا في اللغة العربية .
وتتبع أنواعا من هذه الطريقة الادبية يعمر بها مجالسه انشدني لبعض
الشعراء :

انى غريب بأرض لا كرام بها كغربة الشعرة السوداء فى الثمط
لا أطلق العين فى شىء أسرب به ولا أنال الرضى الا على سخط

وانشدنى لبعضهم :

ان الليالى للانام مناهل تطوى وتنتشر بينها الاعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

وانشدنى لبعضهم :

تمتع بالرقاد على الشمال فسوف يطول نومك باليمين
ومتع من حبك باجتماع فأنت من الفراق على يقين

وكان رضى الله عنه رقيق الاشارات ، دليع العبارات ، حلو
الحكايات ، عالى الروايات ، تبهجك طلاقته ويرضيك بشره مع مروءة
ظاهرة ، وتمام خلقه ، وهدى وسمت ووقار لاكفاء له ، الى حسن البيان
وعذوبة اللسان .

ملح كالرياض غازلت الشمس س رباهـا وافتر عنها الربيع
فهى للعين منظر مؤلف الحس من وفى النفس سئودد مجموع

ذكر لى قال دخل بعض الملوک على جارية له ، وقد دهن شعره
بدهن بيضه به ، فقال يخاطبها :

كل البياض مليح لا شىء فى الحسن بعده
فأجابته :

أهواه من كل شىء الا من الشيب وحده

فاستحسن جوابها ، وأحسن ثوابها ، وأخبرنى ، قال دخل بعض
الشعراء على بعض الكبراء مادحا له بشعر قاله فيه فوجد عنده حجاما
قد قص من شعره وأجزل له فى العطاء ولم يعط الشاعر فقال مرتجلا :

أرى من جاء بالموسى مواسى وراحة ذى القريض تروح صفرا
فهذا منجح ان قص شعرا وهذا مخفق ان نص شعرا

وأخبرنى قال : مدح أبو الحسن بن الفضل أحد الوزراء بمراكش
وكان أقرع فلم يشبهه ، فقال :

أهديت مدحى للوزير الذى دعا به المجد فلم يسمع
فحامل الشعر اليه كمن يهدى به مشطا الى أقرع

وأخبرنى قال : اهدى سالم بن قاسم من بنى مينا (48) الحسين
لصلاح الدين ابن أيوب مروحة بيضاء وفيها مكتوب بالاحمر بيتين وهما
هذه :

أنا من نخلة تجاور قبراً شملتني سعادة القبر حتى
ساد من غيه سائر الخلق طراً صرت فى راحة ابن أيوب أقرأ

(48) فى بعض النسخ من بنى مينا

وقد كان الرسول بها قال لصالح الدين ، خذ هذه فما أهدى لك ولا لا بيك قط مثلها (49) ، فغضت السلطان من هذا الكلام فقال الرسول لا تعجل وانظر ما فيها من الكلام ، فلما نظرها وقرأ البيتين قبلهما ووضعهما على رأسه وقال : صدق الشريف ما وصلتني قط هدية مثل هذه . وقرأت عليه من كتب القراءات والحديث وغيرها تصانيف كثيرة ، استوفيتها بأسانيدھا في برنامج رواياتي ، وأجازني اجازة تامة ، مطلقة عامة ، وكتب لي بخطه ، ومولده عام ثمانية وستين وستمائة .

وأشفعهم بأوحد الزمان ، وفريد البيان والتبيان ، العديم النظراء والاقتران ، والمرتقى درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان ، الشيخ العالم المشاور أبو عبد الله ابن الحباب ، حبر ، بحر ، حافظ لاغظ ، ذو أبهة وبهاء وحبوة (50) مملوءة من علم ، خالية من ازدهاء ، برع بأحسن الصورة ، في مطالع الحسنی الى أنھی كمال وأكمل انتهاء ، برع بأحسن الصورة ، وفرع من الجمال أرفع السورة فبسق بسوق الغصن الناضر وأضحت حدائق محاسنه نزهة الاحداق والنواظر ، انفرد بغنى المعقولات والمقولات ، واتحد في علمي اللسان والبيان غما يجارى ، في شيء من ذلك ولا يبارى . وهو فيما عدا ذلك من الفنون يفوق القدور ويفيخ على مزاحمة البحور ، ويحلى من غوائده الطلا والنحور ، وله تأليف وتصانيف فيها للعلوم صنوف ، وهى في الاذان شنوف ، ولها ظهور على غيرها وشفوف ، وقلائد قصائد تتجلى بجمالها الخرائد ، وتحسد حسنھا النيرات الفراقد ونشربل نور ، أو أنجم زهر ، أو لجين أو تبر ، أو يواقيت أو در . أو حصباء بللھا نھر أو شذور رصعت فشطر وشطر :

نظم ونثر في رياض بلاغة سجد الربيع لبردها الرغراف
لم أدر من عجب بها وتعجب أنظام در أو نظام قواف

149 في فتح المتعال ان كلمة خذ هذه فما اهدى الخ كان مكربا في احدى وجبى المروحة وفي الوجه الاخر البيتان المذكوران

50 حبوة وهى ما يحتبى به اي يشمل به من ثوب .

كان زمن شبابه ، وتعلقه بطلب العلم واستفتاح بابه ، رئيس
 انشاء الدولة الحفصية ، والمستقل بحمل الراية التونسية ، فملا الدلو
 ومد الرشاء ، وأنال الانشاء ما شاء ، وأزال عن جفون الطريقة الادبية
 العماية والعشاء ، فلما أحرز في ذلك الفن قصب السبق وحازد ، وقطع
 فيه صدر العمر واستقبل اعجازد ، عطف الى تعليم العلوم ، وعكف على
 تدريس المعدوم منها والمعلوم ، فأفاد الافذاذ ، والأفراد وامتع
 الجهابذة والنقاد ، وأسمع الاسماع ما اشتهى كل منها وأراد ، الا أنه
 كثير الانس مؤثر لراحة النفس ، قلما ينضبط لطالب ، ولا يغتبط الا بذي
 فهم ثاقب ، وسهم في العلوم مسدد صائب ، فمجالسه مجالس علم
 وائناس ، وتقريب لاناس ، وتبعيد لاناس ، وكنت بحمد الله من
 الفريق الاول لا بالمشكوك فيه ولا بالمتأول ، فسمعت وأخذت وأجازني
 الاجازة التامة ، وكتب لي بخطه أنشدني لبعض المشاركة يعرض بآخر
 ينعت بسراج الدين ، وكانت قبيلته بجيلة فضمنها البيتين وهما :

لنا في البيت من خرف سراج عراقى فتيلته نحيلة
 يخسئ لمن تعاهده بدهن فلا كان السراج ولا الفتيلة

وأنشدني لسراج الدين الآمدى :

بنى افدى بالكتاب العزيز وراح اليه سريعا وراجا
 فما قال لى أف مذكان لى لكونى أباه وكونى سراجا

ويتلوه البحر المتلاطم الامواج ، والمنهل الذى تروى بعذبه بقاع
 الوهاد وتلاع الفجاج ، والمجموع الذى نزلت بساحته مفرقات العلوم
 نزول الماء الثجاج قاضى القضاة وامام الفقهاء والنحاة ورب العقل الوافر
 والحصاة ، الشيخ العالم العلامة قطب الشورى وعماد الفتيا ، قدوة
 علماء الاسلام ، أبو عبد الله بن عبد السلام رضى الله عنه ، رجل نشأ

في العفة والصيانة وتبوا ذروة الطهارة والديانة ، وصعد من هضبة (51) التقى على أعلى المكانة ، فلم تعرف له قط صبوة ولا حلت له على غير الطاعة حبة ، على أن المسهب في الاوصاف الكريمة ، والمشييد بالمناقب المشيدة ، سكيت مع سبقه ومسيء في احسانه ، وتناصر عن ادراكه ، وهيئات يضرب في حديد بارد ، ويطلب ما ليس له بواجب ، من رام بيده لمس الشمس ، وتعاطى برجله لحاق البرق ، صرف همته العلية ، وفكرته الوغادة الزكية ، الى انتحال غنون العلوم ، واقتتاح المعكوم منها والمختوم ، ملك أعنتها ، وقاد أزمته ، وأوضح أشكالها ، ووسم اغفالها ، وحل اقفالها وتلقى بالسهل والرجب آنثيالها عليه واقتبالها ، فهو اليوم وحيد الاوان ، وعلامة الزمان ، والمشار اليه بالبنان والبيان ما قرن به فاضل من العلماء الارحجه ، ولا القى اليه مبهم من العلم الا كشفه وأوضحه ، عدلا في أحكامه ، جزلا في اقدامه مراقبا لله في فعله وكلامه ، له صادقات عزائم ، لا تأخذه معها في الله لومة لائم ، الى نزاهة عن الدنيا ، وهمة نيطت بالثريا ، ولهجة فيها تترقق ماء البشر فأحييا وحييا .

يقابلني له خلق وضيء يصدق بشره خلق رضى

حضرت مغتنما وملتزما بتدريسه الذي هو ضالة الناشئ الناشد ، وبغية القاصي والقاصد وحديقة الرأي الرائد ، وحقيقة الفوائد ، فسمعت وانتفعت وأخذت عنه شرحه لكتاب ابن الحاجب الفرعى فقرات وكتبت وأجازنى في غير ما مرة ، وكتب لى بخطه ومولده سنة ست وسبعين وستمائة (52) وسمعت منه بمنزله من تونس جميع موطا الامام مالك بن أنس رضى الله عنه في مجالس كثيرة آخرها ضحوة يوم الجمعة الثالث عشر لصفر من عام أربعين وسبعمائة وأذن لى في روايته

51 في بعض النسخ (حقيقة) بدلا من هضبة .

52 في بعض النسخ وسبعين وسبعمائة وهو خطأ .

عنه وحدثني أنه قرأه أجمع بلفظه على الاستاذ المقرئ أبي العباس
المشتهر بالبطنى المتقدم الذكر بسنده فيه وقرأه كذلك أيضا على الشيخ
المحدث الراوية المعمر أبي محمد عبد الله بن هارون الطائي ، وحدثه
به عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقی قراءة
لبعضه وسماعا لسائرهم بمدينة قرطبة أعادها الله دار اسلام عن أبي
عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي قراءة عليه عن أبي عبد الله محمد
بن فرج الفقيه مولى الطلاع سماعا عليه قال سمعته على القاضي أبي
الوليد يونس بن عبد الله ابن مغيث عن أبي عيسى يحيى بن عبد الله
ابن يحيى بن يحيى عن عم أبيه عبيد الله بن يحيى بن يحيى عن مالك
بن انس رضى الله عنه ورحمهم وهذا السند لا يوجد مثله بالمغرب علوا
واتصالا بالقراءة والسماع ، وقرأته أيضا عام ثلاثين وسبعمائة على
والدى واخبرني أنه قرأ منه جميع كتاب الصلاة عرضا عن ظهر قلب
على والده جدى عن جماعة جلة منهم والده الخطيب أبو اسحاق وغيره
وقرأته بالمسجد من مدينة مالقة المحروسة عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة
على الشيخ الخطيب الزاهد الولي الله تعالى أبي عبد الله محمد بن أحمد
الهاشمي الطنجالي بسنده فيه وقد قرأته وسمعته بالاندلس وبغرب
العدوة على غير من ذكرته رضى الله عن جميعهم . وقد آن أن يبرز
فارس ميدان التسجيل المتميز في عناق تلك الحلبة بالغة والتسجيل (53)
المحرز فضل السبق الموجب للتعظيم والتبجيل الشيخ العالم المتصوف
أبو عبد الله بن عمر ارضاه الله تعالى ، علم الجماعة ، وقلم التأييد
والاستطاعة ، ورب الفكرة المطاعة ، ومن له في النظم والنثر القلم
الاعلى ، والقدم الاولى ، واللفظ الاجلى ، والقدح المعلى ، والبدايع التى
تستفاد وتستعاد وتستحلى ، وله في الطريقة الصوفية مقام عال ،
واشتات معال ، وخاطر يجول بين واسع مجال فيبرز نفائس لئال وعرائس

جمال ويأتى بسحر حلال ، وبحر زلال بين بديهة وارتجال ، ووخذ وارقال
وانحفاز واستعجال .

مكارم مثل الحسا كثرة وخاطر يغرف من كل بحر

رحل الى المغرب والمشرق فعلت روايته وعظمت آياته ، وكثرت
مبالاته بالعلم وعنايته ، فبدأ فى سماء المعالى بل المعارف شمسا تتجلى
بزهر هدايته مشكلاتها ، ولاح فى جيد العوارف سلكا تتحلى بذر كفايته
لباتها ، وأقام مشتغلا بالعلم سنين ، وانعقد النكاح بينه وبين عقائل
الاداب بالرفاء والبنين ، فيلد من مخلدات فكره خرائد تنهادها الملوك
وفرائد تزدان بها التيجان والسلوك ، تحلت به الدولة الاندلسية كما
تجلت عنه الخصرة التونسية فهو الآن متولى ديوان انشائها ومدلى
أشطان رشائها قد استقر عنه من عرف له شأنه وعاف بعده وشأنه واقتنى
نظمه فزانه وأذخر مرجان نثره وجمانه . دخلت الحضرة المذكورة على
حين أخذ منى البين أخذته وفلذ من فؤادى فلذته ، فتفرست أدبه الرائق
ومذهبه الواضح الطرائق فكان جنابه العلى مطمح نفسى ومسرح انسى
ومصلح ما نضى من لبسى ، وانضى من عنسى فكانت فراسة لاح
صدقها ، وأومض برقها سحابها ، وهمل ودقها ، ولما عجت اليه وقصدت
منزله للسلام عليه ، أنشدت بيتين اثنين استأذنته بهما وهما :

ببائك يا مولى الكتابة كاتب أتك بقلب من أسى البين مفجوع

وحاجته تقبيل يمينك ، انها تؤمن من خوف وتضمن من جوع

فارتاح اليهما ارتياح الصادق لبليل القبول ، ومد لهما يمين اليمن
والقبول ، ودارت بيننا المخاطبات نظما وتكررت بيننا المراسلات
والمراجعات قلا وكثرا ، ولم أزل مدة اقامتى بتلك الحضرة تحت ظله
الوارف وفضله المحمود المطارف خرج مستريحا فى بعض أزمنته الطيبة

الى بعض جناته التى هى منى النواظر ، وملعب الغصون النواضر ومهب
الانفاس العواطر وراحة الابدان والخواطر ، حلال الحل التى توشىها
أيدي الغمائم المواطر ، فما ألم بها حتى وجه الى مع بعض خدامه مركوبا
من عتاق الخيل ، جامعا لضيء الصباح وغسق الليل نقلنى اليه ، وأحلنى
لديه ، فوافيت والربيع قد أهدى نوافحه ، وأسدى لواقحه ، وأسدل
ملاحفه وأسبل مطارفه ، وألان معاففه وأفاض معارفه ، ومد بروده ،
وأمال قدوده ، وحشد جنوده ، وحشر بيضه وسوده ، ونشر ألويته
وبنوده ، وملا تهامته ونجوده ، ونظم جواهره وعقوده ، ورقم صحائفه
وعقوده ، وأعطى مواثيقه وعقوده ، والغمام قد بكى على ميت الروض
فاحيا نوره وأضحك ثغره وحدث أحداقه ، وأرضى أوراقه ، وأصفى ملبسه ،
ووشى سندسه ، والنسيم قد جر على بساط البسيطة ذيوله ، وأجال
بملعبه خيوله ، واستنطق أطياره ، وشق أنواره ، وأفشى أسرارها ،
وأذاع شيعه وعرارها ، وفضض أنوارها ، وذهب أزهارها ، ونثر درهمه
وديناره ، وحيا ورده وبهارها ، وصافح آسه وجلناره ، وأطاب ثنياه
وأخبارها ، والمذانب تسل السيوف ، وترى لنفسها على الانهار الشفوف ،
وتخترق من مكلمات الثمار الصفوف ، وتدور على سوق الغصون
كالخلاخل ، وتلتوى بها التواء اللسان المجادل ، وتلك السواقى تحن حنين
الحوار ، وتضرم فى القلب المشوق حر الاوار (54) ، وتهيج لوعة الصب
المغترب النازح الدار ، وتتفجر من بين أضلاعها أمثال الشفار ، كما قال
الرئيس أبو عبد الله بن أبي الحسين :

ومحنية الاصلاب تحنو على الثرى
وتسقى بنات الترب در الترائب
تعد من الافلاك أن مياهما
نجوم لرجم المحل ذات ذوائب

(54) الاوار : الحر .

وأطربها رقص الغصون ذوابلا
فدارت بأمثال السيوف القواضب

وما خلتها تشكو بتحنانها الصبا
ومن بين مثليها أطراد المذائب

فخذ من مجاريها ودهمة لونها
بياض العطايا في سواد المطالب

فحلت منها شرفا ، وتبوأت غرfa ، وأجتتيت تحفا وطرفا ، وأقمنا
فيها ليالى وأياما أمنين ، تغازلنا أعين النرجس وتقابلنا خدود الورد
وتصافحنا أكف الياسمين :

في رياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح
زرتها والغمام يجلد منها زهرات تفوق لون الراح
قلت ما ذنبها فقال مجيبا سرقت حمرة الخدود الملاح

ومما أنشدنى هناك لنفسه :

حسن المريّة ريح جرى عليها فعما
فكل وجه تراه تراه بدارا أتما

وأنشدنى وقال لى : أنشدنى الحاج الفاضل أبو زكرياء بن واش
الفاسى ، وقال أنشدنى بعض الشيوخ المجاورين البغداديين وقد مر به
بحرم مكة ، شرفها الله تعالى ، الفقيه أبو جعفر بن شيخنا الامام رضى
الدين الطبرى ، وهو اذ ذاك فتى ، فقال له الشيخ ، (ما الذى تقرأ وبم
تشتغل من الكتب) ، فقال له الفتى ، (بالتنبيه) فأنشد الشيخ بديهة .

ومهفف الاعطاف ساج طرفه يغدو على الفقهاء للتعليم
شغلوه بالتنبيه جهلا منهم لو انصفوا شغلوه بالتنويم

وأنشدنى وقال لى ، دخل الاديب الشهير أبو بكر بن قزمان ، رحمه
الله تعالى ، على بعض البلاد فأعضى نعايه ليصلح له ، وهو مدتوفز (55)
قد نغد ما عنده ، فخاطب فى الحال بعض الناس من أهل البلد بقوله :

دفعت قرقى المقرق يصلحه وقد تعذر قيراط من الثمن
فامنن على شاعر خفت مؤونته قدر السؤال بقدر الناس والزمن
وأنشدنى لبعضهم :

خبت نار العلى بعد اشتعال ونادى الجود حى على الزوال
فقدنا الجود الا فى حديث والا فى الدفاتر والامال
ولو أنى ملكت الامر يوما لما حاربت الا بالسؤال
لان الناس ينهزمون منه وقد ثبتوا لا لاطراف العوالى

وقرأت وسمعت عليه جميع صحيح مسلم بن الحجاج ، رحمه الله
تعالى ، فكمل لى جميعه عليه ما بين قراءة وسماع بحق قراءته لجميعيه ،
بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة ، سنة ثلاث عشرة وسبعمائة على
الشيخ الامام الخليل عليه السلام رضى الدين أبى أحمد ابراهيم بن
محمد الطبرى المكى الشافعى ، قال : قرأته أجمع بالحرام الشريف
اتجاه الكعبة المعظمة ، سنة خمس وسبعين وستمائة على الشيخ الاوحد
شمس الدين أبى عبد الله محمد بن النعمان بحق قراءته ، على الشيخ
أبى الفضل محمد بن أبى المعالى بن الجياب السعدى ، على الشيخ

(55) المستوفز . من كان غير مطمئن فى قعدته ، وكأنه يتهاى للوثوب والمراد ، عجلة.

الشريف أبى المفاخر سعيد بن الحسين المامونى ، عن الشيخ أبى عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوى (56) ، عن الشيخ أبى الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسى ، عن الشيخ بن أحمد بن عيسى الجلودى ، عن أبى اسحاق ابراهيم بن محمد بن سفيان النيسابورى ، عن الامام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى ، قال : « وقال الشيخ أبو أحمد ابراهيم بن محمد رضى الدين الطبرى ، وأخبرنى به ، أعلى من هذا الشيخ المحدث أمين الدين عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر الدمشقى ، قراءة عليه وأنا أسمع ، بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة سنة تسع وخمسين وستمئة قال : أخبرنا به الشيخ أبو الحسن المؤيد الطوسى ، اجارة عن الامام أبى عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوى ، وبسنده المذكور » . وقد أجازنى الاجازة التامة ، وكتب لى بخطه .

(و آخر سبعهم) ، وموثر شفيعهم ، امام المعارف ، وروضة الاداب الناعمة الافنان ، الرائقة المطارف ، الفائزة من المجد الموثل بالتالد والطارف ، الشيخ العالم الولى : أبو عبد الله لبن حريز فرع الاصل الغريز ، وطبع الادب المخجل اسلاك الدر وسبائك الابريز ، والمعترف له فى ميدان البلاغة وقرسان البراعة بالسبق والتبريز ، سبق (57) فى شجرة قرشية أموية كريمة الاعراق ، ساطعة الاشراف طيبة الاثمار والاوراق ، (58) وتفتح نور بيانه فى جنان جنانه ، فاجتنى لسانه ، واجتلى كالزهر فى آداره ونيسانه ، وترقى باجادته واحسانه ، من رجل برع فى الطرق الادبية والصوفية ، ونبغ فى العلوم العقلية والنقلية ، وفرغ لها بالنفس العاصفية (59) ، والهمة الاوسية والفكرة الاياسية ، غخلق فيها رجوما رافقت الانكدار ، وبدورا فارقت الابدان ، وشموسا على كسوفها من

(56) فى بعض النسخ الفراوى

(57) فى بعض النسخ بسق بدل سبق

(58) فى بعض النسخ الايراق

(59) فى جل النسخ العاصمية .

الزمان ما دار ، فعلا بعدهم قدمه ، واصحى وجمهور العالم حوله
وخدمه ، فاقصر في منزله الكريم على عبادة ربه ، واغادة صحبه ،
سارحا من فنون علوية ، في روضات جنات ، ودرجات مقامات ، وسائحا
من عيون مجلداته في بحر أمهات ، وغيض ملهمات ، منتبضا عن الناس
الا عن المحتاجين الى مواساته ، والمفتقرين (60) الى اغادته ومؤانسته،
فترى تراكم الخلق عليه تراكم الجراد المنتشر ، فمجلسه في داره بتونس
مجتمع اليه فيه أضاف أهل العلم ، وطوائف أولى التقى والفهم ، وهو اليوم
هناك كعبة العلوم يحج اليها ، وعمدة المحاسن يعول عليها ، قد جعله الله
تعالى محيا للانفس ، وسببا للتانس ، وأودع فيه من صدق المصاحبة ،
وحسن المداعبة ، وكثرة الخشية لله تعالى والمراقبة ، ما سلكه على
أحسن الاسلوب ، وملكه الانفس وحب القلوب ، فهو كما كان محمد بن
سيرين رضى الله عنه ، يداعب ويضحك حتى يسيل لعابه ، غاذا أردته
على شيء من دينه كانت الثريا أقرب اليك من ذلك .

سماحة لا تبارى الريح غايتها
جودا ولا تتعاطى شأوها السحب
وهيبة لو رآها الدهر ماثلة
ولى وللرعب فى أحشائه صخب

الى ما رزقه الله تعالى من القريحة الوقادة ، والفطنة النقادة ،
والخوض فى بحور العلوم الشرعية والطبيعية ، والورود من مشارع
الكمالات النفسية ، والمشارب الذوقية الوجدانية ، والعنايات السلطانية
والحمايات العامة والعطايا الحاتمية ، والرتب العلية ، والزهد فى الدنيا
الدنية ، وبعد الهمة والمشاركة للخاصة والعامة ، من هذه الامة ، واجابة
الدعوة ، والخلو من الزهو والنخوة ، وانا من رأيت نجاح دعواته ، وصلاح

(60) فى الاصل المفترقين .

حالى بالتماس بركاته ، ولازمته وترددت اليه كثيرا فكنت أجد فى مجالسته فوائد تنسى الاوطان ، وارد فى موانسته موارد تحيى الهائم الظمئان ، قلت له يوما ، ياسيدى علم الله تعالى أنى أحبك فقال لى : ابشر أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال لى : (يا محمد رزقك الله التقوى وحبك الى خلقه وجعل من يحبك من عبادة المومنين قال رضى الله عنه : فمن علمت أنه يحبنى علمت أنه من عباده المؤمنين) سمعت من افظه رضى الله عنه جميع تأليفه البديع المزرى بروض الربى وزهر الربيع الذى سماه مهيب نواسم المدائح ، ومصب غمائم المنائح ، فى مدح أحد حجاب ، الخلافة الحفصية ، ونقلته من خطه وصححه عليه ، وسمعت وقرأت عليه ، وأجازنى وكتب لى بخطه ، ومولده فى الثانى عشر لشهر ربيع الثانى عام اثنين وثمانين وستمائة ، وأخبرنى رضى الله عنه قال : حضرت محتفلة عند بعض الاصحاب أنشد فيه المسمع قصيدة ابن صردر العراقى فأعجبت بها ، وما أتمها الا وقد أشربت فؤادى من سمعة واحدة ، وعرضتها فى الحين على من حضر وهى :

لحاجة نفس ما يفيق غرورها	وحاجة صب ليس يفضى يسيرها
أكفكفها هطلا على كل منزل	فلو أنها أرض لغارت بحورها
وما ينفع العين التسهد والبنكا	اذن تعرفا لى مقله أستعيرها
وقفنا صفوفا بالديار كأنها	صحائف مزجاة ونحن سطورها
يقول خليلى والطباء سوانح	أهذى التى تهوى فقلت نظيرها
لئن أشبهت أجيادها وعيونها	لقد خالفت أعجازها وصدورها
ووالله ما أدرى غداة رمينى	أنتك سهام أم كئوس تديرها ؟

(61) القصيدة للشاعر (ابن صردر) . نشر ديوانه بدار الكتب المصرية . وقد حرف اسمه فى كل النسخ .

فان كن من نبل فأين حفيها
وان قلتما لى ليس فى الارضجنة
يعز على الهيم الخوانس وردها
أراكد الحما قل لى دأى وسيلة
تنال الذى ماشئت منها وتشتهى
ومالى بها علم فهل أنت عالم
يفوح النسيم الرطب من كل منزل
وان فروع البان من بطن وجرة
أاذ من العذب الجنى عرارها
على رسلكم فى الحب انا جماعة
لعمرك ما سحر الغوانى بقادر
وما الشعرات البيض الا كواكب
وان كن من خمر فأين سرورها ؟
أما هذه غوق الركائب حورها
اذا كان ما بين الشفاه غديرها !
توسلت حتى قبلتك ثغورها
فصف لى ريا منها فأنت خيرها
أأفواها أولى بها أم نحورها ؟
وما كل أرض يستطاب عبورها
شهى الينا ظلها وحرورها
وأشهى من الشهد المصفى رحيها ؟
اذا ظفرت بالحب عف ضميرها
على ذات نفس والمشييب نذيرها
مطالعها رأس وفى القلب نورها

هكذا أملاها على بلفظه ، ضى الله عنه ، وقرأتها عليه بلفظى
مصححها لها مرة ثانية وأنشدنى أيضا قال هما لابی الحسن ابن
الزقاق رضى الله عنه .

وحبب يوم السبت عندى أنه
ومن أعجب الاثياء أنى مسلم
ينادمنى فيه الذى أنا أحببت
حنيف ولكن خير أيامى السبت

62، فى بعض النسخ

لحاجة نفس ما يفيق غرورها
وعين الى الاطلال تزجى دموعها
اذا لوعة الاحباب هب زفيرها
اذا لوعة الاحباب هب زفيرها

فهؤلاء سبعة الدرارى فى علو المقام ، أو كسبعة الايام المحيطة
بأزمان أكوان الانام ، أثرت ذكرهم انتقاء من أولئك الجهابذة الاعلام ،
واقترنت فى عددهم على أحب الاوتاد الى الملك العلام ، ولما أراد
الله سبحانه أن يسعدنى بالاخذ عنهم ، ويسعبنى فى الاستفادة منهم ،
قيض أول من علم غيبة ، ووفر جوده وسييه ، ولطائفه الخفية ، وعوارفه
الالهية ، صديقا فى المحبة ، وموافقا على الصحبة ، حافظا فى الحضور
والغيبة ،

خير اخوانك المشارك فى المر وأين الشريك فى المرأينا ؟
الذى ان حضرت شرك بالود وان غبت كان أذنا وعينا !

هو الشيخ الفقيه العالم أبو العباس النقارسى ، نفع الله بمودته ،
حافظ مجيد ، وحامل مجيد ، وناقل سديد وناقد شديد ، وعالم فريد ،
ومدرس مقيد ، له طبع حل فيه الذكاء والنبيل ، وقل غيه لو ابل كرمه
الطل والوبل ، ان واخاك رأيت الانس قد ارتدت ذواهبه ، وعادت
مذاهبه ، ووجدت الزمان قد لانت صعابه ، وبانت شعابه ، وأولاك
ودادا أخلصت سريرته ، وحمدت فى شرعة الوفاء سيرته ، فلا حمد الا
ما قد تصفحته له صفحات الفلا ، ولا عهد الا ما حفظه والافلا ،

حسن الوفاء مرشح بخلائق تجرى مع الماء الزلال اذا جرى

رحل من بلدة تلمسان قبل أن يلم بها الحصار ، ويلقى ريحها
الاعصار ، ويشرب الزمان صفوها بالاكدار ويحكم فيها الخطوب
والاقدار ، ويدير عليها من البلاء والمحنة ما أدار ، فكانت منه فعلة سنية
ونقلة سرية ، وفراصة اياسية ، والماعية عباسية ، فدخل الحضرة مشمرا
عن ساعد الجد ، ومقتادا بقائد الجد ، فطلع فى آفاقها كوكبا ، ورسى
فى ساحتها كبكبا وجال فى ميدانها ركضا وخيبا ، وتعلق بعروتها الوثقى
سببا فسببا ، ولم يزل يفحص فى هذه المسالك على الكمال ، ويستقى

من مناهلها العذبة السلسل الزلال ايثارا للرتب المنيفة ، واستطلاعا للمقامات الشريفة ، فبلغ المنتهى ، وخول ما اشتهى ، وحل في الحظوة فوق السهى ، فهو الان أحد المدرسين الاعلام ، وأوحد من برع في علمى البيان والكلام ، وأوجد الناس للدر اذا خاض بحر العلوم بسوابح الاقلام ، أديب العصر ونحويه ، وعرضيه وبيانيه ، وحكيمه ومنطقيه ، وعددية وفرضية ، وأصولية وجدلية ، وتعاليجية وأرتماطيقية ، جمع أشتات هذه الفضائل وكان فيها صائلا ليس بضائل ، وعلم اللغات وسائرهما ، وفك الاعاريض ودوائرها ، الى احاطة بعلم التفسير والحديث ، وسلطنة على المطالعة والمذاكرة في القديم والحديث ، اما الفروع والاصول فبه كنت فيهما أصول ، ولم ترعيني قط شرقا وغربا أسرع منه نسخا وكتبا ، ولا أقرأ لكل خط ما عسى أن يكون صعبا ، على جودة خطه وصحة نقله وضبطه ، واتيانه للسحر الحلال بأى شىء أخذ من الارض لا يميل بشقه ولا يفظه .

كالحية الرقشاء الا أنه يستنزل الاروى اليه تطفئا
يهفو به قلم يمج لعابه غيعود سيفنا صارما ومثقفا

دخلت الحضرة وقد كسانى البين تلك الغمرة ، فنبهنى منه أخ شقيق وفرج به عنى أزمة وضيق ، وقد كان يتشوقنى على السماع ، وينشط للاتصال له والاجتماع ، فلما علم بوصولى وصل فى لمة من اخوانه الاعلام ، وأعيان ذلك الصقع المتصلين بالسؤدد اتصال الالف بالام ، فالتقينا هنالك التقاء النفس والامل ، وانتظمتنا انتظام القول والعمل ، وأقمت معه فى منزل واحد ، وأمل وافد ، لا يستأثر أحدنا بمقسوم ، ولا ينفرد عن الآخر بمكتوم ولا مختوم ، وهو فى كل ذلك يؤنسنى غاية الايناس ، ويأخذ بضبعى الى معرفة أكابر الناس ، ويفيدنى بأجل الفوائد ، ويأتى من مرسوم فضائله بالزوائد ، الخارقة للعوائد ، وكثيرا ما كنت أعجب من تطلعه الى المعالى وتحصيله ، وأنجب باحتذائى حدوده فى جملة وتفصيله ، وأقتفائى سننه فى دقيق الامر وجليله ، والمرء

على دين خليله وما زلنا بتلك الحاضرة ، نتجلى أنوار المحاضرة ،
ونجتى نوار المذاكرة ، الى أن جاء يوم الفراق ، باخترام ذلك التلاق ،
واحتدام ذلك الاعلاق ، فسبحان من أوجد العهود ثم أعدمها ، ووصل
تلك الاسباب ثم حذفها ، وهذه شيمة الليالى فى أعقاب تجميعها بتفريقها
واشراقها كل نفس بريقتها ، لا تجمع شمالا الا شنته ، ولا تصل حبلا
الا بنته ، من أطاعها عصته ومن أدناها أقصته ومن وصلها قطعته ، ومن
نزع اليها نزعته ، ومن أرضاها أغضبته وأخرجته ، ومن سكن دارها
أزعجته وأخرجته ، والغبطة بها مع ذلك شديدة ، والامال فيها على أنها
دار البلاء جديدة ، حتى كأن حقيقة ما يعلم من استحالتها ارتياب ،
والرحلة عنها أياب ، لقد حق أن يرفضها البصير ، ويعد لما اليه تصير ،
ويسئل الله فى أمره فنعم المولى ونعم النصير ، اللهمنا الله تعالى طريق
أرشادنا ، وأعاننا على الاعداد لمعادنا ، وتقضى فى العاجل والآجل
باسعادنا ، انه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير ، وارجع الى تتميم ما
بدأت عن الاعلام بفضل هذا الفاضل وجلالته ، والالمام من ذكر روايته
والرواية عنه بما لا يخشى من ملالته ، فأقول : انى قرأت عليه جميع
تأليفه فى العروض الذى سماه بالروض الاريض فى علم القريض ،
وجميع تأليفه فى الادب الذى لخص فيه رسالة أحكام صنعة الكلام من
انشاء الوزير الكاتب أبى عبد الله ابن عبد الغفور ، وكتبها لى بخطه ،
وأجازلى جميع ما رواه وألفه من تأليفه التى أبدع فيها تلخيص مشكل
الحديث لابن فورك ، وكتاب حديقة الناظر فى تلخيص المثل السائل فى
علم البيان ، وشرح كتاب المصباح لابن مالك ، وكتاب ايضاح السبيل
والقصد الجليل فى علم الخليل فى شرح قصيدة ابن الحاجب العروضية ،
وله تأليف غيرها مما عرف بحمد الله قدرها ، وأشتهر على الاسنة
ذكرها ،

وسارت مسير الشمس فى كل بلدة
وهبت هبوب الرياح فى البر والبحر

وانشدني وقال : أنشدني الشيخ الامام الاوحد أبو عبد الله محمد
بن راشد ، رحمه الله تعالى ، قال : أنشدني لنفسه معين الدين ابن تولوء
التوزي ، رحمه الله تعالى ورضي عنه :

يا أهل مصر رأيت أيديكم عن بسطها للنوال منقبضة
لما فقدت القرى بأرضكم أكلت كتبى كأننى أرضة
وانشدني لغيره :

لحاً الله مصر وسكانها وفتت أكبادهم بالحسد
متى يرتجى مفلس عندهم غنى ، وعلى كل فليس أسد
وانشدني الشيخ المحدث الفاضل فتح الدين بن عمر بن سيد
الناس رحمه الله تعالى :

بالله ان جزت بواد الراك وقبليت عيدانه الخضر غاك
فابعث الى المملوك من بعضها فأننى والله مالى سواك
وانشدني لبعضهم :

جعلت هديتى لكم سواكا ولم أقصد به أحد سواك
بعثت اليك عودا من أراك رجاء أن أعود وأن أراكا

وانشدني قال انشدني الشيخ الامام الاوحد ناصر الدين أبو علي
منصور بن عبد الحق المشذلي رحمه الله ، قال انشدني أبو عبد الله
بن أبي الفضل السلمى المرسى لنفسه :

عابوا الجهالة وازدروا بحقوقها وتهاونوا بحديثها في المجلس
وهي التي ينقاد في يدها الغنى وتجيئها الدينا برغم المعطس

ان الجهالة للغنى جذابة
جذب الحديد حجارة المغنطس

وأنشدني له أيضا :

تنقل فلذات الهوى في التنقل
ورد كل صاف لا تقف عند منهل
وان سار من تهوى فسر عن جنبه
ولا تسكين دمعاً على مترحل
ولا تلتفت قول امرئ القيس أنه
ضليل ومن ذا يهتدى بمضلل

ففي الارض أحباب وفيها منازل فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل (64)

وأنشدني للقاضي الخطيب العالم أبي عمر بن ادريس ، أخى بنى
بحر صفوان بن ادريس . في أبي العباس الفضل بن أحمد بن الفضل ،
أحد علماء مرسية ووزرائها ، وكان أوحده زمانه في حسن الصورة .

أطاع فؤادى حبه وعصى العدلا وذاق الهوى مرا ، ولكنه استحلا
يقولون أقصر ، وانس فضلا ولم أكن لا فعل هذا ، ساء قولهم فعلا
يكلفنى العذال ما لا يحل لى أنسى ؟ وقال الله لا تنسوا فضلا

(64) (في بعض النسخ) بتر من حبيب ومنزل الى قوله : يا موقد النار (في الصفحة التالية) .

وأنشدنى له أيضا :

واغيد حظى منه ما اختلس الطرف
يميل بقلبى نحوه الحسن والظرف
غزال ضعيف اللحظ ويحيى وانما
جنى ضعف صبرى فى الهوى ذلك الضعف
هو الخشف الا أنه كلما رنا
جزعت وفى المعتاد أن يجزع الخشف
أرى هجره وقفنا على فهل غدا
جزاء على أنى على حبه وقف
سلوه برفق هل جنيت جناية
فان قال أى فاستلوه عسى يعفو
ويصرفنى من جوره نحو عدله
فها أنا لا عدل على ولا صرف
سأنتيه نحوى بالقوافى فانها
نسيم ويحكى الغصن لى ذلك العطف
قنعت بأن يهدى الى سلامه
اذا لم يكن زهر من أروض فالعرف

وأنشدنى لابی الربيع سليمان بن أحمد اليبنى ، أندلسى استوطن
المشرق ومدح الملك الكامل :

لولا تحديه بأية سحره
ما كنت ممثلا شريعة أمره

رثى أصدقاه وكاذب وعده
يبرى لعاشقه أدلة عذره

ظهرت نبوة حسنه فى فترة
من جفنه وضلالة من شعره

وأنشدنى عند الوداع لعل بن هاشم المروزي :

يا موقد النار يدكيها فيجملها
قر الشتاء بأرواح وأمطار

قم فاصطلى النار من قلبى مضرمة
بالشوق من مهجتي ، يا موقد النار

ويا أخا الذود قد طال الظلماء بها
ما يعرف الرى من جذب واقفار

رد بالعطاش على عيني ومحجرها
تروي العطاش بدمع واكب جار

يا مزعم البين لا كان الرحيل فان
كان الرحيل فانى غير صبار

ان غاب شخصك عن عيني فلم تره
فان ذكرك مقرون باضمار

ثم تهيأ زادى ، وكمل للسفر استعدادى ، وخرجت بعد الاستخارة
المشهورة ، ومن حضرة تونس المذكورة فى صبيحة يوم السبت السابع
عشر شهر ربيع الثانى عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، وقد نثر المركب

بنوده ، وقلد شراعه وأحكم شدوده ، فركبت في اليوم المذكور ، ثم أحصى الراكبون فكمل في المركب منهم نحو ألف راكب ، ثم رفع الشراع وسرنا خارجين من المرسى الى أن جزنا جزيرة (قوسرة) ووصلنا الى جزيرة (ملطة) ، ثم هبت ريح اقتلعتنا وأسرعتنا ، واشتدت وحامت فروعتنا وأزعجتنا ، حتى أدخلتنا مرسى جزيرة (اقريطش) (66) فأقمنا فيها خمسة أيام ، وهى جزيرة للروم ، وطولها نحو ثلاثمائة ميل ثم خرجنا منها فلما توسطنا المواسط اشتدت الريح المختلفة ، وعظمت الامواج المضطربة ، وأنت الانواء من كل جانب ، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة ، فأظلم الجو وتراكم الغم ، وارتفع الصحو ، وتبدل بالكدر الصفو ، واهتاج البحر اهتاجا ، وأربدت الانفاق سوادا ، وانتشرت الرياح عصفوا ، وتدفقت الامواج ، وعظم الارنجاج ، وهمى الغمام ، واستشعر الحمام ، وأرسلت شئيب الامطار كأنها السهام ، وكان ذلك الخطب أعظم من أن يحيط به الوصف ، فرجفت القلوب ، وخرست اللسن ، وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، واتصلت الحال في الزيادة الى أن قربنا (من جزر الرومانية) ، وتفاقم الامر وتعظم حتى انتهينا الى جزيرة (أشقرباطة) فركبنا الى مرساها ، وأرسينا به فتنزايد الامر وعظم ، حتى قطع المراسى جملة واحدة ، وخرج المركب رغما على الانواف واستقبل عظيم تلك البحار فابقنا بالهلاك ، وغلب اليأس على الامل ، وقلت (أنا الغريق غما خوفي من البلل) وكم يسير بنا في غير طريق ، والهول يزيد ويعظم ، حتى تفتح المركب من جميع جهاته وصار الماء يدخله من كل جانب حتى ملاء الجو الاسفل واستوى على ظهر الطبقة الثانية من المركب ، وتزايد فيها حتى قرب من الطبقة العليا ، فاستغاث الناس ولم يبق شك في الهلاك ، واذا بالرئيس

66 جزيرة اقريطش جزيرة مشهورة ببحر الروم دورها ثلاثمائة ميل وخمسون ميلا ، ويقول ابن سعيد في بسط الارض انها واقعة في الاقليم الخامس وبينها وبين رأس أوثنان مرحلتان ونصف ، يذكر مؤرخو الاندلس أن الفقهاء توجهوا اليها والى فاس بعد معركة الريض

والبحريين قد أقبلوا عليهم وقالوا ما بقى فى الحياة من طمع الا ان قد رتم على ميح الماء ورمى الوسق ، فقام الخلق بأجمعهم كبيرا وصغيرا وذلك بين العشائين ، وأقبلوا على الميخ والرمى ، فما رجع (67) أحد عن رمى ما قام فى وجهه شىء كان ، ما عدا النفس خاصة ، والقليل من الشدائد يصير عند المشاهدة له كثيرا ، كما أن الكثير من الشدائد يصير عند سماعه قليلا ، وأهوال البحر لا تحصى ولا تحصر ، والشىء يسمع فيحقر حتى يبصر :

هو البحر حدث عنه غير مكذب فما تنتقى آياته وعجائبه فأقاموا كذلك حتى ظهرت (جزيرة قبرس) وهى جزيرة كبيرة معمورة بالنصارى كالجزر التى قبلها ، فما انفصلنا عنها الا وقد أدركهم الجهد والاعياء ، ولحقهم العطش الشديد والعناء ، وقد كانوا رموا جميع ما كان بقى لهم من الماء المعد للشرب فطلبت قطرة من الماء توجد ، فما رض ضلوعى ولا فض دموعى الا أطفال يضطربون بالبكاء ويستغيثون من العطش ومن الماء حتى أشرف الناس على الهلاك بالعطش ، وتجزع بعضهم من ماء البحر فكنت أراهم مطروحين يعالجون سكرات الموت . فعند ذلك قام صاحب المركب الى شىء يسير كان بقى له ولرجاله من الماء لشربهم ، وحضره الى ناحية وأحصى جميع ما كان فى المركب اسما وعينا بالزممام ، وصار يدفع لهم جرعة واحدة ظهر كل يوم قدرها نحو ثلاث أواقى ، فبينما هم يتمسكون بتلك العلالة ، ويترمقون بتلك المصة والبلالة ، التى كان الناس يتجرعونها ، كرها ، والعطش أشهى للنفس منها ، اذ أمر الله تعالى الرياح ان تسكن . والبحار أن تبيض ، فلم تتحرك فيها للنسيم حركة :

وقد كان بحرا قبل ذلك زاخرا
فغدا بذلك ، وهو بر مقفر

(67) (فى بعض النسخ) فما رجع أحد .

فتمكن اليأس ، وعظم البأس ، وسقط فى أيدي
الناس ، فضجوا بالدعاء ، ونقص لهم النصف من تلك الجرعة التى كانوا
يأخذونها من الماء ، واختلفت اليهم أنواع الهلاك والبلاء ، فلما رأيت
تلك الشدة ، جمعت الاصحاب من قراء القرآن فاجتمع منهم نحو الثلاثين
رجلا ، فقلت لهم ما لنا الا اللجوء الى الله عز وجل ، واتوسل اليه بكتابه
وبرسوله فصلينا العشاء الاخيرة وقسمت عليهم القرآن مجزءا ، وأقمنا
على التلاوة والقراءة ليتنا تلك فلم يكن الا أمد يسير وشفع الله فينا كتابه
العظيم ، ونبيه الكريم ، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه
وظهر منار الاسكندرية فأعلم الناس بذلك ، فضجوا سرورا بالدعاء
والبكاء ، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء ، وكادوا أن يقضى
عليهم ذلك الامل ومن فرح النفس ما يقتل .

خفقت قلوبهم سرورا بعدما باتوا بأفئدة يراع خوافق
فما رأيت قبلها بشارة أحلى فى النفوس ، أوقع فى القلوب ، ولا
أعظم سرورا من سرور الخلق بها فى تلك الساعة ، وما ظنك بساعة
أعلنت بالكرم والجود ، وأعلنت بالخروج من العدم الى الوجود ، وفيها
نطق لسان الشكر بما تيسير على الفكر فقلت :

بشراكم لاح المنار الاسعد	ودنا على اليأس المرام الا بعد
وتتنفس الكرب الذى كنا به	فى حالة البلوى نقوم ونقعد
وافتر من أسكندرية تغرها	الوضاح فهو منظم ومنضد
فردوا زلال النيل فيها موردا	قد أخصب المرعى وطاب المورد
واستقبلوا النعم العظام بشكرها	فبشكرها أبدا لكم تتزايد
ما خاب قصدكم وطبية قصدكم	وشفيعكم خير الانام محمد

فوصلنا وجفن الظلام قد انطلق على عين الشمس ، ومضى اليوم
مضى الامس ، ودخلنا المرسى بقرب المنار ، فى ليلة الجمعة الثالث

عشر لجمادى الاخرى من عام سبعة وثلاثين المذكور ، ولما بدأ من الفجر
سفور ، ونثر الصبح كافور ، وركبت الينا زوارق المدينة ، وخرج الناس
لمشاهدتنا فى أحسن الزينة ، نزلنا البر لا نلوى على جريح ولا نصبر
ريثما يسكن البحر من ماء وريح ، وأقبلنا الساحل قاصدين تأبين من
ركوب البحر أبد الابدین فلما وطئنا الرمل وسلمنا على الاخوان
احتضنا بالشرط والاهوان ، وحملنا باجمعنا الى الديوان هناك شاهدنا
الحساب وأرينا العذاب ، وملئوا منا البيوت والرحاب ثم أمرت اليد
على القليل الكثير ، والحقير والنقير ، والدغتر والقطمير ، والرفيع الوضيع
والغنى والفقير ، وفتشت الاوساط ، وعم الزحام والاختلاط ، وكثر
الهياط والمياط ، حتى خرج المخزون والموزن ، وبرز المعكوم والمختوم ،
وعند الله تجمع الخصوم ، فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ومن كل
عشرة دراهم درهمان ، ظالما وعدوانا وجورا وطغيانا فاستشعرت الاسف،
ونسيت كل رزء سلف ، ووددت للنزر الحاضر لو كان مع الشئ الآخر
ذهب وتلف وجعلت أنشد :

رمى بى البحر درا فى بلادكم لكنى لم أصادف فيكم صدفا
أصبحت بين أناس ضعت بينهم كالزهر فى كف مزكزم فوا أسفا
وبعد مرارة تلك المواقف المهينة ، أعقبت حلاوة تلك المدينة :

ففسينا ما لقينا وكأنا ما شقينا

* * *

وخلصت من حجر الاسى لمسرة ففتت بها الابصار والاسماع
وظفرت من زمنى بحظ لم يزل بينى وبين الدهر فيه نزاع
فانتظم الشمل بقصر الموضوع ، بديع المجموع ، يعجب بقطعه
المتجاورات ، وحدائق فيها من كل الثمرات ونخل كالكتائب قابلت الكتائب،
والعذارى أرخين الذوائب ، فيها قنوان من البسر وألوان تعدى على

العسر . وتتهدى الى اليسر فلم أرمدينة أحسن منها وضعاً ولا إبداع
ربعا ، ولا أوسع مسالك ولا أعلى مباني ولا أسمى مراقبي ، ولا أجمل
مراسم ، ولا أوضح معالم ، ولا أملح أزقة ، ولا أعجب رواقاً ورقعة ،
ولا أحسن تقصيلاً وجملّة .

هي القصور البيض لا ما حدثوا عن أرم وغيرها من بيانا
تخطف الأبصار من لالائها والليل قد ألقى الشاع الأذكار

فكان محاسن الدنيا فيها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة .
كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوعر ونسيمها معطر ، وترابها
مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وكفاها أن ليلاً كالنهار في
تصرف العباد ، واعادة مسائها كصباحها ، وهو غير المعتاد . وهل هي
الاذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ذكر المفسرون عن أبي
ابن كعب في قوله تعالى أرم ذات العماد : انها الاسكندرية ، فهي من
أعجب البلدان ، وفيها بنيان عجيب ، ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت
في ثلاثمائة سنة ، وان أهلها مكثوا سبعين سنة الا يمشون فيها بالنهار
الا معصبين الاعين بخرق سود ، خوفا على أبصارهم من شدة بياضها ،
وعلى منارها سرطان من رخام ، والمنار على أربعة أساطين ، وطوله
ثلاثمائة ذراع وحيطان المدينة وسورها من رخام ، فيها قبة كانت
لفرعون ، وفيها قصر سليمان قد تهدم وبقيت أثاره ، وبها أسطوانة
تستدير الدهر كله ، وكان في القديم على منارها مرآة كبيرة ، صنعها
الحكماء ، يتطلع بها على القسطنطينية وبلاد الروم حتى احتيل في انزالها ،
فلم يستطع أحد على صرفها بهذا انتهى ، ومن عجيب صنعها أن بناءها
تحت الارض كبنائها فوقها ، بل أعتق وأمتن ، لان الماء من النيل يخترق
جميع دريارها ويتخلل جميع أزقتها تحت الارض ، فتنصل الابار بعضها
ببعض ويمد بعضها بعضا ، وعابنت فيها من سوارى الرخام وألواح
كثرة وعلوا واسعا وحسنا ما لا يتخيل بالوهم ، ولقد نلقى فيها سوارى

يقصد الجو بها لا يدري معناها ، ولا لما كان أصل وضعها . ويذكر أنه كان عليها في الزمن القديم مبان الفلاسفة ولاهل الرياسة والله أعلم ، ومن أعجبها وأعظمها عمود السوارى ، له قاعدة مربعة هو عليها ، عددت في أحد جوانبها نيفا على أحد عشر شبرا ، وطالعت في بعض التآليف أنه أعظم عمود على وجه الارض واقف على كنز من الكنوز ، وان طوله تسع وأربعون ذراعا بالذراع الكبيرة التى فيها ذراعان ، وانه لا يتترشح عن موضعه ولو تساقطت عليه الجبال الشم ، ومن عجائب الاسكندرية أيضا المنار ، وهو بخارجها قد صعد كالبرج الاعظم فى عنان السماء أساسه كله معقود بالرصاص ، وبنيانه بالحجر المنجور الجافى يزاحم السماء سموا وارتفاعا قد وضعه الله تعالى على يد من سخره لذلك آية للمتوسمين ، وهداية للمسافرين يهتدون به فى البحر الى بر الاسكندرية ، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا ، عرض أحد جوانبه الاربع ينيف على خمسين باعا ، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة ، والفيت فى بعض التآليف المعتمدة ما نصه : وذكر من عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال عجائب الدنيا أربعة مرآة منار الاسكندرية كان الناس يجلسون تحتها غيرون من بالقسنطينة وبينهما عرض البحر ، وفرس من نحاس بأرض الاندلس باسط يديه مقابل بكفيه أى ، ليس خلفى مسلك فلا مسلك فلا يطاء أحد تلك الارض الا ابتلعت النمل ، ومزاراة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد ، فاذا كانت الاشهر الحرم هطل منها الماء فشرب الناس واستقوا وصبوا فى الحياض فان انقطعت الاشهر الحرم انقطع ذلك الماء الى آخر ، وشجرة من نحاس بأرض رومة عليها زرزور من نحاس سودانية فاذا كان أوان الزيتون صفرت تلك السودانية من النحاس فيعصر أهل رومة ما يكفيهم من الزيت لادمهم وسرجهم فى كنائسهم الى عام قابل ، هذا الذى ذكره عبد الله بن عمرو بن العاص خبر مشهور موجود فى كتب الحكماء ، والمرآة التى كانت بمنار الاسكندرية صح خبرها بالتواتر خاصة ، وانما عمل

الروم في اغسادها خوفا منها ، ولهذه المدينة من المدارس والمساجد ما لا يستوفيه وصف ذكر الهروي في بعض تأليفه أن مدينة الاسكندرية احتوت على اثني عشر ألف مسجد ، وذكر أبو الربيع بن سالم الكلاعي في كتاب الاكتفاء له قال : كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الاسكندرية ، أما بعد غاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنني أصبت فيها أربعة آلاف منية (68) بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية ، وأربعمائة حلة للملوك ، وعن أبي قبيل ، ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فيها اثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر (انتهى) ، الى غير ذلك من المعاهد والمفاخر والمشاهد والمآثر ، وفيها تربة بعض الانبياء عليهم السلام ، وتربة بعض التابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، استوفيت زيارة جميعهم وترددت الى مبارك بقيعهم ، ثم عدت الى لقاء العلماء والخذ عن الفضلاء فأول من لقيت به من الائمة وحاملي الآثار والسنة الشيخ الفقيه الامام قاضي المالكية الاحق بالرتبة السامية السنية ، وجيه الدين أبو زكرياء يحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن الامان بن خليفة بن أبي أرضين ابن تتين بن تامشت بن علي بن رجاء بن عبد المومن بن ذي حي الصنهاجي اليزيدي المالكي ، هكذا أملى علينا نسبه ومولده في الثالث من شهر ربيع الاول سنة سبع وستين وستمائة امام الفروع والاحكام ، والعالم بالحلال والحرام ، والمهتم بطلب العلم أعظم الاهتمام له رحلة قديمة وعى فيها الكثير ولقى الصدور الاكابر ، وحج نحو العشر حجج وجاور سنين وشغل زمانه بالعلم فاستفاد وأفاد ، فيه يقول صاحبنا ورغبتنا الكاتب البليغ الحافل الفاضل أبو اسحاق ابن الحاج (69) وأنشده اياهما بمحضرى :

(68) في الاصل مينة .

(69) أبو اسحاق ابن الحاج رحالة مغربي ، ترك مؤلفا في رحلة ابي عنان الى بجاية وبلاد الزاب ، به أخبار دقيقة عن دولة بني مرين .

أضحى وجيه الدين أسبق سابق في العلم والعلواء والخلق النزيه
عجب الورى من سبقه وتعجبوا فاجبتهم لا تنكروا سبق الوجيه

وهو رجل قد أجزل الله تعالى له الحظين : كمال الخلقه ووفور
القوة ، وسعة الدنيا ، ومتانة الدين ، سرى وسيم ، مسكى النسيم ،
زكى المناسم فى المبدأ والقسيم ، طلق أسرة الوجه دمت جناب البر رقيق
حاشية الطبع ، حسن الاخلاق ، وحسن الهيئة ، جميل اللباس ، سمح
اللقاء مليح التأنيس ، حلو المحاضرة ، ذكى المعانى ، نبيل المقاصد ،
سهل الحجاب ، لين الجانب ، يقظ ، حاضر الذهن كأن خاطره جمرة تقد ،
سمعت عليه تآليف كثيرة بمنزله من الاسكندرية واجازنى الاجازة التامة
المطلقة العامة وكتب لى بخطه وجرت المحاضرة عنده فأجرى
خيله ، وجر الحديث على المذكرة ذيله فاخبرته ان فى كتاب سحر
الشعر من لا يجد انفعالا عند سماع قول ابن عبد ربه القرطبى .

أشكو اليك قلا دعائى يسمع يا من يضر بناظريه وينفع
للورد حين ليس يطلع دونه وأراه عندك كل حين يطلع
من لى باحور ما يلين كلامه خجلا وسيف جفونه ما يقلع
منع الكلام سوى اشارة لحظه منها يخاطبنى وعنهما يسمع

فليتهم مزاجه وليبادر علاجه « وفى كتاب » الأشعار بهزات
الأشعار « قول ابن عبد ربه » :

يا لؤلؤا يسبى العقول أنيقا ورشا بتعذيب القلوب خليقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقعة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

وفي كتاب « المطمح » ان أبا الوليد بن عتال لما أنصرف من الحج اجتمع بأبي الطيب في مسجد عمرو بن العاص بمصر ففاوضه قليلا ثم قال له أنشدني لمليح الاندلس ، يعنى ابن عبد ربه فأنشده هذه الابيات ، فلما أكمل انشادها استعادها ثم صفق بيده وقال :

يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا (70) فتناقلتها عنى بالالسن الاقلام ، وكانت سببا لتأنيسى بأولائك الجلة الاعلام .

وممن لقيته بها من الامجاد، والعلماء النقاد، الشيخ العدل شرف الذين أبو البركات محمد بن الشيخ الامام العدل المرحوم فخر الدين أبو بكر محمد بن الشيخ الامام العالم المصنف شهاب الدين أبي محمد عبد الكريم ابن عطاء الله الجذامى الاسكندرى ، له حسب صميم ، وسلف فى العلم قديم ومنهج على السنة قويمة ، وبيت له للعلم والدين تعظيم وتغظيم ، فله ما هنالك من خيم ، ومنادى لا يدخله ترخيم ، ومنتهى لا يعرف نحوه الا منطق دلق ولفظ رخيم . فهو كريم النجار ، كبير الكبار ، خير الاخيار ، طاهر اللذات ، فاضل الذات ، كامل الادوات ، كثير الآيات ، على الروايات ، عالم بالشرعيات ، واقف على الطبيعيات ، عف السريرة ، حسن الصورة والسيرة ، طريف المنازع ، ذكى المبادئ والمقاطع ، سهل العبارة نبيه التنبيه والاشارة ، كأنه لطيمة مسك أو شهدة مشترارة . ذاكر الحديث والفروع ، سالك على ألسن المشروع ، عارف بعقد الشروط ناظم لتلك السموط ، عاقد مجيد ، باحث مفيد ، امام مفتى عالم مدرك عدل مبرز .

من معشر أوصافهم كالمسك لذ لمن نشق
فحديث آخرهم زكا وحديث أولهم عبق

(70) القصة مشهورة فى كتب الادب نقلها عن صاحب المطمح المغربى فى نهج الطيب ج 262 ص 9 (المطبعة التجارية الكبرى بمصر)

لقيته بدكانه من الشهود بالاسكندرية ، وجالسته كثيرا مغتتما لفوائد
مجالسته ، متنعما في حدائق مؤانسته ، وسمعت عليه وأجازنى اجازة
تامة مطلقة عامة ، وكتب لى بخطه .

وممن لقيته بها من العلماء المسنين والاولياء المهتدين : الشيخ
العالم شرف الدين أبو العباس أحمد بن أبي الحسن على (ن عبد العزيز
ابن عبد الله الكتامى الشافعى ، الشهير بابن المصنفى أرضاه الله تعالى :
شيخ المعارف والفضائل وامام الاكابر ، وصدر المجانيس
والمحافل ، بدر الاشارة لسرى القوافل ، له المناقب الثواقب والمواهب
السواكب ، والفوائد الفرائد ، والمناهج المباهج وله بالعلم عناية ،
تكشف العماية ، ونباهة تكشف النزاهة ، دراية تعضد الرواية فكلامه
تنتثر طرفه (71) وتتهادى تحفه غارق لين المهاد ، ورافق العبادة
والاجتهاد ، وانعطفت قناته وهبت بحركاته سكناته ، ذو خشبة لله
ومراقبة له كثير الدعاء دائم الصبرة شديد التواضع عالم صالح فاضل .
محامد فاز فى الدنيا بعاجلها وفى القيامة أجر غير ممنون

لقيته بمنزلة من الاسكندرية ، فسمعت عليه تصانيف جملة ، وتلقيت
منه فوائد جملة ، وقرأت عليه بالفظى جميع كتاب الشهاب للقضاعى رحمه
الله تعالى ، وحدثنى به عن شيخه سعد الدين عبد الرحمن بن حسن بن
حمزة لجميعه من لفظه وسنده فى برنامج روايتى وحدثنى به أيضا عن
الشيخ أبى البركات هبة الله بن زوير (72) الأزدي الاسكندري اجازة ان
لم يكن سماعا قال أخبرنا الشيخ أبو القاسم بن حمزة بن موقى السعدى
الانصارى سماعا عليه من المدارك سماعا عن المؤلف سماعا ، وسمعت
عليه جزءا وافرا من كتاب موطا الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ،

(71) سقطت من الاصل .

(72) (فى بعض النسخ) زوير .

وتناولته (73) أجمع من يده المباركة ، وله فيه علو زائد ، والبسنى خرقة
التصوف ، وأخبرنى أنه لبسها عن الشيخ الامام القدرة شمس الدين
أبى عبد الله محمد بن موسى بن النعمان الهذلى بسنده فيها ، وقرأت
عليه بلفظى جميع الجزء المسمى تنبيه المذنب بالطير والحوث قبل أن
يموت تأليف شمس الدين أبى عبد الله بن النعمان المذكور ، وحدثنى به
عنه سماعا عليه ، ومما انفرد بالعلوفيه سماعه غير مرة لجميع القصيدة
الفقهية فى الحجة والزورة (74) المحمدية على ناظمها الشيخ الامام
الصالح مجد الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر البغدادى الواعظ رحمه
الله تعالى وأولها :

أيما عذبات البان من أيمن الحمى رعى الله عيشا فى حماك رعيناه
سرقناه من ريب الزمان وصرفه ولما سرقنا العيش منه سرقناه
وجاءت جيوش البين يقدمها القضا فبدد شملا بالحجاز نظمناه
وسماعه كذلك لجميع القصائد الوترية المضمنة مدح أشرف البرية
نناظمها مجد الديد وأولها :

أصلى صلاة تملأ الارض والسماء على من له أعلى العلا متبوا
أقيم مقاما لم يقم فيه مرسل وأمست له حجب الجلال توطأ
الى العرش والكرسى أحمد قد دنا ونورهما من نوره يتلأ

وقد قرأت جميع ذلك كله عليه بلفظى بمنزله المذكور ، وقرأت
وسمعت عليه ذلك وأجازنى وكتب لى بخطه ومولده فى شعبان سنه تسع

(73) المناولة من اصطلاحات المحدثين . هى نوع من الاجازة وطريقها ان يدفع الشيخ
لطالبيه اصل سماعه او فرعاً مقابلاً بأصله ويقول له قد اجزت لك فى روايته عنى .

(74) فى بعض النسخ فى الحجة والتروية .

وأربعين وستمئة ، وأنشدنى فى غير مرة ، وقال : أنشدنى الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الواعظ المذكور لنفسه :

حضرت فكنت فى بصرى مقيما وغبت فكنت فى أقصى الفؤاد
وما شطت بنا دار ولكن نقلت من السواد الى السواد

وممن لقيته بها من أهل المجادة ، والعلم والعبادة ، الشيخ العالم ، المسند سديد الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ العدل المرحوم عز الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن الشيخ شهاب الدين أبى محمد عبد الوهاب بن الشيخ رضى الدين أبى عبد الله محمد بن الشيخ الامام الاوحد مفتى المسلمين جمال الدين أبى الماضى عطية بن المسلم بن رجا بن منصور بن جامع بن الحسن بن على التنوخى اللخمى الاسكندرى المالكى ، المشهور بابن عطية ، أوجد من برع فى العبادة والزهد ، وفرع ذروة العلم والمجد فجمع الله له بين العلم والعمل ، ومنحه من كل فضل بلوغ الغاية التى لا يقال معها لشيء كمل لو أن ذا كمل ، ووهبه شرف خلال لجميع خلال الشرف ، وجعل سرفه فى الخير حجة على من قال لا خير فى السرف .

بيته أحد البيوت الرفيعة بالاسكندرية ، وله بها مزية الرفعة المزية ، عمر بالحسنات اناءه ، وتتبع بالقربات آباءه بانيا كما بنوا ، بل زائدا على ما أتوا ، وبادئا من حيث انتهوا ، فهو حبر الاكارم ، وبحر المكارم ، وتاج المفاخر ، وحجة المفاخر ، ودليل كم ترك الاول للآخر ، فمن سبر أحواله وخبر أفعاله وأقواله ، فقد رأى وشاهد ، وحمد ذلك المجد المشاهد ، ويا طالما لازمته فاجتليت شمسه العلية طالعة من شرقها ، وأنوارها الجلية ساطعة فى أفقها ، ولكم أقمت بها خطيبا وأرجت من ثنائها طيبا :

فآنثنى والثناء بأرج من عطفه طيبا لم يرض بالند ندا

لقيته بمنزله من الاسكندرية ، وسمعت منه حديث (الرحمة)
المسلسل بشرطه ، وحدثني فيه في غير هذا ، وقد أخذت ، حديث
(الرحمة) هذا عن جماعة كبيرة من أهل الاندلس وغرب العدو وغيرهم ،
وخرجت سندی فيه عنهم في مجموع كبير . سمعت عليه حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم أجزاء كثيرة منها جزء فيه مجلس من أمالي
الحافظ أبي القاسم اسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي ، وجزء فيه
ثلاثة عشر حديثاً مخرجه من كتاب الترمذی ، وجميع ما تضمنته الأربعون
الكبرى الصحابية ، للحافظ أبي الحسن المقدسى من الأحاديث النبوية
بأسانيدها والكلام عليها ، وهى سبعة أجزاء يجمعها مجلد واحد ، وجميع
الأربعين حديثاً على أربعين شيخاً ، فى أربعين باباً ، لأربعين صحابياً ، وقد
استوفيت جميع أسانيد ذلك كله فى برنامج روايتى فذلك موضوعها .
وأجازنى اجازة تامة مطلقة عامة ، وكتب لى بخطه ، ومولده رضى الله
عنه خمسين وستمائة .

وممن لقيته بها من كبار المقرئين ، وخيار عباد الله الصالحين ، الشيخ
المقرئ الصالح فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى الحسين
يحيى بن السيورى أبى الله بركته فخر السنة والملة ، وإمام الأئمة
الجلة ، ولى الله الكريم عليه ، المنقطع اليه ، المشفع بالقراءة والتلاوة
بين يديه ، مجد فى الزهادة ، متفرغ للعبادة متوكف ما وعد الله سبحانه
للذين أحسنوا من الحسنى والزيادة ، نشأ على عفة وصيانة ، وأمانة
وديانة ، فعظم الله شأنه ، ورفع بالعلم والعمل مكانته ومكانه ، وأعلى
منار الهداية ورزق الناس الانتفاع به فى البداية والنهاية ، فازدحموا على
مورده والمورد العذب كثير الزحام ، والتأموا بمعهدده ، وحيث الحسب
يزدحم الحمام ، وأنشدوا لدى يديه :

لقد حسنت بك الاوقات حتى كأنك فى فم الزمن ابتسام

والجمهور بالانسياح اليه والانسياب ، لهج الغياب بالاياب ،
وطرب الشيب لذكر الشباب ، أخذ القراءة عن جماعة جلة وسمع الحديث

على رجال بأسانيد عالية ، حتى انتهى رتبة أوائلها ، وانتهج طرق اعتنائها واعتلائها ، وفضائله كالصبح جلا الافاق ، والنجم أعقب الاخفاق لقينته بموضوع اقراءه من الاسكندرية فسمعت عليه من الحديث كثيرا ، وترددت اليه فانتفعت به انتفاعا كبيرا ، ومما سمعت عليه جزءا فيه ستة أحاديث منتخبة من رباعيات الترمذى ، وفيها حديث واحد ثلاثي تخريج السيد الشريف تاج الدين أبى الحسن على بن أبى الحسن على ابن أبى العباس أحمد القرافى الحسنى بسماعه له قراءة مخرجه المذكور على الشيخ شرف الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الخالق بن طرخان القرشى الامورى بسماعه بجميع كتاب الترمذى من أبى الحسن على بن أبى المكرم نصر بن المبارك المعروف بابن البناء قال أخبرنا أبو الفتح عبد المالك بن أبى القاسم عبد الله بن أبى سهل بن أبى القاسم الكردوخى (75) سماعا عليه ، قال : أخبرنا المشائخ الثلاثة أبو عامر محمود بن أبى القاسم الازدي وأبو بكر أحمد بن عبد الصمد الغوجى (76) وأبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقى قالوا : أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن عبد الله بن أبى الجراح الجراحى (77) قال : أخبرنا أبو عباس محمد ابن أحمد بن محبوب المحبوبى المروزى قال : أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، ومما قرأت عليه بلفظى جميع الجزء المسمى «بقضاء حوائج الاخوان واغاثة اللفهان» تأليف الحافظ أبى الغنائم محمد بن على بن ميمون النسرى الكوفى ، بحق سماعه على الشريف أبى الحسن على بن أبى العباس أحمد القرافى المذكور ، بسنده المرسوم على ظهر الجزء المذكور المنتسخ بخطى ، المصحح على هذا الشيخ الفاضل جهدى ، واجازتى اجازة تامة مطلقة

-
- (75) (فى بعض النسخ) الكروخى (وفى بعضها) الكردوخى
(76) (فى بعض النسخ) التورجى (وفى بعضها) الغروجى .
(77) (فى بعض النسخ) الجراجى (وفى بعضها) الجراصى

عامة ، وكتب لى بخطه ، ومولده سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمصر
 بالفسطاط وأشياخه جملة منهم : أبو عبد الله بن طرخان المذكور . ومنهم
 الامام أبو عبد الله محمد بن الدهان ، والشيخ المقرئ صالح مكن
 الدين عبد الله الاسمر بن منصور العمرى ، ومنهم الشيخ كمال الدين
 أبو الذكر بن عبد القادر الدحراوى ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم . رضى
 الله عن جميعهم ، ونفع بحبهم والترحم عليهم . وممن لقيته من العلماء
 المتجرين والحفاظ المصنفين : الشيخ المصنف نور الدين أبو الحسن
 على بن يونس بن عبد الله الهوارى (78) التونسى
 حل كنف العلم والعلاء ، وجل قدره فى الجنة الفضلاء ،
 ولم يزل على كد الطلب أصبر من عود يجنيه جلب فقطع الليالى ساهرا ،
 وقطف من العلم ازاهر ، حتى ارتوى من المعارف سجله ، وعرف مكانه
 من العلم وفضله ، فأثمروا وأورق ، وغرب وشرق ، وجمع وفرق ، وتوغل
 فى فنون العلم واستغرق ، طلع على الابصار هلالا لان الغرب مطلعته ،
 وسما فى النفوس موضعه وموقعه ، وأدرك غاية المجد بقدمه ، وأفصح
 عن سر فضله لسان قلمه ، فجمع أشتات الفضائل ، ورفع ألوية الفواضل
 واجتلى شمس العلى بتلك الآفاق ، وشاهد فى طلوعها من مشرقها ما لها
 من الاشراف ، فله دره بحرا لدرره الاسماع ملتقطة ، وروضا بزهره
 الاجفان مغتبطة ، فلا أزين من لقائه ولا أحسن من القائه ، ولا أفضل من
 معاملته ، ولا أجمل من مجاملته ، ولا أحلى من محادثته ، ولا أجلى من
 مناقشته ، لقى الشيوخ الاكابر ، وبقي حمده متعرفا من بطون الكتب
 والسنة الاقلام وأفواه المحابر كثيرا ما كنت أذكر بأوصافه ، وأفكر فى
 حمد يقوم بأوصافه ولم أدر أرد أم أرود ، وافد بقلمى على مجالس
 جود أو مجال سجود ، فأحشر اليه الالفاظ ، وأقوم بها فى مدحه أخطب
 من قس ايام بعكاظ لقيته بالاسكندرية فسمعت من لفظه جملة من
 تخميس أبى مهيوب لعشرينيات أبى زيد الفزارى وتناولت جميع التخميس

(78) فى بعض النسخ (الهوارى)

(79) (فى بعض النسخ) يجنبه (وفى بعضها) يجنيه .

من يده ، وحدثني به عن الاستاذ أبي العباس النبلي (80) سماعا لجميعه عليه ، حدثه به عن الناظم ابن مهيب المذكور وسمعت عليه تفقها بعض كتاب التنقيح للإمام شهاب الدين القرافي ، وحدثني به عن المؤلف شهاب الدين المذكور عرضا مني لجميعه عليه وتفقها . وسمعت منه بعض شرحه لكتاب ابن الحاجب الاصلى (81) وبعض شرحه للتنقيح واجازهما لى ، واذن لى فى روايتهما عنه ، وأجازنى سائر تآليفه وجميع ما يعلمه ويرويه اجازة تامة مطلقة عامة وكتب بخطه . ومولده فى ذى الحجة من عام ثمانية وستين وستمئة ، وممن نفتته بها من الرواة المتقين الله حق الثقة الشيخ الفقيه العدل شمس الدين أبو عبد الله بن الشيخ الإمام العلامة مفتى المسلمين كمال الدين أبى عبد الله محمد بن محمد عبد الرحمن القرشى الاسكندري حامى المجيزين ، وحامل لواء العدول المبرزين ، ومجدد ملابس الثناء الثمين ، ومحرر عرائس الالفاظ لحفظ ذمم العالمين ، ذخى الدهر ، فخر القطر ، وسر العدا ، وآفة الجزر ، ومالك بيض الطروس وسمر السطور ، وبالبيض والسمر ، وقار ما مثله وقار ، وماثر كأنها علم فى رأسه نار ، مفاخر طوالعها صبح ونهار . وشيم تتضاءل لها قطع الرياض ، وتحدث ولا حرج عن بحر الكرم الفياض ، وسجايا عريقة المجد ، ما جدة الاعراق ، خليفة بالمجد حميدة الاخلاق ، قد سقته العلوم زلالها ، ومدت عليه العدالة ظلالها ، وأحدثه الجلالة جلالها ، وأرشفته الاصاله عذبتها وسلسالها فعلا قدرا ولاح فى سماء السناء بدرا ، وصار لا ولئك الصدور صدرا ، وحق لمن أعلقت بهذا الشرف حبالته أن توارى أنوار الغزاة ذبالتة :

شرف يطل على السماك وسؤد كالصبح لا يسع العدا انكاره

(80) فى بعض النسخ ، النبلى

(81) ابن الحاجب عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصرى (570 — 646) له مختصر فى الفقه المالكى يسمى بالمختصر الفقهى والفرعى ، والجامع من الامهات ، تحدث عنه ابن خلدون فى (فصل الفقه) وعمن شرحه من علماء المغرب وعناية المفاربة به . (وفيات الاعيان ج 1 / 395)

لقيته بالاسكندرية بحانوت الوثيقة ، وحيث تأملت
معارفه تأمل الروضة الانيقة ، فسمعت عليه اجزاء كثيرة
وكبيرة ، ومنها جزء انتقى من الاخبار لابي بكر محمد بن القاسم الانباري
وسنده غيه مقيد في أوله ومن أصله نقلته ، وعليه صححته ، وقد قرأته
على غيره وسمعته ، واذن لي هو في روايته وأجازني جميع ما يحمله
ويرويه اجازة تامة مطلقة عامة ، وكتب لي بخطه ، ومولده أول ساعة
يوم الاربعاء ثاني جمادى الاولى سنة سبع وسبعين وستمائة ، وأنشدني
لامير المومنين على بن أبي طالب رضى الله عنه :

انما للناس منا حسن خلق ومزاج
ولنا ما كان فينا من فساد وصلاح
وممن تدمجت (82) معه وتمتعت به فيها صاحبنا الشيخ الفقيه
المحدث تقى الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عوام
الربيعي الشافعي ، سبط الشيخ الولي الشهير أبي الحسن الشاذلي نفع
الله تعالى به ، هو من كبار الطلبة الفضلاء ، وخيار السادة الفقهاء ،
وسليل الكرام والاكابر والاولياء صالح أراك سيرة سلفه ، وأعفاك من
كبره وصلفه ، واقتفى سنن مجده ، واقتدى في حمل الفضائل بأبيه
وجده ، اماما مدرسا وعدلا مبرزا ، ذاكرا للعرب وانسابها ، حافظا
لغاتنا وأدائها ، جذب من العربية أوغر نصيب ، وضرب في الحديث (83)
والفروع بسهم مصيب ، وشارك في جمل فضائل وجمل مسائل ، وحصل
من كرم الطبع وطبع الكرم على طائل ، مع افادته طلبته في تدريسه ،
ونصيحته لمستفيده وجليسه ، فلا غصيلة الا وفضل بحملها وحمل
فضلها ، وكان أحق بها وأهلها ، واخاني وصافاني فتجاذبنا المذاكرة ،
وتعاهدنا المراوحة للشيوخ والمبكرة ، وأفاد كل واحد منا صاحبه
بما تجلبه المذاكرة من وجوه الافادات وتفضل من المشاركة المباركة

(82) في الاصل ترجمت .. وهو خطأ

(83) في الاصل التحديث ..

وبذل الجد والمياسرة في لقاء أولئك الافاضل ، والاخذ عنهم بما أوجب
على ذكره معهم والحاقه بهم وازافته الى جملتهم :

حفظا على السؤدد الممنوع جانبه من أن يضام واشفاقا على الكرم

وسمعت عليهم بقراءته كثيرا ، وتحصل لي منهم بدلالته حفظا
كبيرا ، وأجازني الاجازة التامة وكتب لي بخطه وأنشدني أناشيد كثيرة
تقيدت في غير هذا ، ومن ذلك ما أنشدني ، وقال : أنشدنا شيخنا بخطه :
أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان بلغظه ، قال : أنشدنا
الفقيه الامام الاديب البارع ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ختام
الدين دانيال بن يوسف بن معتوق الخزاعي الموصلى لنفسه :

ألا ان أرض الغرب أفضل موطن تتساق اليه الواخظات، النجائب

ولو لم يكن في الغرب كل فضيلة لما حركت شوقا اليه الكواكب،

وأنشدني وقال : أنشدنا شيخنا السيد الشريف عز الدين أبو

اسحاق ابراهيم بن نور الدين ، أبو العباس أحمد بن عبد المحسن

القرافي الحسنى قال : أنشدنا المحدث : أبو اسحاق عبد الرحمن بن مكى

بن حمزة بن موقى الاسكندرى الحافظ اجازة قال : أنشدنا الشيخ أبو

القاسم عبد الرحمن بن مكى بن حمزة بن موقى السعدى الانصارى من

لفظه قال : أنشدنى الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم

الرازى اجازة . قال : أنشدنى الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن المظفر

ابن عبد الرحمن السلمى النحوى المعروف بالكمال لنفسه :

أسهرتني شجنا عليك ونمت عن شجنى ووجدى

وجعائتنى متقسمـا ما بين اعراض وصد

لا تقتلنى هجرة فيكون قتلى قتل عمد

واصل فان لام العذول فقل له واصلت عدى

وأنشدني قال : أنشدنا شيخنا عز الدين المذكور قال : أنشدنا
الشيخ بهاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الفضائل هبة الله بن سلامة
ابن مسلم الشافعي اللخمي سبط الشيخ أبي الفوارس
الحميدي قال : أنشدني الشريف الكوفي في قدمته علينا بمصر قال :
حضرت درس الشيخ محيي الدين محمد بن يحيى قال : فلما قضى
درسه قام رجل غريب ليس من الفقهاء فأنشده بيتين وهما :

رفاة الدين والاسلام تحيي بمحيي الدين مولانا بن يحيى
كان الله رب العرش يلقي عليه حين يلقي الدرس وحيا

قال فنزع قميصه الاعلى وأعطاه اياه وأنشدني قال : أنشدني
عز الدين المذكور قال : أنشدني الشيخ بهاء الدين أبو الحسن علي المذكور
قال : أنشدنا الشيخ بهاء الدين الطوسي قال : أنشدنا شيخنا محيي
الدين محمد بن يحيى لنفسه :

وقالوا يصير الشعر في الماء حية اذا الشمس لاقتة فما خلته صدقا
فلما التقى صدغاه في ماء وجهه وقد لسعا قلابي تيقنته حقا

ثم قال لي : أنشدني من شعر الاندلسيين ما (84) آخذ عنك واستفيده
منك فأنشدته لابن بكر بن مجبر :

دع العين تجنى الحب من موقع النظر

وتغرس ورد الحسن في روضة الخفر

امتعتها فيه نان تك لوعة صبرت وما ذم العواقب من صبر
فتور العيون النجل يطلب بالهوى وان غفل التفتير لم يغفل الحور

(84) سقطت (ما) في الاصل .

وزائرة والليل مرخ رواقه
حدرت قناع الصون عن صفح خدها
وراودتها عن لثمه فتمنعت
رثأ كلما أدمت جفونى خده
يطالبنى قلبى بتقبيل ثغره
ومن أين للظلماء أن تكتم القمر
فيا حسن ما انشق الكمام عن الزهر
وما عادة الاغصان أن تمنع الثمر
أشار الى قلبى بعينيه فانتنصر
لقد غاص فى بحر الجمال على الدرر

وأنشدته لابی الحسين على بن سعيد :

ما بين ملتف الارك غزال
رثا كلما أدمت جفونى خده
يملى علينا السحر من الحاظه
قولوا له يا راحما عشاقه
ما باله يمسو ورقة خده
ولحاظه رسل الى عشاقه
تجرى بجنة خذه الجريال (85)
ويميل قلبى قدده الميال
ويسيل فى ألفاظه السلسال
ان كان تنفع عنده الاقوال
ما هاجنى الا لها البلبال
أو ليس يعلم أنهن نبال

وأنشدته لابی محمد عبد الجليل بن وهبون :

ومنهف بادی العذار كأنما
لما استراب بما رأى من خضرة
ملك اذا كلمته بضراعة
واذا نظرت الى محاسن وجهه
ما كان أصبرنى لسيف لحاظه
عقد الغرام به على كتابه
فى خده جعل الصدود نقابا
صرف اللحاظ على الكلام جوابا
أفیت فيها رحمة وعذابا
لو أنه يسقى الجريح رضابا

(85) حمرة الذهب ، ولون الخمر ، « القاموس » .

وأنشدته لابی الحسن بن الزقاق :

وأغيد طاف بالكؤس ضحى وحثها والصبح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبرى قد نفحا
قلنا وأين الاقحاح قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقى المدام يجحد ما قال فلما تبسم افتضحا

وأنشدته لابی الحسن بن حريق :

كلمته فاحمر من خجل حتى اكتسى بالعسجد الورق
وسأله تقبيل راحته فأبى وقال أخاف تحترق
حتى زفيرى عاق عن أملى ان الشقى بريقه شرق

وأنشدته لابی اسحاق ابراهيم بن سهل الاشبيلي الاسلامى :

يا لائمى ان مت فيه أتئد أو ما الى أجفانه تحتكم
غرقى فى بحر هواء وذا ك الردف منه موجه الملتطم

وأنشدته من نظمى بديها :

شكوت هواء الى ردفه وهل يسمع الموج شكوى الغريق
وآرخصت لؤلؤ دمعى به ولم أدر كيف يباع العقيق
فقال لى الآن حصص الحق ، وها أنا أعترف للاندلسيين بالسبق ،
فقلت له ليس المشاركة لاعتراك بمنكرين ولتجدن (87) أكثرهم
شاكرين .

(86) كذا بالاصل والصواب وجنته .

(87) فى الاصل ولا تجد .

وفي صبيحة يوم الثلاثاء أول يوم من رجب الفرد المبارك من عام
سبعة وثلاثين المذكور اجتمعت به مع أخى أبى بكر محمد وكان
خروجه من بلدنا قنورية المذكور أولا في ضحوة يوم السبت
أول صفر خمسة وثلاثين وسبعمائة فلما قضى الله تعالى
حاجته وحجته ، وبلغه منها مراده وبغيته ، كر راجعا الى بلاد
الصعيد والديار المصرية فقيض الله سبحانه من أوقع خبرى عليه ، وألقى
جملته اليه ، فما راعنى الا دخول البشير على بقدومه ، واجتلاء غرته
مع تسليمه ، فتلاقينا بالتحية وتلافينا وبكينا حتى ابكيناه ووالينا بحمد
الله تعالى وأتينا وكم لله من نعمة علينا ، وأنشدته على البديهة بيتي
منصور الفقيه وهما :

على خير أوقات الزمان آيات على الطائر الميمون والبركات
قدمت فقرت بالقدوم عيوننا وقد كن أيام النوى قرحات

ولم نزل نسرح في روض من ذلك الاجتماع ، ونسرح ما وجدناه
من البعد والانقطاع ، الى أن تهيا نفرنا ، وتأتى في البر سفرنا ، فخرجنا
من الاسكندرية في يوم الثلاثاء ثامن يوم من رجب المذكور ، وسرنا في
بسيط من الارض عريض مرداه لا يخترقه النسيم بمسراه ، ويكاد
البصر يقف عند مداه ، بين مدائن عليها نضرة النعيم وبساتين اعتمارها
من التعميم ، وسرحات مونقة ، ودوحات مورقة ، ونخلات طلع ،
وخامات زرع ، تموج بدائعها موج البحر ، وتلوح طلائعها بين كتائب
الزهر من لم ير أرض مصر في أوان ربيعها ، وابان زروعها ، لم ير
منظرا نضيرا الى أن وصلنا الى مدينة (القاهرة) فدخلناها في آخر
يوم الاحد الثالث عشر لرجب من العام المذكور فنزلنا منها بقرب الجامع
الاعظم المشهور بجامع ابن طولون الذى بناه ابن طولون فيما يذكر
على مثال المسجد الحرام بمكة المشرفة طولا وعرضا ، ولما أنبت كافور

الفجر من المسك الغياهب ، وظهرت الشمس المنيرة على الانجم
الثواقب :

حمدت السرى اذ انزلتنى ربوعها وأيقنت أنى فى اغترابى موفق

وسرنا فى أقطار تلك الحضرة التى أرضها سندسية اللباس ،
وروضها متنوع الجناس ، وروائحها عنبرية الانفاس ، ومنظرها يجلب
أنواع الايناس ، فهى بغية النفس ، وغاية الانس ، ومنية الظرف ،
ومسرح الظرف وسلوة الفكر ، ونبعة العلم والذكر ، وشغل الخاطر
والذهن ، ومحل الهناء والامن :

ما عداها من جنة الخلد الا أننا لا نزال فيها الخلودا
رياضها تشرق ، وأطيافها تنطق ، وكأن بكل عود عودا يخفق :

وما كنت أدري قبل ذلك والهوى فنون ، بأن الروض يهوى ويعشق

وفتحت لى راحة القلب أبواب النزهة ، فأطلقت عنان طرف الطرف
نحو الجهة فرأيت فيها من المباني الهائلة والاسواق الحافلة والمساجد
العتيقة والمدارس الانيقة والمرباع البارة والمصانع الناصعة والازهار
والاشجار الباهرة والاثار العامرة والجنود الوافرة والامم المتكاثرة ما
تحرار فى ذلك الاوهام وتكل دون وصفه اللسن والاقلام ، القاهرة وما
أدراك ما القاهرة الظلال الوارفة والمياه الهامرة والارض الارضية
والروضات العاطرة منابر قام السرور فى منبر دوحها خطيبا ، ومشاهد

بذت مغانى الشعب طيبا ، الى أغصان عمقت الجداول خلاخل بسوقها ،
ولئالىء مثلت من الرياض بسوقها ، فمن حيث استقبلت تلك المدينة
أشرققت وكيقما لمحت أساريها برقت ومعلوم أنها قاعدة المشرق وأم
الدائن ومقر الملوك ودار الطمأنينة ، قد كمل الله حضرتها ، وجمل
نصرتها بأن قلد بها أمور المسلمين ، وخلد فيها العزو والتمكين للسلطان
الناصر الدنيا والدين أبى المعالى محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون

الصالحى قسيم الملك أمير المؤمنين أبى الربيع سليمان بن الخلفاء
العباسيين فاستمرت سلطنته الآن مدة من خمسين سنة فجاءت الدنيا
فى أيامه غضة ، وزهرة الايام بهجة ، لما منح الله على يديه من الامن
والسكون والدعة وظلال المسرة والهدنة فانسحب ذيل العز ، وانضرب
رواق الامن ، وانسدل ستر العافية على الملاء والكافة والاقطار النازحة
والغريبة وخصوصا على هذه المدينة وما ظنك بمدينة عذب فيها البحر
وفاض عليها من الجنة واستقبل بها النهى والامر وانحسر الناس اليها
فخيل لرائيها الحشر :

وافى اليها النيل من بعد غاية كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق بحسنها فمد يميننا نحوها وشمالا

ركبت بحر نيلها العذب فى جملة وافرة من الصحب أخلاقهم أعذب
من مائه وشمائلهم أرق من صفائه ، فاستويننا على جارية من تلك
الجوارى المنشئات وسابحة فوق لجة الماء العذب الفرات وتحسبها
جامدة وهى تمرمر السحاب وتنساب فى الحباب كالحياب ولما ضمت
الينا ، ودخلناها وقلنا اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ولا فرش
غير ريحان منضد ، ولا سقف غير كتان ممدد ، تمخر البحر ، فامتطينا
بأجوقتها مطاه ، وتذلل فصفعنا بأجنحتها قفاه وسرنا فى منزهات تلك
الاقطار الرفيعة الى أن قضينا أجمل الاوطار وتمتعنا من تلك المنازل
الرفيعة بالحدائق الغضة والنسيم المعطار ، بحيث تضاحك الورد والبهار ،
وتفاوح الروض والعرار ، وأرضها مخضر نبت صاغ النور تاجه ، وحاك
القطر ديباجه ، وسماؤنا ملتف أيك سال الماء لجينا بين أكنافه ، وحاك
الزهر وشيا بين اعطافه ، فماء الندى مسكوب ، ورواق الظل مضروب ،
والرياح تصفق والغصن يتثنى ، والقبر يصرصر والبلبل يتغنى ، والطيور
قد تكلم ، والعود قد ترنم وقد خيم السرور ، وتضاعف بتضاعف النيل
الحبور ، وبدا لنا يوم حسن ، وحسن يوم تمتت حسنه البذور .

يوم لنا والنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تغزو في الفرات بنا والماء مرتفع ومنحدر
فكأنما أمواجه عكن وكأنما دارته سرر

أخبرني هناك من أثقه من العلماء ، قال أخبرني أحد كتاب السلطان
انهم كتبوا وأحصوا المراكب الجارية في هذا النيل المعدة لا يساق الزرع
خاصة ، فألفوها تنيف على مائة ألف مركب ماعدا الزواريق الصغار
التي للصيد والركوب ، وغير ذلك فكأنها أكثر من أن تحصى وأخبرني
الشيخ الامام القدوة شمس الدين الكركي قال عد صاحب الوزير الملك
الطاهر وأحصى الجمال الداخلة الى القاهرة بالماء في كل يوم فبلغت
مائتي ألف جمل ماعدا البغال والحمير والسقائين الذين بالزقوق وغيرهم
فان ذلك شيء لا ينضبط ولا ينحصر وهذه الجمال المذكورة تحط بالمدينة
في كل يوم من أيام الصيف سبع آلاف وفي الشتاء أقل من ذلك ، قال
وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقى بالقاهرة فبلغت ستين ألف دكان
ما عدا السقائين الذين بالاكواز والاكواب في الطريق والاسواق وغيرها ،
ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به الا (المارستان) وحده وهو قصر عظيم
من القصور الرائقة حسنا وجمالا واتساعا ما لم يعهد مثله بقطر من
الاقطار أحسن بناء ولا أبدع انشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال
وانتماء من قد نعمت أدواحه وخبت على خضر الاغصان وزرق الغدران
أرواحه فلا غرو أن أمن ورقى ، ثم لما كسا وأطعم سقى ، آية نعمى
وفت بالميعاد ، وحسنا مثلها يعد للمعاد قد رويت جوانحه الصادية ،
وجمعت في شرعته السارية والغادية ، فها هو فخره بادی الغرر
والاوضح ، منبجس بالماء القراح .

متماثل بالحسن كيف لحظته
ينساب رونقه فتحسب أنه
ما شئت من أرض به وسماء
متسربل بنسيجه من ماء

لما رأى فيض الزلال أديمه طلب الغثور به من استحياء
فأراك دمة ضاحك لم تتحدر وتحيرت في مقلّة حواء
أو ثغر باسمه تهلل ظلمه وبه مجاجة ريقة شبناء
ليس الذى يجرى هنالك سلسلا لكن ذلك ترقرق الاهواء

أخبرنى الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركى المذكور أنه يكمل
فى كل يوم من المرضى الداخلين اليه والناقهين الخارجين منه أربعة آلاف
نفس وتارات يزيدون وينقصون ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من
مرض حتى يعطى احسانا اليه ، وانعاما اليه كسوة للباسه ودراهم
لنفقاته ، وأما ما يعالج به المرضى من قناطر الاشربة المقنطرة والاكحال
الرفيعة الطبية التى تسحق فيها دنانير الذهب والابريز وفصوص
الياقوت النفيس وأنواع اللؤلؤ الثمين فشىء يهول السماع ويعم ذلك
الجمع الى ما يضاف الى ذلك كله من لحوم الطيور والاغنام على
اختلافها وتباين أصنافها مع ما يحتاج اليه كل واحد ممن يوافيه ويحل
فيه لغرشه (88) وعرشه من غطاء ووطاء ومشموم ومذرور وشبه ذلك
مما هو معد على أكمله هنالك وما ليس مثله الا فى منزل أمير أو خليفة ،
وقد رتب على ذلك كله من الاطباء الماهرين والشهود المبرزين ، والنظام
العارفين ، والخدام المتصرفين ، كل ما هو فى معالجته موثوق بعدالته
مسلم له فى معرفته غير مقصر فى تصرفه وخدمته ، ولو استقصيت
الكلام فى هذا المارستان وحده لكان مجادا مستقلا بنفسه اذ فى مبانيه
الرائعة وصناعاته وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التى ترغل
فى ملابس الاعجاب ، وتسحر العقول والالباب ، ما يفتن النفوس ويكشف
أنواع البدور والشموس ، وتججز عن وصف بعضها خطى الاقلام فى
ساحة الطروس ، فما وقعت عين على مثله ولا سمعت بشبهه وشكله :

(88) فى بعض النسخ فراشة .

تجاوز حد الوهم واللحظ والمنى وأعشى الحجا لالاؤه المتضاوىء
فتنعكس الافكار وهى خواسر وتنقلب الابصار وهى خواسىء

وفى مصر مارستان آخر على مثاله ولكن ليست حاله كحاله فما
كل صهباء خمرة ، ولا كل سوداء ثمرة ، ولا كل حيوان انسان ، ولا كل
مارستان :

وما كل دار اقفرت دارة الحما ولا كل بيضاء الترائب زينت .

وبها الاهرام القديمة المعجزة البناء الغربية المنظر البديعة الانشاء
كأنها القباب المضروبة قامت فى جو السماء ، ولاسيما الاثنان منها يقصر
الجو بهما سموا واتسعا ارتفاعها مائة ذراع بالذراع الكبيرة من أحد
أركانها الى الركن الثانى ثلاثمائة خطوة وست وستون خطوة وأقيمت
من الصخر العظام تركيبها بديع الالصاق ، وهى محدودة الاطراف لا
سبيل الى الصعود اليها الا على خطر ومشقة فتلقى أطرافها المحدودة
كأوسع ما يكون بين الرحاب لورام أهل الارض بناءها لا عجزهم ذلك
وبها كان يجعل الطعام فى أيام يوسف عليه السلام ، وعلى النيل رجل
مبنى من صخرة فيه علامات لخروج النيل فى زيادته ونقصانه وقد وكل
به قوم يتعاهدونه فاذا خرج سقى جميع ضياعهم ومزارعهم ومزارعهم
وهم يزرعون على ذلك السقى ولا يحتاج زرعهم الى سقى آخر بقدرة
السميع العليم ، ومخرج النيل من جبل القمر ولا يكاد يتوصل اليه
أحد لبعد المشقة وطول المسافة وفى كتاب الاكتفاء ما نصه ، وكان عمرو
بن العاص يقول ولآية مصر جامعة تعدل الخلافة وقال نيل مصر سيد
الانهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب فاذا أراد الله أن يجريه
أمر الانهار فأمدته بمائها وفجر له الارض عيونا فاذا انتهت جريته الى
ما أراد الله سبحانه أوحى كل ماء أن يرجع الى عنصره انتهى ، ثم جلنا
من مصر فى أعظم المصر ، وحللنا منها أكرم المحل واسنى القطر ،

واجتليناها أوضح من البدر عند الفجر وأعطر من الزهر غب القطر
فنسى كل ذى غربة وطنه وودان لو قطع فيها عمره وزمنه وكفاك منها
قول القائل :

لعمرك ما مصر بمصر وانما هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحدود عينها وروضتها الفردوس والنيل كوثر

كنت أتردد بها الى المسجد العتيق الحافل الذى بناه عمرو بن
العاصر رضى الله عنه واليه ينسب اليوم فارى جامعا منيرا ومسجدا كبيرا
له صحن فسيح وسوار حافلة ومقاصر من العود عجيبة وتواريخ مكتوبة
بالخط الحافل المذهب كثيرة فمنها ما كان مكتوبا على المحراب ونصه
بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم
الآخر النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا وسيدنا الامام المستضىء
بأمر الله أبى محمد الحسن أمير المؤمنين أمر بتجديده الملك الزاهد
الناصر المجاهد صلاح الدين أبو المظفر يوسف وفقه الله تعالى
لطاغته فى سنة ثمان وخمسمائة ، وفى داخل القاهرة شاهدت المشهد
العظيم حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو
تابوت فضة قد بنى عليه بنيان محتفل يقصر الوصف ويقف الطرف فيه
ولا يحيط الادراك به مجلد بأنواع الديباج محفوف بأمثال السوارى
الكبار من الشمع الابيض موضوعة فى قواعد فضة خالصة ، ومنها مذهب
وقد علق عليه قناديل الفضة وصفف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبها فى
مصنع شبيه الروضة يقيد الابصار حسنا وجمالا ، فيه من أنواع الرخام
المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيّلون ولا يلحق
أدنى وصفه الواصفون ، والمدخل الى هذه الروضة المباركة على مسجد
مثالها فى الحسن والغرابة والترصيع البديع والامثال البديعة الصنعة
من الديباج معلقة على الجميع والناس من لازدحام على هذا المشهد
الكريم والاحداق به والانكباب عليه والتبرك به والتضرع لديه كل مرىء

هائل عظيم والامر فيه كبير يغوت التقدير ولكننا اختصرنا القليل من الكثير ، ووقفنا موقف العجز والتقصير ، (وبداخل القاهرة) أيضا شاهدت المشهد العظيم مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها فرأيت مسجدا عظيم الاحتفال قائما فى الحسن فيه من الذهب وأنواع الصنعة به يحصره العد ولا يجمع الا ذلك النضد ينتهى اليه الداخل بعد ثلاثة أبواب هائلة بديعة بين كل باب وباب غصاء واتساع نجرى بينها مياه غزيرة عذبة وفى قبلة المسجد باب من المسجد حافل فوقه مكتوب بالذهب هذا مشهد السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وفى داخله مسجد آخر أصغر منه جرما وأتم حسنا وأعظم اتقاناً وصنعة ، وفى قبلته باب بديع الى قبة عجيبة تتوقد ذهباً وتلألأ جمالاً تكل الافهام ، وتحار الاوهام فى نخيلها وتمثيلها . فمنها مشتهيات فى النقوش ، ومؤلفات ومختلغات فى الرقوش . وقد أنارت بالمخاوي ابهاؤها فتساوي صباحها ومساؤها ، وتحت هذه القبة الضريح المبارك حوله من الرخام البديع المجزع الغريب الترصيع وشبابيك العود البديعة التخريم وكواكب الفضة والذهب وقناديل التبر الخالص الأبريز واستار الديباج الغريبة التطريز وسوارى الشمع الابيض المتناهية الغلظ الرائعة الصنعة على قواعد الذهب والفضة . ما يستوقف الاحداق حسنا وجمالا ويختبل الاذهان الثاقبة اختبالا وترف ظلاله على المشهد الكريم أموالا وشاهدت (بداخل القاهرة) أيضا المسجد المعظم حيث مشهد السيدة زينب (89) رضى الله عنها وهو على هيئة هذا المتقدم الذكر ونوعه وعلى بابه مكتوب هذا مشهد السيدة زينب ابنة الامام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما ودخلت بخارج القاهرة المشهد العظيم المقدس حيث تربة زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وهو مثل ما تقدم من الصفة والترتيب ولهذا فى جملة أبوابه دفعة من الحجر الصلد المنحوت لوحا واحدا أعدت فى طولها تسعة

(89) فى بعض النسخ شهد السيدة رقية وهو خطأ .

أشبار وفي عرضها خمسة أشبار ، ثم قصدت القرافة وهى ما بين مصر والقاهرة بلدة كبيرة منفردة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها وهى احدى العجائب بما تحتوى عليه من مشاهد الانبياء صلوات الله عليهم وأهل البيت رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والاولياء ذوى الكرامات الشهيرة والانبياء الغريبة نفعا الله تعالى بحبهم وأفاض علينا من بركاتهم بمنه ، ومما رأيت فيها قبر أبى النبی صالح عليه السلام وقبر يعقوب أخى يوسف عليهم السلام وقبر آسية وقبر جماعة من أهل البيت رضى الله عنهم على كل واحد منها بناء حفيلى بديع الاتقان عجيب البنيان عليها توارىخهم مكتوبة باسمائهم منها قبر على السجاد زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وقبر القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن زين العابدين المذكور وقبر ابنه عبد الله بن القاسم رضى الله عنهما وقبر معاد بن جبل رضى الله عنه وقبر عتبة بن عامر الجهنى حامل راية النبی صلى الله عليه وسلم . وقبر أبى الحسن صانع مولى حديفة بن اليمانى رضى الله عنه وقبر عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه وقبر حليلة التى كانت رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر محمد بن أبى الصديق رضى الله عنهما وقبر أشهب وأبى القاسم صاحبى مالك رضى الله عنهما وعنه وقبر محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد المعروف بالسبتى رضى الله عنه وقبر الرجل الصالح المعروف بالاقطع المغربى رضى الله عنه ، وقبر بنان العابد رضى الله عنه وقبر القاضى عبد الوهاب والقاضى الانبارى وقبر ورش المقرئ وقبر شيبان الراعى وقبر الطبرى وقبر الرودبادى وقبر ذى النوى بن ابراهيم المصرى وقبر شيخه شقران رضى الله عنهم وقبر الرجل الصالح الزاهد المعروف بصاحب الابرى وقصته عجيبة فى الكرامة رضى الله عنه ، وقبر الناطق الذى سمع عند وضعه يقول فى لحدده يقول : اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، رضى الله عنه وقبر الصامت الذى يحكى عنه أنه لم يتكلم

أربعين سنة رضى الله عنه وقبر الجوهري الواعظ رضى الله عنه وقبور أصحابه بازائه رضى الله عنهم ، وقبر أصبغ بن الفرّج رضى الله عنه وقبر المزنّى صاحب الامام الشافعى رضى الله عنهما ، وقبر عبد الله بن الحكم وابنه محمد رضى الله عنهما ، وقبور جلة لا يحصى عددهم الا الله تعالى ، وبقبلى القرافة المذكورة بسيط متسع يعرف بقبور الشهداء وهم الذين استشهدوا مع سارية رضى الله عنهم أجمعين .

وقفنا على رسم الديار غسلمنا وقلنا له يا رسم أين نأوا عنا
وجدنا بدمع كالرذاذ على الثرى فسم المنادى وانصرفنا كما كنا
وما ذلك الا أن ربع ديارهم به كالذى نلقى فقد زادنا حزنا
فلما يئسنا من جواب ديارهم نزلنا فقبلنا الثرى قبل أن رحنا

ومما شهدت من المواضع المعظمة مشهد الامام أبى عبد الله الشافعى رضى الله عنه وهو مسجد عظيم القدر ومتاهى الاحتفال ، مفرط الاتساع ، يصل داخله اليه بعد دخول أربعة أبواب هائلة حافلة بين كل باب وباب فضاء واسع ، ومدى بعيد ، والمسجد كله قبة كبيرة فائقة الحسن ، فائقة الصنعة ، نادرة الاختراع فيها من الذهب الخالص والتبر المسبوك ما يغشى الابصار ويذهل الالباب ويفوت وصف الواصفين قد حار فيها أهل حران وأربت على مباني سجستان ونجران ، وصارت غاية فى السمو والاتقان وانعطفت بما يفضل معاطف التيجان الفائقة باقترانها لاقتران حواجب القيان ، وتحتها فى وسط المسجد المبارك الضريح المكرم له من الرخام المجزع ، الموضع والشبابيك المفضضة المذهبة الاستار ، المدبجة المطرزة ، والشمع الابيض أمثال السوارى العظام على قواعد الذهب والفضة ما يقصر عنه الوصف ، ويحار فيه العقل ، وبازائه قبور جله كرام ، وعند رأس المشهد المكرم سارية من الرخام الابيض منقوش بالخط الحسن ما نصه وان ليس

للإنسان إلا ما سعى ، وإن سعيه سوف يرى ، ثم يجزيه الجزاء الأوفى
هذا قبر السيد الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن
عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد زيد بن هشام بن المطلب
ابن عبد المناف جد النبي صلى الله عليه وسلم ولد رضى الله عنه سنة
خمسین ومائة وعاش الى سنة أربع ومائتين ومات يوم الجمعة آخر
يوم رجب من السنة المذكورة ودفن من يومه بعد العصر رضى الله عنه
وارضاه آمين وعند منتهى القبلة من داخلها مكتوب في الدائرة بالخط
العجيب والذهب الرائق ما نصه بسم الله الرحمن الرحيم :

الشافعى امام الناس كلهم فى العلم والحلم والعلیاء والبأس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه خير المذاهب عند الله والناس
له الامامة فى الدنيا مسلمة كما الخلافة فى أولاد عباس

والسلام ، ومما كتب فى القبة المذكورة من نظم شرف الدين ابن
عبد الله الدلاصى البوصيرى :

بقبر الامام الشافعى سفينة رست من بناء محكم فوق جلمود
وقد غاض طوفان العلوم بقبره
فقل استوي فلك الضريح على الجودي
ومما أنشدنى هناك بعض الفضلاء لبعضهم رضى الله عنهم
أجمعين :

زرت الامام الشافعى ولم أكن يوما زيارة قبره بالتارك
ووجدت مولای الحبيب يزوره وظفرت عند الشافعى بمالك

وبازاء هذا المسجد العظيم مدرسة مختلفة الصنعة سامية المنية
أعظم المدارس اتساعا وأعلاها سموا وارتفاعا فيها من المنازل الرفيعة

والرواتب الموقفة ، والمياه الجارية ، ما يقر بالعين ويملاً اليد بالمين
ويريك ذوائب الذهب في سبابيك اللجين ، قرأت بها وبالمسجد الاعظم
المذكور وسمعت من كتب الحديث النبوى تآليف جملة على امام ذلك
المقام الشافعى المعظم ولى الله تعالى الكريم عليه المتوجه اليه الشيخ
العالم الصالح تقى الدين أبى التقى صالح بن مختار بن صالح بن أبى
الوارس الاسندي رضى الله عنه هو من أحد المتقين وعباد الله المخلصين
قد سما بجلالة قدره ونبذ الدنيا وراء ظهره ، ووضع الله له البركة فى عمله
وعمره ، فظل يقطع ليله مستعبداً ، ويهش للجميل مبتدرا ، عالماً أنه
سيحمد عند صباحه السرى فحافظ على السنن وانتهج أقوم السنن ،
واعتصم من الطاعة باوقى الجنن ، حتى كأنه أبو حازم ، أبو الحسن ،
له علو ومعرفة فى الرواية ، وامامة كبيرة فى العلم والدراية ، ومراتب
علية فى الزهد والولاية ، وكرامتها عند الخالق أعظم الدرجات وأكرم
العناية ، وقد حيل الله النفوس على مودته والقلوب على محبته
وأنشدنى :

واذا أحب الله يوماً عبداً ألقى عليه محبة للناس

فما رمته طرف الا وأحب أن يفديه بسواده ، ولا نال أحد دعوته الا
ورأى بركتها فى نفسه وماله وأولاده ، نفعنا الله تعالى به ، وبالصالحين
من عباده بمنه وقد أثبت سماعى عليه واستوفيته فى غير هذا ، واجازنى
الاجازة التامة ، ومولده رضى الله عنه فى شهر رمضان المعظم من عام
اثنين وأربعين وستمئة بمدينة اعزاز (بالعين المهملة والزاي قبل الالف
وبعده) وهى من أعمال حلب ، ومن جملة ما قرأت عليه بلغظى بحيث
ذكر وهو عال جميع الاربعين حديثاً لآبى بكر محمد بن الحسين الآجرى
وحدثنى أنه سمع جميعها على الشيخ أبى العباس بن عبد الدائم بن
نعمة المقدسى يوم الجمعة العاشر لربيع الاول سنة خمسين وستمئة
بحق سماعه لها من الثقى بسماعه من أبى على الحداد بسماعه من

الحافظ أبى نعيم بسماعه من المؤلف أبى بكر الاجرى ، ومن جملة ما سمعت عليه جميع الاربعين حديثا البلدانية للحافظ أبى طاهر السلفى رحمه الله ، وحدثنى بها اجازة عن الشيخ أبى عبد الله محمد بن عبد الهادى بن قدامة باجازته من السلفى ان لم يكن سمعاه ولنطرز ذكر هذا القطر باسم سيده ووحيدده شيخ الشيوخ امام الائمة ، قدوة الفقهاء نخبة النحاة والادباء ودرة العلماء الفضلاء ، وحجة العرب العرباء ، أثير الدين أبى الحيان (90) محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان النغزى الاندلسى الغرناطى ، هو من سفر عن بدر الكمال الزاهر ، وسجر ببحر الكلام الزاخر ، وحسر عن ساعد الجد فى اقتناء المعالى والمفاخر ، فشأى كل ذى شأو ومغرب ، وأوتى منه زمانه بكل بديع مغرب ، تبليج منه الافق الاندلسى الغرناطى عن غرة غار منها غلق الصباح المشرق ، واشتمل منه الجو المصرى والمجلس السلطانى على تحرير ، أقبرت بفضلله صناديد المشرق ، فكيف يوصف هطل غمام ، أو ينصف أفضل امام ، لا يدانيه لقس اباد ، ولا موئل منه لسحبان وائل ، وايم الله ان المسرف فى وصفه لمقتصد ، وغير الرامى فى تعريضه لمقتصد ، نجم سرف سعووده المودن بانجاز وعوده ، وابراز موعده ، فتنقل فى سماء السعادة بدر اوحد فى ذروة الاجادة صدرا ، وبلغ من فنون العلم وضروب الادب الى أعلى المنازل وأسنى الرتب حتى طار ذكره فى الافاق ، وسار متواترا على السن الرفاق ، وضربت اليه أباط الابل واجياد العتاق ، وشدت الى لقاءه الرحال من أقاليم الشام واقاصى العراق ، فروى من بحوره العذبة ظماء الاكباد ، وغذى بأسرار علومه قلب الحاضر والباد ، وغير كثير ، فى وصف الاثير ، نثر الدر المنظوم ، ونظم الدر النثير ،

(90) اثير الدين محمد بن يوسف بن على النحوي الغرناطى (654 — 745) دخل مصر ودرس بها النحو والتفسير وكان من الذين وطدوا قواعد المدرسة النحوية الاندلسية ، اشتهر بكتابة (البحر المحيط) المطبوع سنة 1328 . ولخصه برهان الدين الصفاتسى وشهاب الدين احمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي الشافعى الشهير بالسمين .

دخلت عليه منتزعه الذي دنا له النيل ، فالزمان يخوله غيه يناء وينيل
والدهر قد سفر له عن محياه ، والزهر قد تبسم له وحياه ، والطير بين
يديه يخاطب اياها وتخاطب اياه ، فاقبل على بالبشر والترحيب ، ومهد
الى ارجاء جانبه ، وأراني بشاشة المحب عند لقاء الحبيب ، وتتبع
أخبار الاندلس وأهلها ، وأعرب عن سيرها الحميدة وفضلها ، وأنشدني
من أبيات له :

وبيننا نسب نرعى وان بعدت لكوننا ننتمى فيها لاندلس

قرأت عليه بعض القرآن العظيم بالقراءات السبع بقراءة الامام
أبي عمرو الداني وبالأدغام الكبير لابن عمرو بن العلاء وبقراءات يعقوب
الحضومي جمعا بين روايتي روح ورويس عنه ، وأخبرني أنه قرأ بحرفي
الحرمين جمعا ماعدا من أول سورة مريم الى آخر القرآن على أبي
جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الانصاري شهر بالفزاز بسنده
المشهور ، وقرأ عليه جميع كتاب التيسير ثم سمعه ثانيا عليه ، وأخبرني
أيضا أنه قرأ بالقراءات السبع على الشيخ أبي العباس أحمد بن علي
بن عيسى بن عباس الرعيني الشهير بالطباع ، وأخبره أنه قرأ بها
على الخطيب الجليل المجاب الدعوة أبي محمد عبد الله بن محمد بن
حسين العبدري الشهير بالكواب ، وقرأ أبو محمد الكواب على الاستاذ
الجليل أبي بكر محمد بن علي بن حسون الحميدي على شريح بن محمد
ابن شريح بسنده ، (وقرأ أيضا) بالقراءات السبع جمعا في ختمة
واحدة على الشيخ أبي الطاهر اسماعيل بن هبة الله بن المليخي بقراءته
للسبع على أبي الجود غياث بن فارس بن مكي اللخمي المنذري ، وقرأ
أبو الجود على أبي الفتوح ناصر بن الحسين الزيدى الخطيب بمصر
وقرأ أبو الفتوح على أبي الحسن علي بن أحمد الابهري الصيني الضرير ،
وقرأ على الاهوزي ، وقرأ أبو الفتوح أيضا على أبي الحسن بن يحيى
ابن الفرغ بن الخشاب المصري ، وقرأ على أبي العباس بن النفيس ،

وممن سمعت عليه وترددت اليه واحتلفت الى منزله واعترفت
بفضله وتطوله ، الشيخ العالم الكبير تقى الدين أبو الحسن على بن
عبد الكافي السبكي امام من أئمة الشافعية ، وعالم من كبار علماء الديار
المصرية ومن يعترف له بالرتبة العالية ، ويرشح للخطبة الكبيرة القاضوية
له عدالة الاصل وأصالة العدل واصابة النقل ورزانة العقل وجزالة القول
والفعل ومثانه الدين والفضل ، الى تحصيل وتفنن وتأصيل ، فى المنقولات
والمعقولات وتمكن ونظر راجح وحفظ راسخ وتقدم فى التحديث والرواية
عال شامخ ، كريم شهد له العيان اليه يعزى البيان ، ومن بحره يخرج
الؤلؤ والمرجان ، الى آداب غضة وغضائل مرفضة ومساع كغرتة
مبيضة :

فمساعيه شهود أنه خير فرع جاء من أكرم أصل
لقيته بمنزله من القاهرة فتراكت على سحائب أياديه الهامة وأسمعى
كل مسموع مفيد ولم أزل من كرمه الواكف كل يوم فى عيد ، ولما أكملت
سماعى عليه واستوفيته لديه رسم لى الاجازة التامة العامة بخطه رسما
كملت أوصانه وأوجبه فضله وأنصافه قرأت عليه كثيرا من شعر الامام
أبى عبد الله الشافعى رضى الله عنه فاستحسننت منه قوله :

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسى من هم العداوات
انى أحببى عدوى حين أبصره لادفع الشر عنى بالتحيات
ولست أسلم ممن ليس يعرفنى فكيف أسلم من أهل المودات

وممن سمعت عليه اياما وشفيت برى الرواية عنه أواما ، الشيخ
العالم المحدث تاج الدين أبو محمد عبد الله بن على القلعى الاطفيحى
أحد المشيخة الدين تقرظ بحلى أنبائهم الآذان مصيخة غترشحوا للعلاء ،
وتوشحوا بغر الحلى ، وكرعوا فى بحر علم لا تكدره الدلاء ، طلب العلم
من صغره ، ولازم كبار رجالة ، وعمر طويلا وروى وأسند كثيرا ففتحلى

من علو الرواية أجمل حلية ، وأخذ عن جماعة من العلماء عليه فهو فسى
الرواية وحيد عصره . وفريد دهره . مع مشاركة في معارف أخرى
واستثمار في جميع ذلك بالخطوة والاثر . وإذا يراجعك الحديث فخذ
منه وحدث عن أبي ذر . لقيته مرار كثيرة وسمعت عليه جملا مفيدة .
وكتاب شرف أصحاب الحديث للحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت
الخليل البغدادي . وسمعت جميعه عليه بقراءة شيخنا معين
الدين ابن عبد الله محمد بن فتوح المصغوني
وبقصد الرواية عنها بحق اجازتهما من الشيخ أبي العز عبد العزيز عبد
المنعم بن علي بن نصر بن منصور بن هبة الله بن الحيق الحرائي
النميري بسماعه عن أبي القاسم ضياء بن الخريف بسماعه من المصنف
أبي بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الانصاري بسماعه من المصنف
أبي بكر أحمد بن علي المذكور واجازني الاجازة التامة وكتب لي بخطه .
سمعت بها أيضا . وقرأت على سوى من ذكرت . (ثم) خرجنا منها في
صباحية يوم الاثنين الثامن والعشرين لرجب الفرد من عام سبعة وثلاثين
المذكور مستقبلي الأرض الصحراء الجذبة الفقراء حتى تحار فيها القطا .
ولا تهتدي اليها الخطا . ويعدم بها الماء . وتنضن عليها السماء . ويفنى
فيها الزاد . ويعيب بسلوكها العباد . نحدو بالجمال . ونخفض الاقتاب
لرفع الرحال . ونقطع بالسير موصول تلك الرمال . حتى اشرغنا على
مدينة (غزة) فدخلناها ضحوة يوم الثلاثاء السابع اشعبان المكرم من
العام المذكور وقد :

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر ودب عذار الخلل في صفحة النهر

فزينت الأرض مشهورة . وحلة الروض منشورة . والبسيطة مدت
بساطا مغوفا . واهدت من مطارف وشيها وزخارف نورها الطافا
وتحفنا :

فالجو رقرارق الشعاع مفرق والماء فياض الآتى معسجد
والارض فى حلى الربيع كأنما قطف الغمام لؤلؤ وزبرجد
فأرحنا فيها تعب الابدان ، وسرحنا منها فى بلد من أحسن تلك
البلدان ، بلد حسنه يغقه من كان بلايدا ، حتى يعود - ليبدأ ، فسيحة
الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ،
ما شئت من منظر عجيب ، وجانب رحيب ، وبسيط خصيب ، وساحل
قريب ، ومكان مؤنس لكل غريب ، يزهر بالحسن المحض ، والنور الغض،
وناهيك بالشام ، شامة الارض كما قال عرقلة الدمشقى :

هذا هو الزمن الربيع المونق والعيثة الرغد التى هى تعشق
فعلام تصحو والحمام كأنها سكرى تغنى تارة وتصفق
وتلوم فى حب الديار جهالة هيهات يسلوها فؤاد شيق
والشام شامة وجنة الدنيا كما انسان مقلتها الغضيفة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضى ومن الشقيق جهنم لا تحرق
سيما وقد رقم الربيع ربوعها وشيا به حدق البرايا تحدق
فى روضة ضحكت ثغور أقاحها لما بكأها العارض المتدفق
غبنتا ببعض بساتنها وهناك جريان الانهار ، وحفيف الاشجار ،
وتغريد الاطيار ، ما أذكر قول ابن حصن كاتب المعتمد بن عباد :

وما هاجنى الا ابن ورقاء هاتف على فنن بين انجيزة والنهر
مفستق طوق زوردي كللى موشى الطلى أحوى القوادم والظهر
ادار على الياقوت اجفان لؤلؤ وصاغ على الاجفان طوقا من التبر
حديد شبا المنقار داج كأنه شبا قلم من فضة مد فى حبر

(99) شاعر دمشقى من شعراء صلاح الدين توفى سنة 567 ، (الاعلام)

توسد من فرع الاراك أريكسه ومال على طى الجناج من النحر
ولما رأى دمعى مراقا أرابه بكائى فاستولى على الغصن النضر
وحت جناجيه وصفق طائرا وطار بقلبي حيث طار ولا أدري !؟

وأقمنا حتى بدا النور ، وتكلم العصفور ، وسرنا نحت السرى ،
ونعاصى الكرا ، حتى ذهب الظلام وأشرفنا على مدينة الخليل عليه
السلام ، وأشرق لنا تلك الربا والاعلام ، فدخلناها فى ضحوة يوم
الخميس التاسع لشعبان المذكور فحالت منها قصرا عظيم البركة ظاهر
الرحمة ، لائح الانوار ، كريم المئثر ، والاثار ، ينبى عن الشام بطيب
أنبائها ، وحسن آلائها . ورقة هوائها ، وبهجة بهائها ، وجدا جداولها ،
وجنا جاذلها ، وتضوع أريج أسحارها وتتنوع بهيج أوهارها ، وريا
رياضها ورونق جواهرها وأعراضها ، وغرة أرضها وصحة هوائها وقنة
أمراضها :

بلاد بها الحصباء درو تربها عبير وأنفاس الرياح شمولى
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل

وقدمت والزمان فى عنفوانه ، والربيع فى ريعانه ، والروض فى
حسنه وأحسانه والزهر فى زهره وزهوه ، والطير فى شوقه ، وشدوه ،
والدوح بالورق بين أوراقه فى جدوده ، والنوار قد شب وشاب ، والهزار
قد لب ولاب ، والعندليب قد طرب وغنى ، والحبيب قد ظرف وتجنى ،
وللاندية أنداء ، وللالودية أوداء ، وللصبا صبايات ، وللبيب لبانات
وللشمال شمولى ، وللقبول قبول ، وللعرار شميم ، والباهر نسيم ،
وللنرجس عيون وللورد وجنة . وللكامم أجنة ، وللعمام دجنة وللاقاح
ثغور ، باسمه وللأغصان قدود ناعمة وللأفنان غنون ، وللحديث شجون
ولجبهة الغدير من حركة النسيم غزون ، ولهزة المساري اعطاف يقال
لها غصون :

والماء تحت الغصن مطرد والغصن فوق الماء منعكس

فأويت الى ايوان، ونزلت أحسن مكان، وأمكن احسان ، ثم دخلت المسجد الاعظم فرأيت من حسنه عجبا ، ومن بنيانه ما شئت فضة وذهبا ، لا تدرك مبانيه السامية ، ولا تلحق آثاره العالية ، له أبواب حافلة من الحديد وشباك منه بديع ، وبنيان بالرخام والاحجار العظام الهائلة المنحوتة الضحام ، عددت في طول الحجر الواحد منها أربعة وثلاثين شبرا ، وفيها أكبر من ذلك وأصغر ، قد أسس ذلك المسجد العظيم عليها. وبني ظاهره وباطنه منها فجاء جامعا عجيبا واسع الساحة ، بديع الصنعة ، أحرق بجميعه سور جليل ، بناؤه من الصخر الجسيم ، قد جمع الحسن والحصانة والعلو والمتانة ، يشرق بياضه على بعد المتأمل وكذلك حال المدينة منازلها وقصورها من الاشراق والبهجة التي تشوبها خضرة الحدائق المتلفة بها المكتنفة بساحتها ، وداخل المسجد الاعظم موجه القبلة بالرخام المجزع المختلف الالوان ، الغريب الترصيع الفائق الحسن قد أفرغ فيه الذهب المضروب والتبر الخالص افراغا ، وفي وسط المسجد الكريم ، التربة المقدسة تربة الخليل أبينا ابراهيم عليه السلام قد جن بها من الشماعات العظام المذهبة والاستار المكللة المطرزة والمصابيح البديعة المموهة كل حسن رائع رائع ، وامامه ضريح زوجه رضوان الله عليها وتجاه ذلك من الجانب الجوفى قبة أخرى عظيمة القدر متناهية الاتقان تحتها ضريح النبي يعقوب عليه السلام وامامه زوجه رضى الله عنها وتحتها طبقة وقبة فيها ضريح النبي يوسف الصديق عليه السلام والاستار المدبجة والرسوم المذهبة بأسمائها المباركة على جميعها والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك كله وما بين المسجد الكريم والقبة الجوفية صحن عظيم كبير جدا فيه في المسجد أيضا هو مجتمع الواردين والمقيمين من الاغنياء والفقراء والامراء والكبراء للضيافة المباركة ضيافة لخليل عليه السلام في كل يوم بعد صلاة العصر على توالى أحقاب الدهر وفيه حضرتها مع جملتهم متبركا بذلك ثم اختلفت

الى لقاء الفضلاء وأخذت عنم بذلك القطر المبارك من العلماء ، منهم شيخ الوقت سناء وسنا وعلمنا وديننا الشيخ العالم الصالح شمس الدين أبو عبد الله محمد بن كافل الشافعي رضي الله عنه شيخ العلم والوقار ومحل المناقب المغرسة في أرفع البقاع وأمنع القرار وأهل المكارم السنية الانوار السنية الآثار نزيه الاحوال نبيه القدر زكى خلال ما عرى من أثواب عفاف ولا تعطل من حلى برو انصاف له الحكم الظاهرة والنباهة الحاصرة والنزاهة التي أدعنت لها الدنيا وترجى لها الآخرة غما قيس ابن عاصم منه بأحلم ولا عبد الرحمن بن القاسم بأعلم ، ولا الاغلب ممن سالم بأجل في النفوس وأعظم ولى القضاء بعدما أكره عليه وجذب راغم الانف اليه ، فلم يعلق به طبع ولا زال من الزهد والورع بمرءي ومسمع ثم نبذ الامر وخلاه ، وأسلمه لمن ولاه ، تخلى هو لعباده مولاه فهو الآن بذلك المسجد العظيم والمقام النبير الكريم لا يفتر من العبادة ولا يدخل منزله الا للعادة ، الله أكبر حين تسئله وحى على الفلاح . سمعت من لفظه هناك بين المنبر والمحراب أجزاء غير واحدة وأستفدت في مجلسه غير ما فائدة وسألته عن أشياخه فأخبرني أنهم جماعة كبيرة منهم الشيخ الزاهد أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الرقى الشافعي نزيل دمشق رحمه الله تعالى سمع عليه كثيرا وأنشدني لنفسه :

وصل الحبيب لسسم الهجر ترياق
أما السلو فدين لا أدين به
أم كيف يجمل في سلوى جمالكم
قلبي القريح عليكم حشوه حرق
لا غروان كان قلبي شيقا قلقا
ان أبعدوني فأهل للبعاد وان
وقربه لاسير البين اطلاق
وكيف يسلو عن الاحباب عشاق
وبيننا في الهوى عهد وميثاق
ولوعة وصبابات وأشواق
قلب المحب الى الاحباب تواق
هم قربوني فان القلب مشتاق

أنشدنيها عن ناظمها المذكور وكتبتها من أملائه وصححتها بعد قراءتي عليه ومن شيوخه أيضا الشيخ أبو الحسن علي الواسطي قال لي وكان رحمه الله ما انقطع عن الحج والزيارة مدة حياته فسأله أهله أن يقيم معهم ويدع الحج سنة واحدة فلما عزم على ذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال له يا علي عزمتم على الإقامة عنا . فقال سألني الأهل في ذلك فقال له ان أقمت عنا أقمنا غيرك مقامك ، فلما استيقظ عزم على الحج والزيارة في ساعته وسأل الله تعالى أن يجعل قبره ما بين الحرمين الشريفين فتوفي ما بين بدر وحنين رحمه الله تعالى ، وقد سمعت عليه أبعاض كتب كثيرة وتناولتها من يده وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة وكتب لي بخطه .

ومنهم علم الاعلام وامام الاسلام الشيخ العالم الراوية شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم الاموي القرشي . هو الامام الذي رفعه العلم قبل شبابه وعرفه بركات ما مله الحميد وطلابه ومهد له من السعد في نيل القصد رحيب مغناه وفسيح جنابه ، وسهل له آرابا وأوطارا ، ولم يزل مترسما من أشرف الافعال وأعرق الاقوال من معالم المآثر ومآثر المعالم ، وأعيان ذوى الاقدار والاختار أعلاها مقدارا ، متسنما من مراتب الصفات وصفات المراتب أقصاها منالا ، وأسماءها منارا ، مترسما من أخلاق المجد ومجد الاخلاق أزهارها نظارة وأنظرها أزهارا ، متحليا من الشيم الفاضلة بأنفسها دارا ، ومتحليا في سعادتها الشارقة بدرا متجنبيا عن كل ما يعقب الاقبال على السعادات ادبارا ، محرزا في ميدان طهارة الاردان خصل السباق ، متميزا في عنفوان شبابه بحسن الخلق واحسان الاخلاق ، مثمرا لرأس مال العفاف ، ساحبا من حله الضافية الافواف ، مقبلا على ما يزيد مجده مآثرا وآثارا الى رواية فاز بفريدها الثمين وعلقها ، ونام على ليل اهمالها وقام بحقها ودار حول قطبها ، ومرقى مطالع أفقها وأنعم بها سحبا ومدارا الى علوم حديث اقتصر عليه مع أدواته الثابتة الفضائل الواضحة

الدلائل اختصارا ، وحصر أفنان خمائله الباستل وقد تناءت مساقا وتناءت اوراقها وأزهارا . وكرع في مشارعها السلسبيلية ومناهلها الزلائية . آمنا صدرا واصدارا وعطف على محلها المرغوع ، واستند اليها استناد المحمول الى الموضوع . وأسند من حديثها الحسن الصحيح لا المختلف الموضوع أثارا وأخبارا الى المنصب الذي أحسب مناد والمنسب الذي أراد في المحتد القرشي متمناه والبيت الذي قر على عمده المجد قرارا ، متخذا للورع دثارا . وللزهد شعارا ، فاشتجرت في الغابر والسالف بفضلها التالد والطارف اشتجارا . وظير في الطهارة والنزاهة علما يحمل نور الانارا . فغذب في مشارعها مشربا وثبت في مذاكبها كبكبا ، وسرى في منازلها السعود كوكبا سيارا ، والى مكانة في العلماء معروف قدرها . مشاهد بتصديق خبرها الحسن خبرها . ذائع عرفها ونشرها وجلالة في الحساب لا تنكر معارفها ولا تخلق برودها الفخفاضة ومطارفها ، ولا يتقلص من ظلالها السابعة ممدودها ووارفها اعظاما لمحلها الرفيع واكبارا . فحين ساغ له هذا المشرب الزلالى العلمى العلمى ورد وارتوى ، وعلم أنه ظفر من خالته المنشودة وبغيته المقصودة بما ابتغى . ونوى ، فألقى عصى التسيار في مناهج لقاء أولى العلم الاخيار واستقرت بعد النوى استقرارا ، وأقبلت على افادة العلوم . بين تلك المعاهد الشريفة والرسوم بساحة سنية ورساخة علمية عالية منارا ، ساطعة أنوارا متصلة عوائد الدينية وفوائد العلمية بقاء واستمرارا . فتجلى الشك عن اليقين ، وتسفر عن مثل الصبح المبين أسفارا غيا هو محمول من الترفيع والتعظيم على واجبه مكفول من البر والتكريم بمزيده ومتعاقبه قد تجلت له صور الرعاية والمبرة شموسا وأقمارا ، وتحلت به من ذلك الافق المقدس أزمانا وأعصارا ، متصلة الاشراف ومشرقة الاتصال ليلا ونهارا :

كساهما وقد عاث فيها المشيب
فلا سلب الله ثوب البقاء
برونسق أيامها الاولى
عنه وهنأه ما خوله

لقيته بالحرم الخليلي الشريف فسمعت فيه كثيرا من حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الاجزاء والكتب في ثمن عشرين
وأجازني الاجازة التامة المطلقة العامة وكتب لي بخطه ، وأتينا
جماعة كثيرة جدا ومولده رضى الله عنه بطلب المدرسة في سنة بضع
وستين وستمائة (101) خرجنا منها ضحوة يوم الاثنين عاشر
المذكور عشي ذلك اليوم بنفسه دخلنا مدينة بيت المقدس كلأها الله
تعالى .

هي بلدة الافق المنير ونجمه ، والنجم الذي لا تغطي صورته
وصلناها والليل في سن الاكتحال وأيدينا ممتدة بالشكر لله تعالى والابتغال
غوافينا مدينة واسعة الرقعة طيبة البقعة ، مسامية الانتفاع ، مشرفة
البتاع مباركة الاغوار والتلاع ، عذبة المراد ، بمنزلة الابرار ، بمرعة
الجنبات ، متنوعة النبات ممدودة الظلال ، بمودة الخلال ، بأمرولة
السعادة مسعودة الآمال ، ضخمة البناء ، واسعة الفناء ، تشهد لسكانها
بالثراء والسناء ، قد أخذت من كل المحاسن نصيبا ، وفوقفت الى هدف
الفضائل سهما مصيبا وملئت ظرغا وأوتيت من كل شيء نصيبا :

محل كأن الشمس تخجل كلما نضت توبها عن معطفية مغيبا
تتم رياح الخلد منه لاهله وبضفح تسنيم ويرثح طيبا

ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مدانبه انسياب الراقم بكل
سبيل ، ورياضات تحي النفوس بنسيمها العليل تتبرح لناظرها بمجتلى
صقيل ، وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل ، فنزلنا منها بمنزلة
بديعا قد عذب مأؤه ، وراق روضه ، ورق صفاؤه ومهاؤه ، وتغسحت
مساحاتها ، وتأرجت أرجاؤه :

وكم مبسم للاقحوانة حوله مؤلفه ريق من الطل أشنب

ولمة حقف لم يرمها مخیل

من الريح يسرى أو من السرب يلعب

يقر بعينى أن تفىء ظلاله وان يتثنى دوحه المتأشب

وان كان لا يمضى النسيم بغصنه اذا اجتاز الا خائفا يترقب

ثم قصدت الحرم الشريف ، والمسجد العظيم المنيف ، الذى بارك
الله حوله ، وعرفت كل أمة فضله ، المسجد الاقصى موضع المعراج
والاسراء ، وكفى بهذا شرفا وفخرا ، فرأيت بقعة لها نور ، وفضل
مأثور ، وشرف معلوم مذكور ، ومسجد له حرمان ، ومقام تخطر فيه
خطرات ، وتعرض مقامات ، ومحل تفيض عليه بركات . وتستجاب فيه
دعوات ، ومكان يمكن فيه الالتفات ، وتقتصر عنه الصفات ، وتكل فى
تصنيف محاسنة الياءات والالفات ، قد جمع شرف المقدار الى طيب
التربة وفضيلة الدار ، وشهرت مفاخره ، غاية البقاع تفاخره ؟ وراقت
محاسنه فلا منظر يحاسنه ! وفاقت مئاثره جميع من يكثره ، وأمتع
بكل سليم الود سلم وحيا ، وأطلع نور البشر فى أفق المحيا :

كأنه من حسنه لم يزل يستخدم التوفيق والا سعدا

رست بجنائه وعلا سمكه فطاول الجوزاء والفرقدا

وهذا المسجد الشريف هو أعظم مساجد (1) الدنيا طونه سبعمائة
وثمانون ذراعا وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا فيكون تكسيه فى
المراجع الغربية مائة مرجع ، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية
وأبوابه خمسون بابا يطيف به سور سعته ثلاث خطوات قد أسس

(102) ن 4 رست بجنائه

(2) راجع هندسة بناء المساجد الاسلامية فى المغرب وتأثرها فنن المعمار الشرقى
الاسلامى والرد على من يزعم انها تأثرت (بالبازيليك) الرومانية فى كتاب
الحضارة المغربية عبر التاريخ . للحسن السائح .

بالحجارة العظيمة وألواح الكبار المنحوتة الهائلة بنته الجن لسليمان عليه السلام والمفتوحة الآن من أبوابه اثنا عشر بابا كل باب منها له الوجه المنقش المحسن المرقش فيها باب مصفح بالعقيان واللجين مغمّد بهما قد قام على ما راق الابصار وأعجب النظر (ومنها باب الرحمة وباب التوبة بابان من الجهة الشرقية وروى المفسرون عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعن ابن عباس أيضا في قوله تعالى فغضب بينهم بسور أنه سور بيت المقدس الشرقي له باب يسمى باب الرحمة من بيت المقدس قال : كعب باطنه المسجد . وظاهره وادى جهنم وفي الجهة القبليّة المسجد الأعظم الحافل الذي عليه اليوم اسم المسجد الأقصى فيه الخطبة والجمعة والمنبر الذي جمع الله فيه من كل ابداع عجيب واختراع غريب والمقاصر التي لا نظير لها غرابة صنعة وجود انشاء والسواري المفضضة الملونة من ألوان شتى من حمرة قانية وصفرة فاقعة وبياض ناصع ومن الجبرية (104) الحالكة الصاغية ومن الخبرية المجزعة العجيبة البديعة كلها مطلية الرؤوس بالذهب الذائب والتبر الخالص وقد قامت بين يد المحراب منتظمة ، به عظمة جليلة منقسمة على أفنان معقودة بأقواس محنية متراكبة مدخلة على ألوان شتى ، وتصنيف غريب ، مذهبة ما دخلها في التثمين والتسديد والتربيع بتذهيب مشجر مورق بالذهب مصنف محكم قد رونق الحسن استتمامها واستوفت من حظوظ البراعة أقسامها ، لها منظر رائع ورواء لامع فتراها تشتعل ذهباً وتستقل عجباً ، فيها توارىخ مكتوبة بالذهب في أرض غيروزية (105) وفي أرض حمراء زنجفورية (وبأعلى المحراب) مكتوب بالذهب في أربعة أسطار ما نصه ، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الأقصى

104 في بعض النسخ الجبرية الخبرية وبأعلى النسخ الخبرية ، والخبر مشجر السدر والاراك .

105 في الاصل بدارض بيروزية ،

الذى هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن أيوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا عندما فتحه الله على يديه فى شهر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يسئل الله ايزاعه شكر هذه النعمة ، واجزال حظه من المغفرة والرحمة (وبشرقى) هذا المسجد متصلا به وداخله فيه المسجد المبارك ، الذى بناه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبجوفه تربيعة خلفها محراب زكرياء عليه السلام ، ومكتوب عليه بالذهب يا زكرياء انا بشرناك بسلام اسمه يحيى ، وبخارج المسجد الاعظم من ناحية المشرق مسجد بقبتين ، يعرف بمسجد عيسى ، وفى شرقيه باب له مدارج كثيرة تفضى تحت الارض الى موضع كبير حسن كمسجد فيه مهد مصور من الحجر الصلد يذكر أنه مهد عيسى عليه السلام ، وبغربيه مسجد حسن للمالكية يسمى بمسجد المغاربة تلاصقه من ناحية الغرب مدرسة حافلة تسمى الفخرية ، وبخارج المسجد الاعظم صحن عظيم كبير مثمر بأنواع الثمار والاشجار الكبار المختلفة الانواع ومن أكثرها الزيتون ، وفيه أجباب كثيرة ذكر عبد الملك بن حبيب بسنده أن عمر بن الخطاب لما قدم بين المقدس خرج رجل من أصحابه يستسقى فى جب سليمان وهو جب فى داخل المسجد فخرت دلوه فى الجب فنزل بها يستخرجها فبينما هو يطوف فى الجب اذا أتاه ملكان فأخذا بعاتقه فذهبا به حتى أدخلاه الجنة فجعل يسريان به فيها فكان كلما مرا به على شجرة لها ثمر يمد يده الى ثمرها فيؤخره الملكان حتى مرا به على شجرة ذات أغنان فمديده فأخذ ورقة واحدة فقال له الملكان لو ملكت يدك لسرنا بك الى يوم القيامة ثم انصرفا به الى الجب فخرج عند صلاة الظهر فأتى عمر فأخبره بالذى كان وضبط يده على الورقة فقال عمر ، أضمم يدك عليها ثم بعث الى كعب الاحبار فأتاه فقال يا أبا اسحاق ! هل تجد فى علمك أن رجلا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة ثم يخرج منها قال نعم يا أمير المؤمنين قال فهل تسميه قال نعم فهو شريك بن حماسة النميرى قال فانظر هل تراه فنظر كعبا مليا

ثم قال هو ذا فقيل لكعب صف الورقة قال نعم كانت مثل الكف العظيمة
أشبه شئ بورق الزراقين يعنى الخوخ غفى بيت المقدس اثنا عشر جبا ،
ليس فيها جب أطيب ولا أعذب ولا أبرد من هذا الجب
وهو يسمى بيير الورقة انتهى ، وفى هذا الصحن ساقية ماء تأتى
من مسافة شاقة ومهوى بعيد من الارض قطعت لها الجبال وصدعت لها
الصخور الجليلة صدعا بالمال الجسيم والايدي الشديدة حتى أنصبت
منها المياه على المسجد الاقصى فاروت وأغدقت وفاضت وأفضت الى
(خسة) من رخام كبيرة أمام المسجد الاعظم فى وسطها فوارة يجرى
فيها الماء (وفى وسط هذا الصحن) صحن آخر عال مرتفع يصعد اليه
بأدراج عالية كثيرة من جهات ثمانية وهو مغروش بالرخام الابيض وفى
وسط هذا الصحن الاخير المرتفع القبة العظيمة القدر الكبيرة الخطر التى
كان محاسن الدنيا مجموعة فيها ومحصورة فى نوحها فهى من أعاجيب
الدهر وأحسن ما يرى بالبصر ويتخيل فى الفكر (قبة الصخرة الكريمة)
وهى مصنوعة من قبة مثمثة الحائط والاركان من داخلها وخارجها
مستوية السقف ، اعلاها ذهب مضروب فى صنائع عجبية وجوانبها كلها
من داخلها ملبسة بألواح الرخام المنثور الملقق الصاقا محكما مخططا
بالخطوط الكحل تخطيط القدرة الربانية فجاء منها خواتم عجبية وطوالع
مختلفة الصناعة غريبة ، وفى وسط هذه القبة المثمثة المستوية السقف
قبة أخرى قد بعد فى السماء مرتقاها حتى تساوى ثراها مع ثريائها
وجازت الجوزاء سمًا وعزلت السماء الاعزل سمكا وارتقت فى الهوى
وأسرت الى السماء النجوى ، وانتهت فى الحسن الغاية القصوى فكأنما
صورات جنة الخلد واشربت حبة القلب وأوسعت قررة العين ، ونقشت فى
عرض الارض وأبرزت فى الابريز الخالص المحض قد اتفق الذكر فيها
وضرب المثل بتتاهيها ، وبلغ الخاصة والعامة خبرها وبعد فيهم ، صينها
وارتفع ذكرها وعظم خطرها وتوافى الناس اليها من البعد والقرب
والشرق والغرب متأملين لها متعجبين من موقن مرعاها ورويق سناها

والتقى رجال برجال قد دخلوا البلدان واستبدلوا الاوطان وجالوا في الامصار وجابوا في الاقطار فأقسم كل واحد منهم بجهد قسمه أنه ما رأى لتمام محاسنها تماما ولا بئانق ما انتظمته مطالعها انتظاما ولا بعجيب ما تضمنه ايواؤها ، ومنحته أفناؤها في النقوش السرية ، والصنائع السنية التي لا يبلغها نقوش أهل الهند ولا تنتهيها نمرة (106) أهل الصين تدركها رقوم أهل رها ، ولا تساميتها دباسح تستر ولا يقارن بها وشى صنعاء ولو لم يكن لها الا السطح المدد المشرف على الصحن الكبير والقبة وعجائب ما تضمنته من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرق وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب موزون ، وعمد كأنها أفرغت في القوالب ، أو أعيرت ملمس النصار الدلامس ، ونقوش كقطع الحياض ، وتشجير كآلفات الرياض ، يتسنى بين ذلك كله أنه سنام الدنيا ، سلسل برود يفرغ أمامه من تماثيل عجيبية الاشخاص في خوابى رخام تهد الجبال ضخما ولا تهتدى الاوهام الى سبيل الالفاء بها ولقد أخبرنى الشيخ العالم القدوة شمس الدين الكركى قال بلغت زنة الرصاص الذى على سقف قبة الصخرة هذه ثلاثين ألف قنطار بالدمشقى وهو بالمومنى مائة ألف وعشرون ألف قنطار كاملة ، وذكر عبد الملك بن حبيب رحمه الله ان عبد الملك بن مروان بنى القبة على الصخرة وجعل على الجانبية التى أعلا القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب فى كل صفيحة سبعة مثقال وأغمرغ على رأس الاعمدة مائة ألف مثقال ذهبيا وفى وسطها مكتوب بالذهب فى أرض سماوية لا زوردية على الدائرة ما نصه : — بسم الله الرحمن الرحيم — أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المؤيد من السماء ناصر الدنيا والدين

(106) 1 و 3 غنيمه اهل الصين والنممة هى خطوط متقاربة شبه ما تتمنم به الريح من دقاق التراب .

محيى العدل فى العالمين وظل الله فى أرضه القائم بسنته وفرضه محرر
 ممالك الدنيا ومظهر كلمة الله العليا مشيد أركان الشريعة الشريفة ، سلطان
 الاسلام الشهيد الملك المنصور قلاون تغمده اله برحمته وذلك فى
 شهور سنة ثمان عشرة وسبعمائة وتحت هذه القبة العجيبة الصغيرة
 الشريفة التى هى كالجبل الراسى والطود العظيم معلقة وسط الفضاء
 بين الارض والسماء لا صعودا ولا نزولا ، انما يمسكها الذى يمسك
 السماوات والارض أن تزولا ، وقد انصنع بهذه الصخرة الشريفة
 والبنيان الدائر بها نوع مغارة كبيرة تفضى اليها ادراج جملتها خمسة
 عشر درجا وفيها سطح مفروش بالرخام المجزع المختلف الالوان
 البديع الصنعة وهو موضع مبارك للصلاة ، وفى الطرف القبلى من
 الصخرة الشريفة أثر قدم النبى صلى الله عليه وسلم يتبرك به الناس
 ويمرغون خدودهم فيه وقد طاف بالصخرة الشريفة شباك من العود ،
 وبعده شباك آخر من الحديد ، ثلاثة أبواب وبين الشباكين فضاء واسع
 للصلاة ، وللقبة المثمثة أربعة أبواب غالباب الجوفى منها يسمى باب
 الجنة وبأعلاه مكتوب بالخط الحسن هذا باب الجنة وبأعلى الباب الثانى
 منه لوح نحاس كبير مكتوب فيه بالنقش المحكم ما نصه : بسم الله
 الرحمن الرحيم الحمد لله الذى لا اله الا هو الحى القيوم لا شريك له
 الاحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا أحد ، عبد الله ورسوله
 أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون
 آمنا بالله وبما أنزل على محمد وبما أوتى النبئون من ربهم لا نفرق بين
 أحد منهم ونحن له مسلمون ، صلى الله عليه وسلم على محمد عبده
 ونبيه والسلام عليه ورحمة الله وبرакته ومغفرته ورضوانه ، مما أمر
 به الامام المامون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فى ولاية أخيه أمير
 المؤمنين أبى اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وجرى على
 يد صالح بن يحيى مولى أمير المؤمنين فى شهر ربيع الاخير سنة ست
 عشرة ومائتين ، وأعلى الباب الثانى من الباب الشرقى لوح آخر من

نحاس أيضا مكتوب هذا النص المذكور بجمته ، وأمام باب الجنة المذكور قبة تغشى النواظر بشعاعها وتخطف الابصار بالتماعها تسمى قبة السلسلة التي كان يحكم بها داوود عليه السلام وهي قبة عجيبة قامت على أسوار مختلفة وصناعة على الحسن مشتملة بوسطها تاريخان مكتوبان بالذهب أحدهما في أرض خضراء زرعية ونصه : بسم الله الرحمن الرحيم وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما ، كمل تجديد بطن هذه القبة السلسلة المباركة ونقش سقفها وتبليطها في شهر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وفي الركن الغربي (108) من هذا الصحن المرتفع المذكور مسجد فيه قبتان منتظمتان عجيبتان فيهما رسوم مذهبة وتواريخ مختلفة أقربها عهدا وهو ما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على خير خلق الله محمد وآله وصحبه ، أما بعد فما زالتهم ملوك الاسلام تناصر على اثبات مفاخر يبتقى ذكرهم ببقائها وانشاء محاسن يباهون الامم ببهاؤها ، فيحيون رسموما طالما نسجت عليها العناكب . ويرقمون على صفحات الايام من الخيرات رقما تشرف اليه الكواكب فتظل عيون الاماني بآثارهم قريرة وأعواد احبالهم بمفاخرهم مورقة نضيرة أعطاهم الله قدرة فصرفوها الى رفع اقدارهم ، وأتاهم الدنيا فلم يتركوها غفلا من محاسن آثامهم :

(فتراهم دون الرجام وذكرهم باق بها فكأنهم أحياء)

فلهذا في تبقى مساعيه بعده مشكورة ، ومناقبه ما بقيت آثارهم مذكورة ، ولما تشعت السقف الذي كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور رحمه الله انتدب لآحيائه عبد الله الفقير اليه أسد الدين

عبد القادر سبط الواقف بحكم ما اليه من النظر الشرعى فى أوقاف
جده فجده وبذل وسعه وطاقته فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى وكان
الفراغ منه فى ربيع الاخير سنة تسع وعشر (109) وسبعمائة من
الهجرة النبوية صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وفى
الجهة الغربية ثلاث صوامع واسم المأذنة أو المنار أحق من اسم
الصومعة لان — الصومعة هى التى للراهب وهى بفتح الميم . وفى
الجهة الغربية والجوفية قباب مختلفة تركت وصفها اختصارا ، منها
قبة الركن المشرقى الحافلة وقبة المعراج وقبة الميزان الرخامية وقبة
موسى البديعة وقبة سليمان الرائقة وفى كل مسجد من تلك المساجد
ومدرسة من تلك المدارس ، وقبة من تلك القباب امام عاكف به قائم
عليه ، ولقد عدت مواضع الاشغال وصلاة التراويح بها فى شهر
رمضان المعظم فألفيتها نحو الأربعين موضعا وفى الجهة الغربية من
الصحن الكبير المثلث مدرسة عجيبة غريبة الشكل غزيرة المياه حافلة
الصناعة بابها ملاصق لباب الحرم تسمى الذنقيدية . ويسكنها الصوفية
وقد حف بها من الرسوم المذهبة العجيبة والخطب الادبية الغربية
والالفاظ البعيدة القريبة كل من أتى بالعجب، وسفر عن الحسن المنتخب
ووجب أن كتب هناك بذوب الذهب ، اخترت أخصرها ونقلت أيسرها ،
فكان الذى ارتضاه الاختيار واقتضاه الاختصار ما تيسر من مباح
الطبقة العليا ونصه : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى رفع
لبيت المقدس فى سائر الملل ذكرا ، وفضله على أكثر البقاع شرفا
وفخرا ، وجمع القلوب على محبته تعظيما لرتبته، وقدره، وأسرى بخير
خلقه اليه ثم أنزل عليه صلوات الله عليه ، سبحان الذى أسرى ، فى
بشرى لمن بنا لله فيه بيتا ولو كان شبرا ، ويا أسعد (110) من أسدى
للناس فيه ثوابا وبراً ، لقوله تعالى وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه

(109) ن 2 ستة عشرة

(110) ن 2 وباويح

عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ، فأى خير أعظم من انشاء هذا المكان
وبناء هذا الايوان . الذى باب الرحمة مفتوحا بين يديه . والطور (111)
أمامه والشجر تحت قدميه . والجامع الاقصى كالقمر ناظر اليه ،
والخزرة الشريفة كالشمس مقبلة عليه ، وهو كالهلال قد ظهر بين
الشمس والقمر .

ما الشمس ما البدر فى للاء بهجته فى كل ناحية من وجهه قمر

أرجو لبانيه . أن يعطى أمانيه . وأن يفوز من الملك الجليل بالعطاء
الجزيل والثناء الجميل والظل الظليل وحسبنا الله ونعم الوكيل . وهذا
الطور المذكور جبل عظيم منه رفع عيسى عليه السلام الى السماء فيما
يذكر . وهو بشرقى هذا الحرم العظيم فيه تلة مباركة فى أعلاها مسجد
شريف حافل مؤسس بالسوارى الحسنة الضخمة والرخام الابيض
الصافى والحجر المنجور الجافى (112) يقصده الناس تبركا ودونه
بمسير تلة مباركة يفضى اليها ادراج تحتها تربة الصالحة الولية رابعة
العدوية رحمها الله تعالى ودونها على بعد تلة كبيرة مختلفة فيها تربة
مريم عليها السلام تفضى اليها ادراج هابطة الى التربة الكريمة عدت
فيها ثمانية وأربعين درجة وفى هذه المدينة الكريمة بقاع ظاهرة عليها
بركات ظاهرة وبها قبور الانبياء صلوات الله عليهم واثارهم نفع الله
بالقصد والنية فى زيارتها برحمته وما هذا الذى ذكرت من وصف تلك
الشاهد الشريفة الذكر . والمساجد العظيمة القدر . والمعاهد الكريمة
الفخر الا كالنقطة الواقعة فى البحر ، والذرة الساقطة فى القفر ، والشرارة
من حجر . ولما لاحت نيرات هذه الانوار ، وفاحت نسيمات تلك
الاسرار ، وشاهدت احد المساجد الثلاثة التى لا تشد الا اليها الرحال
وعاينت الحرم الشريف حقيقة قد أحلنى لديه الترحال ، اخترت مجاورته

(111) ن 2 والطور

(112) 3 المنجور الجافى .

وأثرت ملازمته وقلت أين أذهب عن موطن مهبط الرحمة وموضع
محشر الامة ، ومحل تفرج الكربة والغمة ، حدثني الشيخ الفقيه القاضي
شمس الدين عبد الله محمد بن سالم بن عبد الناصر الكنانى الغربى
الشافعى قاضى مدينة بيت المقدس حرسها الله تعالى سماعا منى عليه
بحرم المسجد الاقصى الشريف بقراءة شقيقه الشيخ الامام الاوحد ،
علم الدين أبى الربيع سليمان وبتقصده الرواية عنهما ومن أصلها نقلت ،
قالا حدثنا الشيخ الامام المحدث علاء الدين أبو الحسن على بن ابراهيم
ابن داوود العطار رحمه الله ، قال الاول منهما ، سماعا عليه فى رجب
سنة أربع وعشرين وسبعمائة وقال الثانى قراءة عليه فى يوم الجمعة
ثانى صفر سنة سبع عشرة وسبعمائة بدمشق المحروسة يرفعه الى
أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تشد
الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ،
والمسجد الاقصى ، رواد البخارى ومسلم ، ولمسلم قال نما يسافر
الى ثلاثة مساجد الكعبة ومسجدى ومسجد ايلياء وبهذا السند الى أبى
العطار يرفعه الى ذى الاصابع رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه
وسلم رضى الله عنه ، قال قلنا يا رسول الله أرأيت ان ابتلينا بالبقاء
بعدك أين تأمرنا . فقال فعليك ببيت المقدس فعسى الله أن ينشئ لك
ذرية يغدون الى ذلك المسجد ويروحون . وبه عن أنس رضى الله عنه
عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، من زار بيت المقدس محتسبا لله
عز وجل حرم الله لحمه وجسمه على النار . وبه عن أبى الدرداء عن
النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : أفضل صلاة فى المسجد الحرام
على غيره مائة ألف صلاة وفى مسجدى ألف صلاة وفى بيت المقدس
خمس مائة صلاة وبه عن أبى ذر رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله
الصلاة ها هنا أفضل أم الصلاة فى بيت المقدس . قال صلاة فى مسجدى
خير من أربع صلوات فيه . ولنعم المصلى هو أرض المحشر والمنشر ،
وبه عن يزيد بن عبد الله رحمه الله قال من خرج الى بيت المقدس بغير

حاجة الى الصلاة فيه فصلى فيه خمس صلوات صباحا وظهرا وعصرا
 ومغربا وعشاء خرج من خطبته كيوم ولدته أمه ، وبه من أبي يزيد قال
 لما خلق الله بيت المقدس حزنت فقال لها الرب جل جلاله ما يحزنك،
 وقد سميتك من حبي باسمي أنا المقدس وأنت المقدسة قالت ربى
 فاذا فعلت هذا فمن أتاني غصلى في فتقبل منه ، ومن سكنى فارزقه ،
 ومن مات (113) في فاغفر له وارحمه ، فقال لها الرب لك ما سألت. وقال
 الامام أبو حامد الغزالي رحمه الله قد سأل سليمان عليه السلام ربه
 أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه الا الصلاة فيه الا تصرف بصرك عنه
 ما دام مقيما فيه حتى يخرج منه ، وان تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته
 أمه ، فأعطاه الله ذلك وقوله سبحانه الذى باركنا حوله ، يعنى بالماء
 والشجر وأقدام الانبياء ، كان كعب رضى الله عنه يقول بيت المقدس
 أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا ، ولو تتبععت الاحاديث
 الماثورة والاذخار المشهورة لأملات وملأت ورويت ورويت هذا الى
 ما اطلعه الله فى ذلك الافق المنير من بدور العلماء وامتنع من صدور
 الاولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع وقصدوا الى العبادة فيها
 والانقطاع ، فسن الله الى البغية ولقيتهم أجمعين ورويت عنهم ولما
 كثر على تعدادهم وقل على نظراؤهم وأندادهم ، انتقيت منهم هاهنا
 خمسة يتبرك بذكرهم وتعطر الاندية بشكرهم (فأولهم) فى الحلبه
 وأولاهم بالتقديم على هذه العصابة الشيخ الخطيب العالم زين الدين
 أبو البركات عبد الرحيم بن بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم
 ابن أبى الفضل بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن حازم بن
 صخر الكنانى الشافعى سليل العلماء العالمين وقليل النظراء
 فى عباد الله الصالحين ، تجلى من مراقب الفضائل والمعارف وتحلى
 بالمجد التليد والطارف قصرت الاوهام عند كنه فضله ونقصت الاحلام
 عن رجاحة عقله وعجزت الاقلام عن وصف مثله كنز من كنوز الكرم

لا ينفذ على النفقة ولا يسئ من الصلة والصدقة من رجل ما زادت—
الرفعة الا تواضعا عجبا ، ولا أبقت له المعلومات في العجب أربا برع
بأحسن صورته ، ورفع من المجد أرفع سورته ، وجمع جمال سمات
وجمال سيرة زين به ذلك المسجد الشريف ومحرابه وعين للامامة
والخطابة فيه ، وما بقل عذاره ولا كمل شبابه ، فجلس على الكرسي
الاكبر ورقى ذروة المنبر

لُفُو أَنْ مُشْتَقًا تَكْلَفُ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْهِ الْمَنْبَرُ

خطة ورثها من الفاضل أبيه ورتبة ما برح يتوخى فيها السنن
الرضى ويقتفيه ، ولو لم يكن لديه الا اقتفاء سير أسلافه الصالحين
والرواية عنهم وعن والده قاضي القضاة بدر الدين رضى الله عنهم
أجمعين ، لقيته بالمسجد الاقصى عمره الله تعالى بالذكر وضاعف
لمجاوره جزيل الاجر فأدخلني الى منزله الكريم الذى التصق بابـه
بمحراب ذلك المسجد العظيم فرأيت منزلا جليل القدر سامى الخطر
مكلل الجوانب مرصع الارز ، فذهلت فى نقشه وخجلت من وطىء
فرشه (114) ثم ذكرت ما أعده الله تعالى لاوليائه فى دار كرامته من
النعيم المقيم وتلوت : قل ان الفضل بيد الله يؤتـيه من يشاء والله ذو
الفضل العظيم وقد سـفرت فى زوايا مجالسه خدود الورد الغض .
وتراكت سحائبه بعضها فوق بعض ، فعجبت من ظهوره فى غير أيامه ،
وأكـببت على انتشاقه والنتامه وذكرت به ما ذكره أبو الحسن جعفر بن
الحاج اللورقى فى كتاب مجد الشعر له وذلك انه ورد الاديـب أبو الحجاج
يوسف بن هارون الرمادى رحمه الله على بنى أرقم بمدينة وادي آش
أهدي اليهم ورد فى قمعه من مدينة بجانة أول ظهوره فأكب الرمادى
عليه يقبله استشارا به وفرحا ، ففهم المتعجب من فعله ذلك من حضر
فأنشد ارتجالا :

يا خدود الحور في اخبالها قد عرتها حمرة مكتسبة
اغتربنا ، أنت من بجابة وأنا مغترب من قرطبة
واجتمعنا عند اخوان صفاء بالندي أموالهم منتهبة
عصبة ان سئلت عن نسبة فالى أرقمها منتسبة
ان لثمي لك من بينهم ليس فيه حالة مستغربة
لاجتماع في اغتراب بيننا قبل المغترب المغتربة

فاستحسن رضى الله عنه ما ذكرته من ذلك ، وأجزل صلتى مما
حضر هناك ، ولم أزل أتردد اليه واسمع منه ، وأقرأ عليه حتى تحصالت
لى منه جمل مفيدة ، ومقيدات عديدة ، ومما قرأت عليه بمنزله المذكور
جميع الجزء الذى ألفه وخرجه عن شيوخه فى أحاديث نبوية ، وفوائد
جمة ، وجميع الجزء المسمى بتتقيح المناظرة ، فى تصحيح المخابرة ،
وجميع كتاب المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى ، وهو اختصار
كتاب ابن الصلاح رحمه الله تعالى ، وجميع الخطب المختصرة من
خطب ابن زبابة رحمه الله تعالى ، ومما سمعت بلفظه بعض كتاب غرر
التبيان لمن لم يسم من القرآن ، وبعض كتاب تجنيد الاجناد ، فى
وجهات الجهاد ، وبعض كتاب مستند الاجناد فى آلات الجهاد ، وكلها من
تأليف والده سوى الجزء الاول ، وتناولت ما لم يكمل لى سماعه عن
يده المباركة وأخبرنى بذلك سماعا عن المؤلف والده . المذكور وقرأت
عليه وسمعت منه غيرها حسبما كتب لى لذلك وأجازنى اجازة تامة .
والثانى أعوزه بالمعوذتين والسبع المثانى الشيخ العالم الامام الحافظ
مفتى المسلمين صلاح الدين خليل بن كيكلى (115) بن عبد الله

115 الكيكلى ، محدث كبير ترجم له ابن السبكي فى الطبقات وهو غير الذى
شرح لامية العجم المشهور بالصفدى الشامى .

الملائى (116) الشافعى الدمشقى نزىل بيت المقدس نفع الله تعالى به رجل من أكبر كبار المشرق . واستقبل بالامامة فى جميع فنون العلم ولما يشب له سواد المفرق ، واستقر بالفيرين ، نور علمه ونور جبينه المشرق ، فجلى من حسن الصورة بما قصرت عنه مخدرات القصور ، وأتى من الشجاعة ما يرد به مفارق ومفاصل الليث الهصور ، ومنح من الكرم ما تخلقى عنه اسخياء هذه الازمنة وكرماء هذه العصور ، ولما أكمل تعالى عليه نعمته فى كمال خلقتة واعتدال قامته وبنيتة أحب أن يزيد كمال حلاه البدنية ، وصفاته بكمال نفسه السنية ، وذاته البهية ، فجمع فى صدره ما تشئت من فنون العلم ، والقى عليه سكينه الوقار والتقى والحلم ، والبس أديم الحسن ناعم ذلك الجسم ، فلم تر عينى على عظيم ما رأيت من مخلوقات الله تبارك وتعالى رجلا أتم حسنا ، ولا أكمل معنى ، ولا أنبل تحصيلا ، ولا أفضل جملة وتفضيلا ، منه فى صورته وسيرته وعمله ، ولبسه وعقله وفضله ، واعتداله وكمالـه وجزالته وبسالته وشجاعته وبراعته ودهائه وحيائه وحبائه وكرمه وكلمه وحفظه ولفظه وفصاحته وسماحته وزكائه ونباهته ونزاهته وعبادته وزهادته وورعه ودينه وإخلاصه ويقينه وحركاته وسكونه وتصرفاته فى جميع فنونه .

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب
يمينا بئياته السافرة ، وآياته السائرة ان الاحبار لفى حيرة بافادته كالمحابر والمنابر ، باجادته ، وان أوضح الملفوظات ما تلقاه فالحاه ، وأصح المحفوظات ، ما أحرزه فأبرزه ببصيرته يحتدى البصرى ، وبكفايته يقتدى الكوفى وبنكتته يستصحب صاحب وعلى انشائه يعتمد ابن العميد ، وأما الآثار فعليه مدارها ولديه ينفق عندها وينذارها . لا جرم أن ذا التحصيل والرأى الاصيل ، من طاف بسدة سيادته ، وجنح

لمعلم علمه فاستعدى الرشاد والسداد واستملى (117) امتن والأسناد ليسعد جده بالحمل على الجادة ، ويتحقق في كل صورة ومادة ، بين الصبح لذى عينين ، وما قلت الا بالذى علمت سعد ، لقد حضرت مجالس تدريسه التى هى منتدى الاعلام ، ومنتهى جهد الاسماء الاعلام ، وميدان فرسان الطروس والأفلام ، وقلائد اعناق مدارس الاسلام . فدان كل من حضرها من علماء الامصار يحلف انه ما سمع بمثلها من مثله فى هذه الاعصار ، وان الله أخلصه بخالصة ذكرى الدار ، وجعله ن أولى الايدى والابصار ولقد حل أول شهر رمضان معتكفا بالمسجد الاعظم لالتزام الاوراد والاذكار ، والتسبيح والاستغفار ، فما كان يبرز منه الا للافطار ، وتقضاء ما خف من الاوطار ، ولقد شاهدته بطول الشهر المذكور وقد اختص به واحتل بمنزله من طلبة العلم وغيرهم ما ينيف على الاربعين رجلا سوى عائلته والجميع من عنده يأكلون واليه ينضمون ويأوون ، فسألت ذلك فقيل لى ذلك دأبه وعادته فى رمضان كل سنة على تعاقب الدهور والازمنة . وهذه نبذ من عظام فضائله ، ولعم من حسان فعائله ، فلنقف عندها ، وهى تدل على ما بعدها ، ثم نذكر بعض ما سمعت من لفظه ونقلت من خطه أو حفظت فمن ذلك كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم القاضى أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض رحمه الله تعالى سمعت جميعه من لفظه بالمسجد الاقصى الشريف وحدثنى به بسنده المكتتب بخطه فى اجازته لى وقرأت بلفظه جميع كتاب الشفاء هذا ، وسمعت بلفظ غيرى على جماعة كثيرة من أهل الاندلس غرب العدو وأثبت سندهم فيه فى برنامج روايتى وسمعت عليه بعض كتاب مسلم بن الحجاج رضى الله عنه وجميع الجزء الذى صنفه فى تقرير الوجدانية لله تعالى ، يشتمل على تفسير قوله تعالى: يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، الآية . وجميع بغية الملتمس فى عوالى حديث مالك ابن أنس من تخريجه

117. ن 1 و 3 واستملا وهو خطأ لان استملا الدين جعله فى الاغنياء الثقة .

أيضا وهو ستة أجزاء خرجها من كتاب الموطا ، وقرأت وسمعت عليه
غير ذلك مما هو مثبت بخطه كذلك وله شعر رائع ونثر غائق أسمعني
من ذلك جملة وأنشدني . ومن خطه نقلت لشيخه الامام العلامة فريد
دهره ووحيد عصره قس الفصاحة ملك البلاغة شهاب الدين ابن أبي
الثناء محمود بن سليمان الحاربي كاتب السلطان بدمشق كل غريدة غيداء
وحديقة غناء رائقة النظم والرصف فائقة الوسم والوصف مالكة القلب
والطرف .

يقود عنان السمع حسن نشيدها فتزري بالحن الغريض ومعبود

وأنا أول من جلب شعر شهاب الدين هذا فأدخله بلاد المغرب
وقصيدته اللامية الحافلة التي استوفت كثيرا من معجزات النبي صلى
الله عليه وسلم وهي من القصائد العجيبة والقلائد الغريبة وأولها .

هذا اللقاء وما شفيت غيلا كيف احتيالي ان عزمت رحىلا
يا دار من أهوى وحقك لم أجب داعى التفرق لو وجدت سبيلا

وعدها مائة بيت وواحد وثمانون بيتا ، وقال لى شيخى صلاح
الدين رضى الله عنه قرأت وسمعت ذلك مع مجموع شعره عليه
وأجازنيه ، فمما أنشدني له على طريقة مهيار وكتب بها الى محبى الدين
ابن عبد الطاهر رضى الله عنه .

شام على الابرق برقا باديا فأنشأت اجفانه الغواديا
وعاج بالركب وقد بدا له برق الثنايا وكفاه هاديا
وساق بى العيىس قطار دمه لما غدا له الزغير حاديا
ما لاح عن قرب مدى وانما قربه الشوق فكان نائيا
يا برق حق ما ، رأى أم شوقه أدنى له ما ليس منك دانيا

حن الى ماء النقى ولم يزل
يا حبذا ماء العذيب منها
وحبذا من النسيم شمألا
وحبذا والورق في غصونه
حيث ترى الادمع في رياضه
والغصن الرطب وما أشبهه
ترى الاقحاح بالثغور ضاحكا
وتحسب العشاق في عراضه
فكم حوى الظل نحولا مثله
وافاء معتل النسيم عائدا
يا برق اذكيت بقلبي حرقرة
جزت على دار الهوى فهل غدا
عار على دمعى اذا ضن الحيا
اذ كرتنى برق الثغور لائحا
بالله ان جزت بأرض رامة
وقل لهم خلفت في الحى لكم
أرخص فيكم دمعه كروحه
ومن حمى الوادى عريب أشرعوا
جاورت فيهم والندى شعارهم
يا صاحبي قد ضاع قلبي فابكيا

اليه والماء كثير صاديا
وحبذا وادى الاثيل واديا
فيه ومسرى رقة يمانيا
تدرس في أوراقها الاماليا
مستبقات والنسيم وانيا
بالطل أو بالدمع فيه حاليا
والغيث فيه كالجفون باكيا
لولا الانين الرمم البوالييا
لولا التهاب الوجد كان خافيا
وجاءه ورق الحمام راقيا
منك فما شأن الحيا وشانيا
زندك في رى تراها وارييا
ان تعنذي أغصانها عوارييا
فظل دمعى رائحا وغادييا
فصف وان لم يسئلوك حاليا
ميتا قضى وما قضى الا مانييا
وكان كالصبر عزيزا غاليا
دون القدود مثلها عوالييا
فاطلقوا لى من دموعى جارييا
عليه في ناديهم ونادييا

واستخبروا السرب ولا تتهما
فان أتى فحبذا وان أبى
بى منهم ظبى رنا فصادنى
شاكى السلاح لا ترى بجفنه
يا صارما جفونه جفونه
ويا قواما لحظه سنانه
ويا وشاحا ضم خصره مثله
ما لك والخلخال يشكو ربه (118)
ويا جبيننا ما انجلي صباحه
سامرت والافلاك فيك مقتلى
كأننى والجو روض ناظر
كأننى فى مدح محبى الدين قد

وأنشدنى له أيضا :

ما ضر من شفع الصدود ببعده
أو لو شفاه بزورة بعد النوى
ظبى من الاتراك خال باله
ريان من ماء الشباب اذا مشى
ما كنت أشكو من قساوة قلبه

عليه فى ذا الاعين الروانينا
أرسلت دون ناعبيه ناعينا
يفديه قلبى صائدا أورانيا
فى الحى الا باكيا وشاكيا
فعلك أضحى فى القلوب ماضيا
اذكرتنى الطعن وكنت ناسيا
لا ترج مثلى من سقيم شافيا
مثل الذى جلت عليه ظاميا
حتى طوى من فرعه لياليا
دون النجوم الادمع الحواليا
بت لاسراب النجوم راعيا
حاولت أن أنظمها قوافيا

لو علل الكلف المشوق بوعده
ليرى الذى فعل البعاد ببعده
من حال ملئان الفؤاد بوجده
يثنى الغصون على تثنى قده
لو أنه أغرته رقعة خده

(118) ن 1 و 2 يشكو ربه

برد شفاء محبه في برده
أعوانه أبدا على وجنده
غضب وما حذرا مواقع حده
وضمنت ما ضمت معاقده بنده
وجليت منه البدر ليلة سعده
ما بغيتى في ورده أو ورده
في غورة وكففتها عن نجده
في جفنه أو خصره أو عهده
أسفى على فقد الخيال لفقده
ما راح دمعى سائلا من خده

أبكى ويضحكه التدلل عن سنى
وأمر حسن ناظرى ، والقلب من
علما بأن اللحظ منه صارم
لو زارنى لفضضت ختم رضابه
وجنيت منه الروض غب سمائه
ووردت من وجناته ورضابه
وأجلت كفى من مجال نطاقه
قالوا به سقم فقلت لعله
يا سالبى طيب الرقاد وانما
لولا انتظار الطيف يطرق فى الكرى

وأنشدنى له أيضا يعرض بالشيخ شمس الدين الايكى أحد
المدرسين بدمشق وكان بلغه عنه أنه تنقص بالامام أحمد بن حنبل رضى
الله عنه وذكره بسوء فانتصر له شهاب الدين أبو الثناء المذكور بهذه
الابيات :

يبيحنى جنة خديك
فصد عنها سيف جفنيك
فى الايك يغنى عن رقيبيك
يعطف لى ان ملت بعطفيك
ولعنة الله على الايكى

بنت فبات الطيف لى مسعدا
وطالما حاولتها قبله
لو لم أخل حمام اللوى
لفر نوما كان مثل الصبا
فلا راعى الله حمام اللوى

وأنشدنى له أيضا :

إذا ما بدا مسفرا ضاحكا وقد ميلته الصبا والجنوب
فلاح الصباح وفلاح الاقحاح وماس القضييب وماج الكثيب

والثالث أكبرهم سنا . وأكثرهم بالمعاني الادبية معنى الشيخ
الفقيه المحدث الاديب علاء الدين أبو الحسن على بن أيوب بن منصور
المقدسى الشافعى أبقى الله بركته شيخ النظم والنثر وامام الحديث
فى ذلك القطر خطب حسناء الادب سنين ، وانعقد النكاح بينهما بالرفاء
والبنين ، واعتنى بالرواية فأخذ عن جلة من الشيوخ اعابرين قطع فى
ذلك زمنه ، وأطار فيه وسنه ولم يثن لغير العلم همته ، ولا جر فى سواه
رسنه ، فروى وقيد وشيد من مبانى العلم ما شيد ، فهو اليوم وان قرب
من الفوت رحلة هذا الوقت له سبلة منسدلة يروق ايماضها ويفوق
السواد بياضها ، على وقار وسكينة وجلالة مكينة وحصاة رزينة وهيئة
زينت بأحسن زينة ينصب مجالسه المباركة لعلموم الحديث فى القديم من
الزمان والحديث ، فيعلوها منه الصدق ويغتتمها لديه الخلق ويطرق اليها
من أقاصى البلاد ، فيلحق فيها الاصاغر بالاكابر والاباء بالاولاد .
سمعت عليه بمجلسه من المسجد الاقصى الشريف جميع صحيح الامام
أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى رضى الله عنه بعد أن كفت
سمعت عليه جميع الثلاثيات المخرجة منه وحدثنى به عن الشيخ الامام
تاج الدين أبى محمد عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع الفزارى . وعن
الشيخ الحافظ شرف الدين الحسين على بن محمد بن أحمد اليونينى
قراءة منه على كل واحد منها بجميعه بدمشق المحروسة قالوا أخبرنا
الشيخ الصدوق أبو عبد الله الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد بن
يحيى بن الزبيد أخبرنا الشيخ الثقة أبو الوقت عبد الاول بن عيسى بن

الشجري أخبرنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد المظفر الداوردي أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسى ، أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، وقد كنت قرأت عليه بلفظه جميع صحيح الامام أبى عبد الله البخارى بالمسجد الاعظم من مدينة مالقة حرسها الله عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة على الشيخ الخطيب الصالح الولى لله تعالى أبى عبد الله محمد بن أحمد الهاشمى الطنجالى ، وسنده فيه مشهور لجودته ، وسمعت على شيخى هذا بالمسجد الاقصى الشريف ، جميع أحاديث الرباعيات المروية عن مسلم رضى الله عنه وجميع الجزء الذى فيه التساعيات من شيخه ابن البخارى ، وجميع الجزء الذى فيه ثمانية وثمانون حديثا من مشيخته أيضا وجميع جزء الانصارى وجميع الثمانية عشر حديثا وحديثين عن ثمانية عشر شيخا ، وشيختين لابن الطاهر ، وأسانيد هذه الاجزاء كلها مستوفاة فى برنامج روايتى ، وسمعت عليه بحيث ذكر جميع قصيدته الرائييتين التين نظمهما فى فضائل المسجد الاقصى شرفه الله تعالى ، وأجازنى بالاجازة التامة وكتب لى بخطه ومولده يوخذ من قوله فيما كتب لى به فى استدعاء وأنشدنيها بلفظه رضى الله عنه :

(اجازهم المسئول فيه بشرطه على بن أيوب بن منصور بالقدس)
(ومولده ما بين ستين حجة وسبعين بعد الستمائة بالحدس)

ورابعهم فى التعداد ، العديم الاقران والانداده ، الشيخ الفقيه المقرئ الصالح شمس الدين أبو عبد الله محمد بن على محمد بن مثبت الخولانى الاندلسى ، أحد العباد الموفقين ، والعباد المتقين ، يذكر سيره السلف الصالح بعمله الموهوب ، وعقله الراجح ، ما تراه أو تلقاه الا يروعك دينه وتقاه ولا تبصر مجلسه أو ممشاه الا وتهابه وتخشاه اشتغل بما يعنيه ، واشتمل دهره اما على علم ينجيه ، أو الى عمل يجنيه ، قد عزل عن الناس نفسه وجعل بالله وبكتابه انسه ، فليس له هم الا فى اقراء القرآن ،

وايراده عند اغفاء الاجفان ، أو في اطعام كبد جائع واغاثة ملهوف
مغترب شافع فهو مأوى الغرباء وجنان الفقراء ومظان قضاء جوائج
الاخوان والاولياء :

قبلة في السماح يجتمع السا بق في فضلها مع المسبوق

رحل عن الاندلس فتى غرا فجرعه البين كاسه مرا ، والى هلم جرا
يذكر أوطانه فتفيض دموعه حمرا ويهب له منها نسيم فيذكي ضلوعه
جمرا ، لا جرم أن الزمان أخذ بيده ، فبلغه أسنى مقصده وانجزه أكرم
موعده فوعى وفهم وعمل بما علم واستقاد وأفاد ، ورزق المال والاولاد
فهم الآن بذلك الحرم الشريف من خيار المدرسين وكبار الرؤساء لا
المرعوسين ، كثيرا ما كنت أحضر مجالسه العلية وفوائده العلمية ودوله
الفقيهية والنحوية فاغبط من حضر والتقط الدرر :

وأمنح الطرس من الفاظه نبذا وأخلط العنبر الوردى بالعفر

ومما قصدت رواية لعلوه فيه ، كتاب عوارف المعارف تأليف الامام
شهاب الدين أبى حفص السهرودى (120) رحمه الله تعالى سمعت أكثره
بلغظه وتناولته من يده ، فحدثنى به عن الشيخ كمال الدين عمر بن الياس
المرعنى سماعا عليه بجميعه حدثه به عن الشيخ الامام قطب الدين أبى
بكر بن محمد بن أحمد القسطلانى قراءة عليه عن المؤلف شهاب الدين
المذكور سماعا عليه من لفظه أيضا ، اكثر رسالة الشيخ أبى القاسم
القشيرى رحمه الله وتناولتها ، وحدثنى بها عن الشيخ شهاب الدين أحمد
ابن يحيى بن اسماعيل بن جهل قراءة منه عليه لجميعها حدثه بها عن
الشيخ شرف الدين بن هبة الله بن عساكر سماعا عليه عن الشيخ أبى

(120) السهرودى بضم السين كما ضبطه المحلى بآخر جمع الجوامع وابن خلكان
في الوفيات .

محمد عبد الوهاب بن شاه الشاذي باخي سماعا ، عن المؤلف المذكور
وسمعت من لفظه جميع الاحاديث التي خرجها الشيخ الامام فخر الدين
أبو الحسن علي السعدي المقدسي الحنبلي ، وحدثني بها عن الشيخ
شهاب الدين بن أحمد بن جهل المذكور ، قراءة عليه حدثه بها عن مخرجها
فخر الدين المذكور سماعا ، قراءات وسمعت غير ذلك واجازني اجازة
تامة وكتب لي بخطه (وأوترهم) بل أوترهم بمسك الختام ، وملك الكلام
وخامس الاربعة الكرام ، وحامل لواء البيان بين صناديد مصر وفحول
الشام الشيخ الفقيه الاديب الابرع جمال الدين أبو بكر محمد بن
محمد بن الحسن بن أبي الحسين بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر
بن عبد الرحيم بن نباتة المصنف صاحب الخطب الشهيرة أبرع خلق
الله اذا نظم أو كتب ومن جمع الله له الادب والحسب ، ورحب في تلك
الطباع ، أملح الانطباع وأمد الباع أن تغزل أو نسب ، الذي مد أرض
البلاغة ودخلها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، يستخرج بن بحر اللؤلؤ
المنظوم والمنثور فيسحر الحور ويفتن الحور (121) ويطمع المهراق
ويؤيس النحور ، فرفقا يا دره النفس ومهلا يا مرجانه المسطور ، غازلت
الغزلان ، وبدرت البذور ، وعلمتنا نبيذ المباسم وننسى الثغور فنحن في
روضة مدبجة نخرج من زهرة الى زهرة ، ولما ملكه الله تعالى ملاك
هذه الطريقة الادبية وثقوامها وحطت لديه هذه الصناعة السنية رحلها
وزمامها ومدت له في الادب غاية كبا دونها أهل الاداب ، ورغعت له في
الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب ، تنافست ملوك الشام
في لقائه وتهافتت على اصطفائه وارتقائه فحولته مقاصد وقصورا (122)
ووهبته ولدانا وحورا ، وأنالته نعيما وملكا كبيرا ، فانضوى اليهم زمانا ،
وتلقى منى وأمانا فزهت في يمينه الاقام ، ونهت وأمرت بين يديه الليالي
والايام :

(121) الحور في الكلمة الاولى جمع احور وفي الكلمة الثانية جمع حوراء .
(122) في بعض النسخ معاصر ، وهي الكريمة من النون .

ورف اليهم بنات النهى غامهر نقدا ولم يخش نقدا
ونظمها بجبين العلى غزانت كما زين الجيد عقدا

خطب حسناء المعالى فلم يغفله المهر ، ونهى وأمر غامتثل اليه
النهى والامر ، وأنيل أمله النظم والنثر ، وحلل سحرهما وقد حرم
السحر ، غقرط وشنف ، ودبج وفوف ، وآلف وصنف ، وعنى ببنات فكره
القلوب ممن عنى ، وعنف ، وسحرتنى ألفاظه ، ولقد كنت بعيدا من أن
أصاب بسحر ، الا أنه اليوم قد أثر الراحة من حراسهم وحجا بهم .
واستغنى بباب الله عن الوقوف الى أبوابهم ، فما يطاء لهم ناديا ، ولا
يلبى منهم مناديا ، بل أقبل على ما يعنيه ، وأعرض عما كان يتعبه
ويعنيه ، بهمة تشرق فهي الشمس أو تسمو الى الغايات فهي زحل .

لقيته بحرم المقدس أتاه من دمشق زائرا ، وخرج من بيته مهاجرا .
وقد كان عرف أنى فى الطريقة من أنسابه وعلى الحقيقة من المتعلقين
بأهدابه ، فحين رآنى أسرع فى القيام ، وبادر الى اللقاء والى السلام .
فخجلت من فعله وعجبت من فضله واستتشدنى من تعزى ، فانشدته
لى ولغيرى ، وتحصل بينى وبينه ذمام أكيد . وعهد بفضل الله
حميد ، ثم سألته فى تقييد شىء من شعره فأخرج لى ما ارتضاه منه
واختاره فى نسخه تغار عليها حبات القلوب اذا تبديها ، وتود الاحداق
اذا رمقتها لو تبديها غياضها بياضها وسوادها بسوادها . فاستعرتنا منه ،
وكتبتنا عنه فلما رmq ما كتبه أحب اقتناءه تجديدا للعبه وحفظا للود
نأستو به منى محتشما ، واستعنته فيه فقبله وقبلت (123) ضاحكا
مبتسما ، ووهبنى أصله وأكمل لى طوله وفضله فأنا أول من جلب ذلك
الدر النفيس من بحر ، وتقلد فى جیده ونحرد ، وغاز بسرغه وفخره ولما
قرأت عليه أخذ القلم بمحضرى وكتب على ظهر الأصل ما نصه (الله

الموفق قرأ على الشيخ الامام العالم الكامل الفريد أبو البقاء خالد
البلوى الاندلسى شكر الله بره المصدق وأصله المعرق ، وحرس شخصه
الذى نقول المحاسن أطلعه الغرب فأرنا مذهبه يا مشرق أكثر هذا النبذ
من شعري والرسالة من انشائي قراءة ملأ بها سمعا وذهنا ، وأربح
بها للشعر نقدا ووزنا ، وقضها سبط حلى فهو اما يقلد عنقا واما يقرظ
أذنا وأحكمها ببيانها وصوته ، فما سمعت أطيب من حالته اعرابا ولحنا ،
وأجزت له روايتها وجميع ما تجوز لى روايته معترفا بفوائده الممتازة ،
علما أنه كان يجب أن أجز من الجائزة لا من الاجازة متطوقا عوارفه
التي عز بها الجيد ولا كرامة للدر ، ولا عزازة ، ونحلتها هذه النسخة .
وسألتها اصلاحها بعد أن تعرضت عنها بنسخة من خطه الذى يتنافس
فيه البصر والسمع ، وقطرات أقلامه التي اذا نافستها أقلام الفضلاء
تولوا واعينهم تفيض من الدمع والله تعالى يرحم أسلافه ، ويبقى منه
على كرمه الطاهر ما أبقى الكرم من السلافة قال ذلك وكتبه محمد بن
الخطيب بن نباته العبشهى المصرى ثم الشافعى وذلك فى شوال سنة
سبع وثلاثين وسبعمائة بحرمة القدس الشريف وهذا الذى أثبتته من
نثره يدل على جلالة قدره وحفاوة بره وها أنا أثبت من نظمه ما يسمعك
عجبا ويريك ألفاظه ياقوتا ولجينا وذهبا :

من كل بيت لو تدفق طبعه ماء لغص به ألفضاء مسيلا
وكل قصيدة للعتول مقصودة ومقطوعة ، على الحسن مطبوعة ،
فمن ذلك قوله يمدح السلطان المؤيد صاحب حماة رحمه الله تعالى
من قصيدة العينية :

سرى طيفها حيث العواذل هجع فغم علينا نشره المتضوع
وبات يعطينى الاحاديث فى دجى كأن الثريا فيه كأس مرصع
أجيرانا حيا الربيع دياركم وان لم يكن فيها لطفى مربع

شكوت الى سفح النقا طول نأيكم
ولابد من شكوى الى ذى مروءة
فدبت حبيبا قد خلا عنه ناظرى
مقيم بأكناف الغضا وهى مهجة
أطال حجاز الصد بينى وبينه
لئن عارضت من دون زورته الغلا
محل ترى فيه جوامع نزهة
قرأنا به نحو الهنا فملا بس
وقد أمنتنا دولة شادوية

وسفح النقا بالبين مثلى مروع
يواسيك أو يسليك أو يتوجع
ولم يخل منه فى فؤادى موضع
والا بوادى (124) المنحنا وهى أضلع
فمقلته حور ودمعى ينبع
فيا رب روض ضمنا فيه مجمع
به تخطب الاطيار والقضب تركع
تجر وأيد بالمدامة ترفع
فما نختشى اللاوى ولا نتخشع

وقال يمدح من قصيدة (126) :

ملى الحسن حالى المرشفين
أبثك ان عاد لى المعنى
فحاكى قلبه قلبى خفوقا
لمثل هواك تجنح كل نفس
صدت فما الأسى عندى بقل
بروحى عاطر الانفاس ألمى
يهز مثقفا من معطفيه

متى يقضى ، وعود الوصل دينى
رآك بعين حب مثل عينى
وحكمك الهوى فى الخافقين
وتسفح كل ناظرة بعين
ولا دمعى بدون القلتين
رشيقي القد ساجى المقلتين
ومن جفنيه يجذب مرهفين

(124) ن 2 بالملاحاة

(125) اللاوى الشدة

(126) القصيدة فى مدح الملك الافضل بن المؤيد وكان يلقب صغيرا بالمنور :
الديوان .

له خالان في دينار خـد
وحول نقا سوافه عذار
أظل اذا نظرت لوجنتيه
فيالله من غضن فريد
أما وحياب مبسمه المفدى
لقد عذبت موارد ولكن
وقال أيضا :

واغيد تعرف من جفنه
أرخی على اعطافه شعرد
فأعجب لمن جار عليه الضنى
فقال يطلب الاذن :

ما يقوم المقام أيده الله
في ولى ببابه تركب الخلق
وقال :

أهواه لدن القوام منعظا
وهبت تبنى له فقال عسى
وقال :

لله خال على خد الحبيب له
أورثته حبة القلب القليل له

تباع له القلوب بحبتين
كما شعرت نقوش في لجين
أنزده في النقا والرقمتين
وفي خدييه كالتا الجنتين
على معسول كأس المرشفين
ندى المنصور أحلى الموردين

علامة الثانیث بالكسرة
قد جذبتنى فيه للحسرة
حتى غدت تجذبه شعرد

ولا زال للسعود يحوز
ووافى يجوز أم لا يجوز

يسل من مقلتيه سيفين
نومك أيضا فقلت من عيني

في العاشقين كما شاء الهوى عبث
وكان عهدى ان الخال لا يرث

وقال أيضا :

بقلت وجنة المليح وقد ولى
يا عذار المليح دعنى غانى

وقال أيضا :

رأيت فى جلق غزالا
فقلت ما الاسم قال موسى

وقال أيضا :

أهواه معسول الرضاب منعم
يا قلب هذا شعره وجفونه

وقال :

لا ينكر الكاسر أجفانه
فالريح ، ريح المسك فى خده

وقال :

علقتها غيداء حالية الطلا
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم

تجنى على عقل المحب وقلبه
فعدت مطوقة بما بخلت به

وقال :

بروحى معسول المراشف أغيد كثير التجنى ما أغر وما أغرا (127)
تثنى قضيبا فاح مسكارنا طلا سطا أسد ، غنى حماما ا بدا بدرا

وقال :

وأغيد جارت فى القلوب لحاظه (128) وأسهرت الاجفان أجفانه الوسنى
أجل نظرا فى حاجبيه ولحظه تر السحر منه قاب قوسين أو أدنى

وقال :

وضعت سلاح الصبر عنه فما له يقابل بالالحاظ من لا يقابله
وسأل عذار فوق خديه جائر على مهجتى فليتنق الله سائله

وحين ودعته تأسف للفراق وأعقب بارسال دمه المهراق وأنشدنى
وهو مما يجب أن يكتب على الاحداق لا على الاوراق :

فقال لى :

أودعكم وأودعكم لقلبى وعون الله حسبكم وحسبى
فقلت مرتجلا :

وأرعى حبكم ما دمت حيا وأرجو فضلكم رعىا لى

(127) فى الديوان : بروحى فتان اللواظ أغيد .. شديد التجنى ما اضر وما اضر .
(128) فى الديوان : وأغيد جارت فى القلوب فعالة .

ثم تألف بتلك المدينة الركب ، وأشتاق الى البقاع الكريمة القلب
فأعددت الزاد . وشددت الاقتاب والاقتاد (129) ، وخرجت من مدينة
القدس الشريف . فى عشى يوم الاربعاء الثانى عشر لشوال من العام
المذكور . وقد تضمخ حبى الاصيل بالعبير ، وكادت الشمس تسقط
من الغرب على شفير (130) ، فبتنا بقرب سورها ، وأخذنا من الامور
بميسورها ، وودعت بمنزلنا ذلك أخى محمد المذكور المتقدم الذكر وداعا
استولى على الفكر . فشغلت مقل بالدموع ، وأكباد بالجرم ، وطالت
النوى لوجدان الاسى وعدم الصبر :

ومدت أكف للوداع وصافحت وكادت عيون لفراق تسيل
ولابد للالفين من دمع لوعة اذا ما خليل بان منه خليل
ولما غاض نهر المجرة ، وابتسمت (131) أسنان الكواكب المفترقة ،
سرنا الى أن خيمنا بظلال روضات الغيور ، وقد استل سيوف الجداول
وترشح خمائل النور. معدت حينئذ فى صفة الشعراء :

وتحدث الماء الزلال مع الحصى فجرى النسيم عليه يسمع ما جرا
وكان فوق الماء وشيا ظاهرا وكان تحت الماء درا مضمرا
فترامينا على تلك المياه بين تلك الظلال مستقين وأنشدتهم
لكاتب ميا فارقيين :

وقانا وقدة الرمضاء ظل وقاه مضاعف الظل العميم
يراعى الشمس أنى قابلتنا فيحجبها وبأذن للنسيم

(129) الفتب : رجال صغير قدر السقام ، والقند خشب الرجل .

(130) فى الاصل خبير .

(131) ن 3 وهتمت : أى سقطت

(132) فى بعض النسخ فعدت .

وسقانا على ظمأ زلالا الذمن المدام لنديم
تروع حصاه حالية الغوانى فتلمس جانب العقد النظيم

ثم عبرنا واديه الكبير ، بعد أن لقينا الجهد الكثير ، وسرنا سيرا
مجدا ، لم نأل فيه جهدا ، الى أن اجتمعنا بالركب الصفدى بخارج
حسبان . وصلناها والاصيل قد ولى ، وعامل الظلال قد تولى ، فبتنا
جميعا بها ولم نفرق بين ظهور المطى وقتبها حتى عبث الابتسام
بالوجوم ، وفاض مهر المجرة على حصباء النجوم ، فنبهنا أيدي المطى
على سنة السكون وحركنا منها ما كان مبنيا على السكون ، وسرنا الى
أن وافينا مدينة (الكرك) (133) المحروسة العيا ، انتى هى من أمتع
معقل ، فى الدنيا ، فوصلنا اليها فى ضحوة يوم الاحد الثالث والعشرين
لشوال المذكور فرأيت مدينة عظيمة الجرم ، سامية الرسم ، كأنها على
مرقب النجم . يحصر دونها الناظر ويقصر عنها العقاب الكاسر يكاد من
علاها يعرف حوض الغمام ، ويقف على هام السحاب والقتام ، متناهية
فى الحصانة ، موصوفة بالوثاقة ، ممتعة على الطلب والطلاب ، مختصة
بكقرة الحراس وشدة الحجاب منصوبة على أضيق المسالك وأوعر
المناصب صماء عن الراقى ، عالية على المرتقى نائية للمراقب لن تزدها
الايام الا نبو أعطاف ، واستصعاب جوانب وأطرف ، فهو حمى لا يراعى
ومعقل لا يستطاع ، كأن الايام صافحتها على الاعفاء من الحوادث ،
والليالى عاهدتها على التسليم من القوارع ضخمة المأوى رحبة
المثوى (134) ، معشوقة السكنى رائقة المغنى .

تحسب النجم فى دجى الليل زهرا فى رباها وتحسب الزهر نجما
قد ساوت الفرقد بالوهاد والنجد ، وفتحت أبوابها أنقابا فى وسط
الحجر الصلد ، والعجب كل العجب أنها على بعد مرقاها ، وسمو

(133) ن 1 و 2 مدينة الكرك قلعة بنواحي البلقاء .

(134) فى الاصل : جنة المئوى

مرتقاها ، قد أينعت في أعلاها الثمار وتفجرت منها العيون والانهار فكلما
هب فيها النسيم غردت الاطيوار .

فهى لا تسئل الغما م ولا تشتاق كالارض كلها اذار

فنزلنا بخارجها في الثنية العلية ، وقد وصل بوصولنا المحمل
الدمشقى والمركب الحلبى وتألقت هنالك ركبان الشام وأعدت عدة السير
لزيارة أفضل الانام عليه أتم الصلاة وأكمل السلام ، ثم تجهز الركب
الكركى للسير أولا على عادته الحسنة فتجهزت معه مبتغيا بركة التقدم
والاسراع وقاصدا السبق في أول وافد على تلك البقاع وخرجنا منها
ضحوة يوم الاثنين من غد اليوم المذكور وهو اليوم الرابع والعشرون
من شوال فسرنا في جيش كثيف وعدة ظاهرة تحت اعلام فخمة وطبول
هادرة ، وأخذنا نجد السير ليلا ونهارا ، ونصل السري اظلاما واقمارا ،
ونقطع أرضا صحراء مخوفة القطع ، جرداء كالنطع ، سوداء مثل القطع ،
يخطى الدليل سمتها ، ويضل السبيل عوجها وأمتها (135) نخترق منها كل
خرق وسببب ونموج فيها عند كل صبح وغيب وتلك الجمال المباركة
تمد أعناقها ، وتحقق أحداقها ، وتقري من الفيافى أزرارها وأطواقها ،
وتشكو اليها أسرارها وأشواقها ، ويطربها الحداة فتبل دموعها محاجرها
وآفاقها :

(تتننى الى حداتها أعناقها كأنها تأخذ عنهم خبرا)

والنوم قد طار عن الاجفان ، وكاد يسير بكبد الظمئان اللهفان ،
ويسرى لبیت الرسول من الزوار ولله من الضيفان فأول ماء وردناه من
مياه تلك الصحراء كان يعرف بالحساء وهو ماء عذب زلال ، حوله أسس
وأطلال ، تنبى عن استصعاب أبد ، واقتراب من عهد لبد ، فبتنا فيه

(135) الامت : الارتفاع

ن 2 لبييت

ليلتنا وأروينا فيه غلتنا ، وسرنا صباحا نجد السير ، ونسرع اسراع الطير ،
لا تستقر بنا حرارة منزل ، ولا نبيت بحمى الا والكري عنا بمعزل ، الى
أن وردنا ماء مغان وهو ماء كثير عذب زمير ، فبيتنا به وقد عزمنا
على الرحلة وأتينا صدقاتها نحلة ، ثم سرنا في قفر صفر ، واقتحمنا
صدر فلاة تروع كل سعادة :

ومهامه كالبحر لا أثرا فيها لمفتقر ولا سنن
لو سار فيها النجم ضل بها حيران لا شام ولا يمن

الى أن وصلنا الى تبوك التى غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وبلدها اليوم خراب ، وعلى كل جدار غراب ، فوردنا البير المبارك التى
فاضت ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحنا بنزولها وسرحنا
في ظل نخيلها ثم سرنا في مهامه تجمع بين النفس والجزع ، وتتصيد
عنقاء البسالة في شرك الفرع ، الى أن وصلنا الى العلا بعد مدى بعيد ،
وعناء شديد ، وهى بليدة ذات منظر جميل ، كثير المياه والنخيل ، وبينها
وبين تبوك مسيرة ثمانية أيام ، نهارا وليلا وهى مسافة لها مهابة
ومخافة ، تتعب فيها الركاب ، وتفقد الرفقاء والصحاب : وتكابد
الخطوب الصعاب ، وقديما ضربت العامة بها مثلا فقالت : ترك أبوك
بين العلا وتبوك ، ثم رحلنا من العلا صباحا ، وسرنا غدوا ورواحا ، الى
أن وردنا بيرا يقال لها (بير الناقة) بقرب الموضع المعروف بمبرك الناقة .
ويعنون بالناقة ها هنا ناقة النبی صالح صلى الله عليه وسلم فوافينا
البير بجهد عظيم وعطش عميم ، وهجير كأنما أرسل من نار الجحيم ،
فبيتنا بها ثم أدلجنا منها ، وتبلغ الفجر ونحن نسير في مدن النبی صالح
عليه السلام ، فعاينت منها عجبا ، بيوتا منحوتة من الصخر ، ومجالس
مكونة من الجبال لا تفنى الى آخر الدهر ، وغرفا معلقة في الهواء مأوى
للنسر ، وقصورا مقصورة على الوحوش والطير ، كما قال تعالى وهو
أصدق القائلين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأدرك الناس

العبر ، وعاینوا منظرا لا تشرحه عبارة الخبرة ، لا يخبر عنه الا منظره ،
ولا يشفى من حديثه الا محضره ، وما عدا ذلك فنجم من سماء ، ونقطة
من ماء :

كما قابل الزند بركان نار وحقف الثماد القليل بحار

ولم نزل نسير ، وقد جد المسير وحمى الهجير ، وعدم الماء ، وتحكم
العناء ، وعم العطش والاعياء وكاد أن يستولى علينا الفناء :

ولذة جسمى ذاك الضنى وراحة قلبى ذاك الالم

ولم نزل الحال كذلك حتى وردنا ماء هدبه فأغثنا به غل الاكباد ،
وعادت الارواح للاجساد ، ولما شارقنا أرض هدية ، تفاءلنا بأن تكون
لنا هدية ، وقصد عربان الفلا أن يتخذونا كاسمها ويجعلوننا فى الدروس
كرسمها ، فضربوا على ذنب الركب فى رأس المضيق ، وأذاقوه دون
برد الماء بأطراف الاسنة عذاب الحريق ، فأنبرى من الركب من
صرفهم عن تلك النية وصافحهم بيد البلية ، ثم حللنا عرى السفر ، وحللنا
بساحة هدية الظفر ، فأحدقنا بها احداق الهدب بالعين ، وأطرنا بمختلس
وصالها وغربان البين ، واجلتينا منها عروسا قد مد بين يديها بساط
الماء ، وتوجت بالهلال وقرطت بالثريا ووشيت (136) بنجوم السماء ،
وبتنا تلك الليلة مسرورين بالقرب مستبشرين ، حامدين الله تعالى
شاكرين مرتقبين لوشك الرخيل منتظرين :

طال الوقوف برسم الدار يا حادى فمل عسى خبر من جانب الوادى
عرج بمنعرج الوادى لعل به منهم شفاء لقلب الهائم الصادى
ثم ارتحلنا صباحا ، وسرنا نتلقى نجحا ، ولم نزل نفرى الفلا
ونجذب البرا ، ونجد السير ونؤثر السرى ، حتى بدت أعلام وادى القرى

(136) ن 1 ووشيت ن 2 و 3 ووشحت .

فدنا الانس ، وانشرحت النفس ، ونسخ باليوم الامس ، كلما قيل
غدا تدنو الدار ، ويقرب المزار طربت على السماع ، وترقبت الملتقى من
ثنيات الوداع ، وكفكت العبرات ، وتمثلت بهذه الابيات :

قالوا غدا تدنو فواحسرناسا لو كان بالعمر غدا يشتري
أسمع بالقرب ولكنني لا تتطفي ناري حتى أرى
يا ليلة قد بقيت هل ترى أحمد في صبح رجاك السرى

وحين وصلنا الى ثنية (المدينة النبوية الكريمة) علمنا أن لمشاركة
اسمها استحققت الثنايا قبل ، ولما انجلت عنه من بارقة اللقاء اتصف
بها الاشتراك واتصل ، فشاهدنا نورا خالف العادة اشراقه ، وعز على
ضوء النسرين لحاقه عرفته البصائر قبل الابصار وانكرته النواظر لعلو
جوهر نزره على الانوار ، ففسحت لطرف طرفي في ذلك الافق مجالا ،
وأرسلت دمعى سجالا ونظمت ارتجالا :

الله أكبر حبذا اكباره لاح الهدى وبدت لنا أنواره
لاحت معالم يثرب وربوعها مشوى الرسول وداره وقراره
هذا النخيل وطيبة ومحمد خير الوري طرا وها أنا جاره
هذا المصلى والبقيع وها هنا ربع الحبيب وهذه آثاره
هذى منازل المقدسة التى جبريل ردد بينها تكراره
هذى مواضع مهبط الوحي الذى تشفى الصدور من العمى اسطاره
هذى مواطىء خير من وطئ الثرى وعلا على السبع العلا استقراره
ملا الوجود حقيقة اشراقه فأضاء منه ليلة ونهاره
والروضة الفيحاء هب نسيمها والبان بان ونم منه عراره
وتعطرت سلع فسل عن طيبها لم لا تطيب وحولها مختاره

بشرك يا قلبى فقد نلت المنلى
قد أمكن الوصل الذى أملتته
قد كان عندى لوعة قبل اللقا
رفقا قليلا يا دموى أقصرى
قد كانت العين الكريمة فى غنى
أضيع من زار الحبيب وقد درى
أخيىب من قصد الكريم وعنده
أيؤم بابك مستقيل عائر
حاشا وكلا أن تخيب آملا
يا سيد الارسال ظهري مثقل
رحمك فيمن أوبقته ذنوبه
ليس الصغار وقد تعاظم وزره
شط المزار ولاقرار وشدما
وافى حماك يفر من زلاته
وأناك يلتمس الشفاعة والرجا
والعبد معتذر ذليل خاضع
متسول قد اغرقته دموعه
قدفت به فى غربة أوطانه

وبلغت ما تهوى وما تختاره
وكذاك حبى أمكنت أسراره
فالآن ضاعف لوعتى ابصاره
فالدمع يحسن فى الهوى اقصاره
عن أن يفيض بتربها تياره
ان المزور بباله زوراه
حسن الرجاء شعاره ودثاره
فيرد عنك ولا تقال عثاره
فيعود صفرا خييت اسفاره
فعسى تخف بجاهكم أوقاره
فكأنما اقباله ادباره
والعفو تصغر عنده أوزاره
يلقى محب شط عنك مزاره
واليك يا خير الانام فراره
اقتاده وظنونه انصاره
ومقصر قد طولت اعذاره
متنصل قد أحرقتة ناره
ورمت به لعلائكم أوطاره

فامنن وسامح واعف واصفح واغتفر
فلانت ماح للخطأ غفاره

صلى عليك الله ما حيا الحيا روض الربا وترنمت أطياره
ثم تحدرنا من الهضاب ، وقذفتنا بطون الاودية من أفواه الشعاب
ولاحت لنا الانوار النبوية من تلك القباب وشرفنا الجباه بوطء ذلك
التراب :

ولما رأينا ربع من لم يدع لنا فؤادا لتذكار الديار ولالبا
نزلنا على الاكوار نمشى كرامة لمن بان عنه ان نلم به ركبا
ومن آداب الزيارة اذا أشرف الزائر على المدينة أو على البيت
أن يترجل ولما قدم الجوهرى المدينة ترجل وجعل يقول :

رفع الحجاب لنا فلاح لناظرى قمر تقطع دونه الاوهام
واذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرحال حرام
قربتنا من خير من وطئ الثرا فلها علينا حرمة وذمام
ومشى حتى بلغ الى المسجد وهو ينشد :

هذه دارهم وأنت محب ما احتباس الدموع فى الاماق
والمغانى للصب فيها معان فهى تدعى مصارع العشاق
حل عقد الدموع وأحلل رباها واهجر الصبر وآقض حق الفراق

ووصلنا الى المدينة النبوية ، المقدسة الشريفة المخصوصة بالصفحة
الزهراء والتربة البيضاء ، والبقعة المشرفة بمجد صلى الله عليه وسلم
سيد الانبياء صلى الله عليه وسلم صلاة تتصل مع الاحيان والاناء ، فنزلنا
بها من ضحى يوم الخميس التاسع عشر لذى القعدة من العام المذكور
ثم ابتدرنا الى الحرم الشريف ، والكرم قد فتح الباب ورفع الحجاب
وملا بالبر الرحاب ، فاستعظمنا الاقدام على المقام ، وعجزنا عن أداء
ما يجب من السلام فعبرت العبرات عن الكلام ووقفنا بين يدى ساكنه

عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فيا لها تحية أرق من النسيم اذا سرى
وسلاما أندى على الاكباد من قطر الندى ، والذي في الاجفان من سنة
الكري ، وحين فزت بهذه النعمة فوزا عظيما ، ودخلت مع تلك الفوحة
مدخلا كريما ، وثبت بعد الاستغفار بالتربة والرحمة لقوله تعالى ولو
أنهم ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا
الله ثوابا رحيمًا ، وأخذت في تلاوة القرآن المنزل عليه في حضرته ومثلت
نفسى جالسا بين يديه الكريمة أعرض عليه درسى بعد استيذانه
ومشورته ، ثم ختمت الختمة بالدعاء ، واضرمت نيران الاشواق بماء
البكاء ، وهنأت نفسى ببلوغ المنى وزوال العناء :

وعفرت خدى فى شدا ذلك الثرى ومتعت طرفى بالحبيب ومسمى

ثم اقبلت على ذلك الحرام الشريف . والمسجد الرفيع المنير ،
أتأمل محاسنه ، وأتخيل فيه بين أصحابه الابرار ساكنه ، فمن أبدع
ما رأيته وأبرعه قصيدة فريدة كتبت بالخط المذهب الرائق البديع ، وأثبتت
فى ألوان الازهان التى تخجل زهر الربيع ورفعت أمام المقدسة فى سقف
المسجد الشريف الرفيع فنحلت القراطيس لؤلؤها ، ونقلت كل ما كان
قبلها وبعدها ، وها هى تسفر عن غرتها الواضحة ، وتعبق عن نسمتها
النافحة ، وتشهد لناظمها بالقريحة الراجحة والعقيدة الصالحة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم ،

سلام كنشر الورد من مسقط الندى	عليك رسول الله يا منزل الهدى
ويا مهبط الاملاك والوحى لم تنزل	أنيسا بزوراء الرسول ممجدا
ويا تربة المختار أفديك تربة	بنفسى وان كانت أقل من الفدا
ويا بيته حيا ومثواه ميتا	لك الفخر فى حاليك بيتا ومشهدا

تضمنت أعضاء الرسول مبوءا
سقى الله منك الترب أفضل ما سقى
فيا منزل الابرار حييت منزلا
كأنى أرى صحب النبي محمد
ففيك بدت من جنة الخلد روضة
سلام من الرحمن يذكو أريجـه
سلام ورضوان وروح ورحمة
فيا خير أهل الارض بيتا وعنصرا
وأوسعهم خلقا وأزكى خلائقا
ويا صفوة الرحمن من خير خلقه
شهدت بأن الله لا رب غيره
وأشهد أن الله أهداك رحمة
فصلى عليك الله يا خير مرسل
وصلى عليك الله ما لاح بـارق
وصلى على الابرار أهلك أنهم
هم القوم عنهم اذهب الرجس كله
وصلى على أصحابك الغر انهم
صلاة الالهى والسلام مضاعف

مهادا من الفردوس فيك ممهدا
وصلى على من حل فيك موسدا
ويا مسجد الابرار شرفت مسجدا
بارجائك انبثوا ركوعا وسجدا
تطوف بها الاملاك مثنى ومفردا
أخص به خير الامام محمدا
على روحه ما راح ساع وما غدا
وأشرف خلق الله نفسا ومحتدا
وأطيبهم خيما (137) وأطيب مولدا
وأطولهم طولا وأعظم سؤودا
وان رسول الله حقا محمدا
الى خلقه واختارك الله سييدا
ويا خير من بالمعجزات تفردا
وما ناح طير فى الغضون مفردا
بنورهم يأتهم من قد تزهـدا
وركب فيهم كل خير وأوجدا
نجوم بها ينجو غدا من بها اهتدى
على المصطفى المختار ما اتصل المدى

(137) ن 2 اوسعهم حلما ، والخيم : الطبيعة والسجية

اللهم ادم العز والتمكين والنصر والفتح المبين لعبدك المسكين ،
الذى أوليته أمور المسلمين واخترته على كثير من العالمين السلطان الملك
الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، وأبو المعالي محمد قسيم أمير المؤمنين
سلطان الاسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، قاهر الفجرة
والمتمردين ، حامى حوزة الدين ، سلطان الديار المصرية والعراقية ،
والبلاد الشامية ، ملك البحرين خادم الحرمين الشريفين ، ولد السلطان
المرحوم ، الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاون الصالحى ادام
الله أيامه ، ونشر فى الخافقين رايته وأعلامه ، وجعل السعد والاقبال
حيثما توجه أمامه ، وكان ابتداء العمل فى شهر ربيع الاول ، وانتهأؤه
فى جمادى مستهل الاخير سنة احدى وسبعمائة للهجرة النبوية انتهى .
والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلىة من المسجد الشريف مما يلى
الشرق ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات وشكلها عجيب ، لا يكاد
يتأتى تصويره لاحد ولا تمثيله ، والصفحات الاربع محرغة من القبلة
تحريفا بديعا لا يتأتى لاحد استقبالها فى صلاته ، لانه ينحرف عن القبلة
وقيل ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اخترع فى تدبير بنائها مخافة
أن يتخذها الناس مصلى ، وفى الصفحة الغربية منها صندوق من أبنوس
مختم بالصندل مصفح بالفضة مكوكب بها هو قبالة رأس النبی صلى
الله عليه وسلم ، وطوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة وارتفاعه أربعة
أشبار ، وفى الصفحة القبلىة أمام وجه النبی صلى الله عليه وسلم مسمار
فضة هو قبالة الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام عليه صلى
الله عليه وسلم والى قدميه رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه ورأس
عمر الفاروق رضى الله عنه مما يلى كتفى أبى بكر رضى الله عنه فيقف
المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ثم ينصرف الى
وجه أبى بكر ، ثم الى وجه عمر رضى الله عنهما ، وأمام هذه الصفحة
المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة ، وفيها اثنان من الذهب
وتوقد كل ليلة مع غيرها من الشمع العظيم العجيب ، فجميع سعة

الروضة المباركة من جميع جهاتها مائة شبر واثنان وسبعون شبرا ، مؤزرة بالرخام البديع النحت ، الرائق النعت وينتهى منها الى نحو الثلث والى حيز الرخام تنتهى الاستار من الديباج وهى لا زوردية اللون مختمة بخواتم بيض مثمثة ومربعة ، ومنظرها منظر رائع بديع الشكل ، والجدار المكرم قد علاه تضيخ المسلك والطيب متراكما عليه على طول الازمنة وتعاقب الايام ، والذى يعلو مع علو الجدار شبابيك عود متصلة بالسلك الاعلى لان أعلى الروضة المقدسة متصل بسلك الجدار الشريف ، وبين الروضة المقدسة والشبابيك المباركة مدى واسع ، وللشبابيك أبواب مكتوبة على كل باب منها ما نصه (بسم الله الرحمن الرحيم خدم بهذه الدار بزيينة للحرم الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبى الفتح بيبر الصالحى ، قسيم أمير المؤمنين فى سنة ثمان وستين وستمئة ، وفى جوفى الروضة المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب قيل أنه كان بيت فاطمة رضى الله عنها وقيل أنه قبرها والله أعلم ، وعن يمين الروضة المقدسة المنبر المبارك الذى قصر الصانعون عن صنعته ونبت الافهام عن مرام شبهه فقام فى أدق نممة ، وأوضح رقم من رفيع الابنوس ونفيس الصندل الاحمر والاصفر والبقس واللبع والبقم والشوحت والقيقب (138) بأحكم تصنيف وأبدع تركيب وما بينهما الروضة التى جاء فيها الحديث أنها من رياض الجنة فتراحم الناس فيها للصلاة وحق لهم ذلك وبازاء الجهة القبيلة عود يقال أنه مطبق على بقية الجذع الذى حن للنبي صلى الله عليه وسلم وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويتبركون

138) البقس واللبع (أو) (النبع) والبقم والشوحت والقيقب ، انواع من الاشجار معروفة يصبغ بطبخها (البقس) شجر معروف كالآس ورقا وحبا ، صلب تتخذ منه المفالق والابواب والمعالق والوانى و (اليفم) شجر يصبغ به قيل هو العندم (دخیل معرب) ورقه كاللوز وساقه احمر . والشوحت ضرب من النبع تتخذ منه القسى وهو ما ينبت فى الحضيض والنبع ما ينبت فى الاعالى .

بلمسها ومسح خدودهم فيها ، وطول المسجد الكريم مائة وست وتسعون
خطوة وسعته مائة وست وعشرون خطوة وهو بالذراع ثلاثمائة ذراع
طولا ومائتان عرضا وتكسيه من المراجع المغربية أربعة
وعشرون مرجعا ، وعدد سواريه ثمانمائة وتحفه من جهاته الأربع بلاطات
مستديرة به ووسطه كله مفروش بالحصى والرمل وفي صحنه قبة بيضاء
كبيرة أمامها خمس عشرة نخلة نصف جدار القبة الاسفل رخام موضوع
ازار على ازار مختلف الصنعة واللون مجزع أبدع تجزيع ، والنصف
الاعلى من الجدار منزل كله بالذهب قد أنتج الصناعات فيه نتائج غريبة
من الصنعة فيها تصاوير أشجار مختلفات الصنعة ماثلات الاغصان فيه
بثمرها ، والمسجد المكرم كله على تلك الصفة لكن الصنعة في جدار القبلة
أحفل والاحتفال في هذا المسجد المبارك أكثر من أن يأتي عليه الوصف
وللمسجد الكريم أربعة أبواب كبار هي المفتوحة الآن في الغرب منها
اثنان يسمى أحدها باب الرحمة والثاني باب الخشية وفي الشرق
واثنان يعرف الواحد بباب جبريل عليه السلام ، والثاني بباب الرخاء ،
ويقابل باب الرحمة مدرسة لم أر أحسن بناء منها ولا أبدع صنعة ،
ويقابل باب جبريل دار عثمان رضى الله عنه وهي التي استشهد بها
وبازاء المقصورة لجهة الشرق خزانتان كبيرتان تحتوى على كتب
ومصاحف موقفة على المسجد المبارك ، ويخارجه لجهة الشرق دار أبى
بكر الصديق رضى الله عنه وبأزائها دار عمر بن الخطاب رضى الله عنه
ودار ابنه عبد الله رضى الله عنه ، وللحرم الشريف أربع صوامع غنى
الأربعة الجوانب ، وبظاهر المدينة الكريمة من جهة القبلة على ميلين
اثنين منها مسجد قباء وهو مسجد حسن عدل (140) التبريع مستوى
الطول والعرض ، ظاهر البركة كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتيه
راكبا وماشيا ، وروى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال

الصلاة في مسجد قباء كعمرة ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من توفياً فأحسن وضوءه ثم جاء مسجد قباء فركع فيه أربعة ركعات كان ذلك كعمرة على عمرة (141) وفي وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وعليه شبه روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة فيه وفي صحته مما يلي القبلة شبه محراب على مصطبة هو موضع ركوع النبي صلى الله عليه وسلم وبأعلى المحراب مكتوب ما نصه بسم الله الرحمن الرحيم لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، هذا مقام النبي صلى الله عليه وسلم جدد هذا المسجد في تاريخ سنة إحدى وسبعين وستمائة وطول المسجد مائة وعشرون خطوة وعرضه كذلك وله باب واحد من جهة المغرب ومئذنته عالية جداً بيضاء تظهر على بعد ، وأمام بابه بئر كبير عذبة معينة ، يأتي الماء منها إلى المدينة ، وفي قبلة المسجد دار أبي أيوب الأنصاري ويلى دار أبي أيوب وهى دار بنى النجار دار عائشة وبازائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبي بكر رضى الله عنهم ، وقباء كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة والطريق إليها بين دائق النخيل المتصلة والنخيل يحدق بالمدينة وجهاتها كلها ، وأعظمها نخلاً جهة القبلة وجهة الشرق وعند قفولنا من قباء . أتينا مسجد الفتح الذى أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم فيه سورة الفتح فتبركنا برؤيته وشفعنا ما شاء الله فى بقعته ، وبظاهر المدينة الكريمة من جهة الجوف على مقدار ثلاثة أميال منها جبل أحد وبه مشهد حمزة رضى الله عنه ومشاهد الشهداء بازائه وفى طريق أحد ، مسجد على رضى الله عنه ومسجد سليمان الفارسي رضى الله عنه ، وبخارج المدينة الكبيرة من جهة الشرق بقيق الغرقد فأول ما يلقي الخارج من باب البقيق على يساره مشهد صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم أم الزبير بن العوام رضى الله عنهما وأمامه قبر مالك بن انس رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء

وأمامه قبر النسالة الطاهرة النبوية ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم وعليه قبة بيضاء وبقربه عقيل بن أبي طالب وعبد الله بن أبي جعفر الطيار رضى الله عنهم ، وبأزائهم روضه فيها أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم بأزائها روضه صغيرة فيها ثلاث من بنات النبي (142) صلى الله عليه وسلم تليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علي ورأس الحسن الى رجلى العباس رضى الله عنهما وهي قبة كبيرة مرتفعة في الهواء والقبران مرتفعان عن الارض متسعان مغشبان بألواح منصقة ابداع الصاق مرصعة بصفائح الصخر ومكوكبة بمسامير على ابداع صفة وأجمل منظر وعلى هذا الشكل قبر ابراهيم بن النبي صلى الله عليهم وسلم وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد ذي النورين رضى الله عنه ، وعليه قبة كبيرة مختصرة عالية وعلى مقربة منه مشهد فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رضى الله عنهما وعلى القبر مكتوب ما ضم قبر أم أحد كفاطمة بنت أسد رضى الله عنهما وعن بنيتها ومشاهد هذا البقيع المكرم أكثر من أن تحصي لانه مدفن الجمهور من الصحابة المهاجرين والانصار رضى الله عنهم وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات في أحد الحرمين حاجا أو معتمرا بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب وفي طريق آخر بعث من الامين يوم القيامة وعن ابن عمر عنه عليه السلام من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فاني أشفع لمن يموت بها وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من جاءني زائرا لا يهمله الا زيارتي كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعا ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي .

وفي كتاب الشفاء لابن سبع رحم الله ان بعض العلماء قال ومما خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من الآيات الظاهرة والعلامات

(142) ن 2 من اولاد النبي
 (143) الجوف: الشمال وقد ذكر شكيب أرسلان توجيهات لهاته الكلمة في الجزء 1
 ص 34 .

الزاهرة الشعاع الذى يرى فوق المدينة كالاكليل يتطاير من موضع لا يخفى على من يتأمله وهذه كرامة أفرد بها المدينة دون سائر البلدان .
والمدينة المكرمة أربعة أبواب وهى تحت سورين فى كل سور باب يقابله باب آخر الواحد منها حديد كله ويعرف بباب الحديد ويليه بـباب الشريفة ثم باب القبلة ثم باب البقيع المذكور ، وقبل سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة هو الخندق الشهير الذكر الذى صنعه النـبى صلى الله عليه وسلم عند تحزب الاحزاب وبينه وبين المدينة المكرمة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنـبى صلى الله عليه وسلم وعليها خلق عظيم وبنيان مستدير ومنبع العين وسطه كأنه الحوض المستطيل ، وتحتة سقايتان مستطيلتان باستطالة الخلق ، قد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور جدار ، فحصل الحوض محدثا بجدارين وهو يمد السقايتين المذكورتين ويهبط اليهما على أدراج عددها خمسة وعشرون درجا وماء هذه العين المباركة يعم أهل الارض فضلا عن أهل المدينة ، وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد يهبط اليها على أدراج وماءها معين وهو بمقربة من الحرم الكريم ، والمدينة الكريمة فى مستو من الارض شريف نزيه وسماها عليه السلام طيبة لان من توجه نحوها يجد رائحة طيبة على مسيرة أميال ، والمدينة المكرمة متسعة الارحاء مشرقة الانحاء طيبة الهواء كثيرة النخيل والماء ممتدة التخطيط والاستواء حسنة الترتيب والبناء لم أر قط ولم أتنشق عائق من رباها ولا أعبق من صباها ولا أمرع من روضها ، ولا أمرح من أرضها ولا أصفى من جوها ولا أضوأ من ضوئها ، ولا أشرق من نورها وأفتنن من زهرها ولا أرق حاشية من أديمها ولا ألصق بنياط القلب من أرجها ونسيمها .

أحب الحما من أجل من سكن الحما
ومن أجل من فيها تحب المنازل

ولم أزل الازم ذلك الحرم الشريف مساء وصباحا وأتتعم في روضته الجنة غدوا ورواحا ، وأرسل دمع اللقاء مدرارا ، وأناجى الحبيب ليلا ونهارا ، فتهب نفحات القبول من ذلك الجناب ، وتتفتح أرواح الرحمة فأجلى المحبوب من وراء حجاب ، ويزدحم الناس على الروضة المقدسة فتتلقاهم جنات عدن مفتحة لهم الابواب ، وفي كل ليلة تتجدد لها من اللطائف والتحف ، والطرائف والزلف ، ما تقصّر اللسان من نعتها ، وما نرى من آية الا وهى أكبر من أختها ، وقد أثبت جميع ما سمعت ، وجميع ما لقيت من ذلك الحرم النبوى الشريف فى برنامج روايتى . وأكبر من لقيت به وأفضلهم وأعلمهم بالله تعالى وأزهدهم وأكملهم الشيخ الامام الاوحد ، ولى الله تعالى أبو محمد بن أسعد بن على اليافعى ، اليمنى الشافعى ، رضى الله عنه هو أجل العلماء العابدين وأفضل الاولياء الزاهدين ، وأحفل الادباء البلغاء الماجدين أثر الفقر عن الغنى ، واختار الآخرة على الدنيا وتبدل من الجياد ، بالوهاد ، واعتاض من اللدونة بالخشونة فقطع العلائق ، وهجر الخلائق ، ورأى الدنيا ساعة فجعلها طاعة ، وشمر للعبادة كل التشمير وبالع فى الزهادة حتى ما أبقى من فتيل ولا قطمير ، فخرج من موطنه الى بلاد اليمن سائحا وانقطع لعبادة مولاه شابا صالحا، مفارقا للامرة، وهاجر دياره الى دار الهجرة ، فاشتهر علما وعقلا ، واشتغل بالحق عن الخلق وكفى بالعبادة شغلا ، واستنفد فى طاعة مولاه الجهد ، واستشهد فى دنياه الجهد ، وآثر الرغبة عنا والزهد ، وتسوغ صابها كما يتسوغ الشهد ، وأطال فى حنادسها السهد ، وواصل الصيام والقيام حتى أفنى العظم والجلد ، ولقد عاينته وقد الصق بالارض الخد وأرسل دموعه حتى سقت الثرى والنجد ، وعلا صياحه متأوها باكيا حتى كاد أن ييكى الحجر الصلد . فيرحمه من شاهدهوه قد فنى ويرتجى له الخلد . فاستقر بالحرم النبوى الشريف وقر فى ذلك الجنات العالى المنيف ، وقسم مجاورته الكريمة . بين الحرمين الشريفين مكة والمدينة

فتارة يكون في جوار بيت الله ، وتارة يسكن في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وشرف وكرم . لم يزل على ذلك منذ سنين ، فله من الحجج ما ينيف ، على الخمسين ، ما ملك زيادة على ستر عورته ولا علم أحد من أين يأتيه سد جوعته ، وقد رفع العلم قدره ، واحتقرت العين طمره ، ولو أقسم على الله لأبره :

رب ذي طمرين نضو يأمن العالم شـره
لا يرى الا غنيـا وهـو لا يملك ذره
ثم لو أقسم في شيء على الله أبره (1)

لقيته بالحرم النبوي الشريف فسمعت منه ، ورويت عنه ، وظهرت لي بركة لقائه ، وأجابة دعائه . نفعنا الله به وبأوليائه وسمعت من لفظه كثيرا من تأليفه الذي سماه كتاب الارشاد والتطريز . في فضل

(1) مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم ، كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك ، انظر سنن الترمذي (كتاب المناقب) ، باب 54 — 65 — ، وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره فممنهم البهاء بن مالك ، وأخرج البخاري عن حارثة بن وهب الخزاعي عن النى صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره (كتاب البخاري ، كتاب الايمان — باب 9) وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رب أشعث مدفوع بالابواب لو أقسم على الله لأبره .

ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز ، وفضل الاولياء والناسكين والفقراء
والمساكين ، وهو تأليف بديع السلك ، وأجازه لى وأذن لى فى روايته
عنه وأجازنى اجازة تامة وأنشدنى منه قصائد عديدة لنفسه ، من
ذلك قصيدة طويلة أحسن فيها ما شاء وأجاد وأولها .

قفى حدثينا من حديث الاحبة وقد سكرنا من كأس راح المحبة
وأقمار حسن قد تجلت ليجتلوا عرائس أنوار عن الوصف جلت
ومن ذلك قصيدته التى أولها :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل وعدت الى صحيح أول منزل
ونادت بى الاشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فأنزل
وأنشدنى لنجم الدين الاصبهاني :

وقد أوطأت نعلى كل أرض وقد أتعبت نفسى باغتراب
وقد طوغت فى الافاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

ومن أعظمهم رياسة ، وأكرمهم سيادة وسياسة ، الشيخ العالم
الرئيس جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الخزرجي
المصرى (1) السعدى العبادى رضى الله عنه ذو المجادة والاصالة ،
والسيادة الماثورة والجزالة ، والحفظ لرسوم العلم والجلالة ، الذي
عم بالوفد ، وشهد بالرغد ، وتبوا بحبوحه المجد ، وسار سيرة الصلحاء
الاخيار وورث الاعمال البرة من أسلافه ، وتقبل ذروة العز المكيئة ،
وأشير اليه بالسمت والعدالة والسكينة ، كبير الرؤساء ، وأثير الكرماء ،
وعارض النعماء ، وفاضل العلماء وكامل السؤدد والعلاء ، عكف على

(1) فى بعض النسخ المطري .

اسماع الحديث واقامة السنة ، لقضاء أوطار أهل الاوطار ، لا واهى
الهمة ولا ضعيف المنه ، لقي الصدور الاكابر ، فوعي مدره علما كبيرا
وسقى زلال الحكمة فأحيا الله به انعاما واناسى كثرة .

جزته جوازي الخير عنهم عانه سقاهم بشؤبوب من العدل ساجم
فقد سار فيهم سيرة لم يسر بها من الناس الا مثل كعب وحاتم

لقيته بالحرم النبوي الشريف تجاد الروضة المقدسة ، فسمعت
عليه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الاربعين حديثا
التي خرجها له الامام الحافظ علم الدين البرزالي الدمشقي في كتاب
الزيارة لأبي اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر ، وحدثني بها
عن أبي اليمن بن عساكر المذكور سمعا عليه ، وأجازنيها مع جميع ما
يحملة ويرويه اجازة تامة مطلقة عامة ، ومولده في سنة ست وسبعين
وستمئة وما برحت في ذلك الحرم النبوي الشريف في بلوغ رسول ،
ومجاورة اكرم نبي ، وأفضل رسول ، الى أن وصلت الركبان الشامية
التي كنا خلفنا خلفنا ، فخرجنا باثر وصولهم ، وهبت علينا نفحات
القبول والتكرم ، والشوق في كل ذلك مكتنف ولا دمع الا منذرف ، ولا
قلب الا مختطف .

ولولا الترجى للمحبين لم تكن قلوبهم يوم النوى تعمر الدرا

وكان خروجنا من المدينة الكريمة في ضحوة يوم الاثنين الثالث
والعشرين لذي القعدة المذكورة وسرنا نكفكف أمطار الدموع ، ونخلف
المدينة الكريمة بالطرف الراق والقلب الولوع ، وقلبي يتوقف ويتخوف
على اللحاق ، ويتخلف عن الرفاق من فرق الفراق ، بعد فرح التلاق
فصارعت مرامه وأنشدت أمامه :

لله أي هوى برامه حيث القلوب المستهامه
لم يبق قلب في الحمى الا وقد أعطى زمامه
بالله يا حادي القلو ب اذا رجعت مع السلامة
فاخذع فؤادى عليه يرعى لمنزله ذمامه

حتى انتهينا الى ذى الحليفة وهى على خمسة أميال من المدينة
أحرم من هناك أكثر الناس بالحج مفردين ، وقارنين ومتمتعين .
فأحرمت منها بحجة مفرد ، ومنها أحرم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ومنها هو حرم المدينة الكريمة الى مشهد حمزة رضى الله عنه
الى (قبا) ثم سرنا ملبين راغبين لله تعالى مبتهلين ، ولم نزل نسير فى
تلك الاودية وهجيرها يلفح . وزغيرها لا يكف عنا ولا يصفح الى أن
واغينا وادى الصفراء فنزلنا على نعيمه الذي به حييت الذماء ، وان هو
الا الاسودان التمر والماء ، وسرنا الى أن نزلنا ببدر وهناك يجتمع من
مصر والشام الطريقان ، ويتألف منهما الفريقان . وبمنزلنا ذلك
اجتمعنا مع الركب المصري والمحمل الآمري فروينا من عذب ذلك
الماء ، وزرنا مشاهد الصحابة الشهداء . ثم رحلنا الى أن وردنا ماء
(رابغ) بقرب الجحفة فأحرم هنالك من كان دون احرام . وارتحلنا
محرمين الى بلد حرام . الى أن وصلنا (خليص) فوردنا فى ماءها النмир .
وتزودنا تموها الكثير ، وارتحلنا الى أن وصلنا الى بطن (مرو) وقد
أنسنا بدنو المرام . والآقتراب من بيت الله الحرام . فأدركنا فى تلك
الطريق الظلال بقية المقييل ، وخيمنا بين متكاث ذلك النخيل ، وسرنا
الى أن وصلنا مكة شرفها الله تعالى فدخلناها من كداء الثنية التى
بأعلاها فى ضحوة يوم السبت الخامس لذى حجة من العام المذكور .
والاصوات تصافح الآذان بالتلبية ، والالسة تضج بالرغبي (145)

145، الرعياء مثل الرغبي ، من رغب اليه = ابتهل .

والادعية فياله يوما طرز به العمر وانشرح له الصدر ، ووضع فيه الوزر
وأجزل التواب والاجر . فأعظم بحرمة حرمة وأكرم بمسائه وصحبته
وأعبق بكافور غدوته ، وزعفران عشيته ، وعنبر ليلته ، وفي ذلك يقول
صاحبنا نجم الدين أبو الحسن علي بن داوود بن يحيى بن كامل الحنفى
الدمشقى ونظمها قبل الوصول الى الكعبة شرفها الله تعالى .

ليلة الوصل بالمليحة أهـ
طال عمر الصدود دونك حتى
قد أشاب الفراق راسى حتى
يا لىالى الوصال لا صرم الدهر
كم بكيناك بالدموع اشتياقا
وركبنا نجائب السهر نطوى
ولعمري جميع ذلك حلو
يا جفونى لك الهناء تقضى
فتملى بما تمنيت هذا
فاجعلى دمعك المصون نثارا
أترى هذه منازل مى
وهل الدهر جامع لمحـب
لا تلومى على الجهالة صبا
كان قبل الهوى عزيزا فلما
فغدا يبصر الشقاء نعيما
طاب يا ربة الستور سقامى
بك يا غاية الامانى وسهلا
كدت أقضى أسى واعدم عقلا
ظننى الناس فى الشبيبة كهـلا
لنا بعد ما بلغناك حبلا
لا نبالى فى ذاك لومـا وعذلا
من قفار الافكار وعرا وسهلا
غير أن الوصال والله أحـلا
زمن البعد والجفا وتخـلا
ربيع مى وهذه مى تجـلا
فهو أعلى من اللئالى وأغـلا
عن يقين وهذه مى أم لا
بك يا حلوة الشمائـل شملا
لا يرى غير شغله بك شغلا
ذاق طعم الهوى استكـان وذلا
ويعد الملام فى الحب جهـلا
عندما طاب فى هواك وجـلا

وأذاب البعاد جسمى نحولاً وانقضى بالصدود عمرى وولاً
ثم زال الشقا وفزت بوصل منك أعلى من الحياة محلاً
وبلغت المنى فلست أبالى أقبل الدهر بعد ذا أم تولى

وحين حمدنا السرى ، ووصلنا الى أم القرى وعلمنا أننا أضياف
الله فدخلنا منه بأحسن القرى وتبدت لنا الكعبة الغراء فى أستارها ،
وتجلت لنا المليحة فى حلل أنوارها .

وضعنا جباها فى الثرى قد تهالت أسارىها منها وزاد سرورها
وطفنا بها سبعا وزفت ظلالها على خائف مثلى أتى يستجيرها

وحين وقع نظرى عليها ، ومثلت لديها ، أنشدت مرتجلاً بلسان
الخشوع ، وكتبت خجلاً بماء الدموع .

الهى هذا البيت بيتك جئته وعادة رب البيت أن يكرم الضيفا
فهب لى قرى فيه رضاك واننى من النار خوفى فلتؤمنى الخوفا

وأخذنا نطوف طواف القدوم ، ونعرف ما لنا من الكرامة بموجوده
على المعدوم ، وقضينا الانساك مهتدين فى قضائها ، مقتدين فى شروع
أدائها ، وعدنا الى البيت الحرام نطوف به ونستلم ، وتقبل أركانه ونلتزم ،
ونصبر عند تقبيل الحجر على الاصطدام والاضطرام ، نغتفر الزحام عند
الورود على منهله والمنهل العذب كثير الزحام ، ونستنزل اللطاف
ونستلذ المقام بين الركن والمقام ، ونشرب من ماء زمزم ما يروى
الآوام ، ويبرى من السقام ، والقلب يتشبت بأهداب تلك الخيام ، ويوطن
نفسه دون بقية الجسد على المقام ، والطرف يذرف دموع المذنب الخاطى ،
واللسان يردد لنجم الدين مهل بن محمد الدمياطى :

يروق لى منظر البيت العتيق اذا بدا لطرفى فى الاصباح والطفل
كان حالته السوداء قد نسجت من حبة القلب أو من أسود المقل

والبيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربييع وذكر أن ارتفاعه فى الهواء من السطح الذى يقابل الصفا وهو بين الحجر الاسود واليمنى تسع وعشرون ذراعا وسائر الجوانب ثمان وعشرون بسبب انصباب السطح الى الميزاب فأول أركانه الركن الذى فيه الحجر الاسود ومنه ابتداء الطواف ويتقهقر الطائف عنده قليلا كأنه يمس جميعه بيده والبيت المكرم عن يساره وأول ما يلقى بعده الركن العراقى وهو ناظر الى جهة الشمال ثم الركن الشامى وهو ناظر الى جهة المغرب ثم الركن اليمنى وهو ناظر الى حيز الجنوب ثم يعود الى الركن الاسود وهو ناظر الى جهة المشرق وعند ذلك يتم الطائف شوطا واحدا ومن الركن الذى فيه الحجر الاسود الى الركن العراقى أربعة وخمسون شبرا وذلك داخل الحجر ، وأما من خارجه فممنه اليه أربعون خطوة وهى مائة وعشرون شبرا ومن خارجه يكون الطواف . ومن الركن الشامى الى الركن اليمنى ما من الاسود الى العراقى لانه الصفح الذى يقابله ومن اليمنى الى الاسود ما من العراقى الى الشامى داخل الحجر لانه الصفح الذى يقابله أيضا وباب البيت المكرم فى الصفح الذى بين ركن الحجر الاسود والركن العراقى وهو قريب من الحجر الاسود بعشرة أشبار وذلك الموضع الذى بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم وهو موضع استجاب الدعوة على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ومن الحجر الاسود الى الارض ستة أشبار غلطويل يتطامن لتقبيله والتقصير يتناول له والحجر الاسود مرأى بديع ورونق صقيل هو قيد الابصار حسنا وفى وسطه مما يلى جانبه الذى على يمين المستلم له اذا وقف نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها خال فى تلك الصفحة المباركة ، وفى هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر اليها يجلو البصر فيجب

على المقبل أن يقصد بتقبيله من الشامة المباركة ما استطاع ، والحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتتعم بها الفم حتى يود اللائم أن لا يتلع فمه عنه فهو أعذب من رضاب الكعاب ، وأشهى من شم العرب الاثراب، وتلك من خواص العناية الالهية فيه ، روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : انزل الحجر من الجنة أشد بياضا من اللبن ، فسودته خطايا بنى آدم . وروى الترمذى أيضا من طريق عبد الله بن عمر أن الحجر الاسود والركن اليمانى ياقوتان من الجنة ولولا ما طمس من نورها لاضاءتا ما بين المشرق والمغرب ، وفى رواية غيره ولابراء من استلمهما من الخرس والجذام والبرص ومن حديث ابن عباس أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجر والله لينعته الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق يشهد على من استلمه بحق وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كنت طائفا مع النبى صلى الله عليه وسلم بيت الله الحرام فقلت فذاك أبى وأمى ما هذا البيت . فقال يا على أسس الله تعالى هذا البيت فى دار الدنيا كفارة لذنوب أمتى . فقله : فذاك أبى وأمى يا رسول الله ما هذا الحجر الاسود . قال : تلك جوهرة كانت فى الجنة أهبطها الله الى الدنيا لها شعاع كشعاع الشمس فاشتد سوادها وتغير لونها مما مسها من أيدي المشركين .

وفى حديث آخر قال دحيت الارض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة وما من نبى هرب من قزينة (146) الا هرب الا الله بمكة يعبد بهما حتى يموت وأن قبر نوح وهود وصالح وشعيب واسماعيل فيما بين زمزم والمقام .

(146) قرية فى بعض النسخ من قومه .

وفي حديث آخر أن حول الكعبة من قبور الانبياء ثلاثمائة قبر
نبيء وان ما بين الركن اليماني والركن الاسود لقبور سبعين
نبيــــــــــــــــا (147) .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الركن يمين الله في الارض
يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه وان الركن والمقام ياتيان
يوم القيامة كل واحد منهما مثل أبى قبيس لهما عينان وشفقتان يشهدان
لمن وافاهما (148) بالوفاء .

وروى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أتيت الركن اليماني قط
الا وجدت جبريل عنده قائما يقول يا محمد استلم .

وفي حديث آخر أنه قال ما أتيت الركن اليماني قط الا وجدت عنده
جبريل عليه السلام قائما يقول يا محمد استلم ، وفي حديث آخر أنه
قال ما أتيت الركن اليماني قط الا وجدت عنده جبريل وهو يقول يا
واحد يا ماجد لا تسلبني نعمة أنعمت بها على ، وفي حديث ابن عباس
قال وقف جبريل عليه السلام وعليه عصابة خضراء قد علاها الغبار
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا الغبار الذي علا
عصابتك أيها الروح الامين قال ان الملائكة أمروا بزيارة هذا البيت
فازدحمت على الركن فهذا الغبار الذي ترى ما تثير الملائكة بأجنحتها .

وروى أن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال ان الله عز وجل ينزل كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة على
هذا البيت ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين .
(والباب الكريم) مرتفع من الارض بأحد عشر شبرا أو نصف وهو من

(147) (زاد في ن 2) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : الكعبة محفوفة
بسبعين ألف من الملائكة يستغفرون لمن طاف بها ويصلون

(148) (ن 2 و 3) لمن رايها .

فصحة مذهبة الصنعة رائق الصفة يستوقف الابصار حسنا وخشوعا
 للمهابة التي كسا الله بيته وعضادته كذلك والعتبة العليا (149) كذلك
 وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز في سعته مقدار شبرين وللباب
 نقرتا فضة كبيرة تان يتعلق عليهما قفل الباب وهو ناظر للشرق وسعته
 ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وغلظ الحائط الذي ينطوى عليه
 الباب خمسة أشبار وداخل البيت المكرم مفروش بالرخام المجزع
 وحيطانه كلها رخام مجزع قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة
 الطول متوسطة فيه وبين الأعمدة أقواس من الفضة عددها ثلاثة عشر ،
 واحدها من ذهب خالص وظاهر البيت كله من الأربعة الجوانب مكسو
 ستورا من الحرير الاكل وفي أعلاها رسم بالحرير الأبيض فيه مكتوب :
 (ان أول بيت وضع للناس الذي ببكة (1) مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات
 بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت
 من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) ، واسم
 الخليفة الامام وفي سعته قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها قد شكل في هذه
 الستور من الصنعة الغريبة أشكال محاريب رائقة ورسوم مقرونة
 مرسومة بذكر الله تعالى وبالدعاء للامام العباسي الأمر باقامتها وعدد
 الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا ، وقد وصلت كلها
 فجاءت كأنها ستر واحد يعم الجوانب الأربعة محيطة الأعلى والأسفل
 وثيقة العرى والازار لا تخلع الا من عام الى عام عند تجديدها . فسبحان
 من خلد لهذا البيت الكريم الشرف الى يوم القيامة (والبيت العتيق)
 مبنى بالحجارة الكبار الصم قد رص بعضها على بعض والصقت بالعقد
 الوثيق الصاقا لا تحيله الايام ولا تفصمه الازمان وله خمسة مضاو
 عليها زجاج عراقي بديع النقش وفيه باب يسمى باب الرحمة يصعد
 منه الى سطح البيت الكريم داخله الادراج ولمعينة البيت الكريم هول

(149) ن 2 العتبة وصفها بالعليا .

(1) سميت مكة (بالميم) لقلة ماؤها من قول العرب مك الفصيل ضرع امه من

البن وامتكه اذا امتص كل ما فيه .

يشعر النفوس الذهول ، ويطيش الالغثة والعقول ، فلا تبصر الا لحظات خاشعة وعبرات هامة والسنة الى الله تعالى داعية ضارعة لا يمل النظر اليه ولا يسأم الطواف به ، ولا يبرح التلفت له ، ولا تزال القلوب مشغوفة بحبه اذا غابت عنه ابدا (هذا البيت المكرم) وهو عروس الفلك الارضى ، واقتضى النص أنه أول موضع للناس .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بين وضعهما فقال أربعون سنة وفي الخبر أول ما خلق الله القلم وأول مسجد وضع في الارض المسجد الحرام وأول جبل وضع في الارض أبو قبيس وقيل ان أول من بناه في الارض آدام عليه السلام ولما أهبط من الجنة قالت له الملائكة طف حول هذا البيت فقد طفنا به قبلك بألفين ودحيت الارض من تحته ، وقيل أول من بناه ابراهيم (150) عليه السلام ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالة ثم هدم فبنته قريش .

وروى أبو هريرة قال : كانت الكعبة زبدة بيضاء على وجه الماء عليها ملكان يسبحان الله تعالى قبل خلق الارض بألفى سنة وسئل على رضي الله عنه عن أول بيت وضع في الارض فقال له انه كان قبل هذا البيت بيوت كثيرة ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة ، وقد ورد في الآثار ان ابراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة أمره الله سبحانه أن يقف على جبل من جبال الارض وأحياله الاولين والآخرين الى يوم القيامة وأمره أن ينادي في الناس أن ربكم بنى بيتا فحجوه فأجابه كل من سبق القضاء بحجه وأحياءهم حتى سمعوا خطابه وهو أحد الأحياء الخمسة التي يتطور فيها آدمى وينام فيها وقيل أنه كان في موضعه بيت غرفع الى

(150) ن 3 بناه في الارض .

السماء الرابعة فالملائكة تطوف به في السماوات كالبيت الذي بمكة ، وقد صح في الشريعة وتواتر أنه أحب بقاع الأرض إلى الله وإنما سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة وتقطعهم وقيل لأن الناس يتبكون فيها أي يزدحمون في أيام الحجيج وبكة ومكة اسمان على مسمى واحد وقيل مكة البلد وبكة موضوع المسجد والصحيح هو الأول والمراد من الوضع المذكور في الآية أن الله سبحانه وضعه متعبدا للناس وقبلة لهم تنبيهها على تخصيصه وتثريفه ووصفه بالبركة ظاهر لأنه يحمل لمن حجه أو اعتمره الخير والزيادة التامة وتكفير الذنوب والآيات التي فيه هي مقام إبراهيم وأمن من دخله ، وأثر القدم في الصخرة الصماء وغوصه فيها إلى الكعبين . . .

واثباته إلى الآن مع ذهاب سائر آيات الأنبياء وحفظه مع كثرة أعدائه كما قال تعالى ويتخطف الناس من حولهم (وورد في الأثر) أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة وقام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه ، ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قال مرحبا بك من بيت ما أعظمك وأعظم حرمتك . وفي الحديث عنه عليه السلام ما من أحد يدعو الله عند الركن الأسود إلا استجاب الله له ، وكذلك عند الميزاب وعنه عليه السلام من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وحشر يوم القيامة من الآمنين ، ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم الشريف كالبرج المشيد وله التنزيه الأعلى ، وحمام الحرم لا تحصى كثرة وهي من الأمن بحيث يضرب المثل بها ولا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامه ولا تحل بوجهه ولا على حال فترى الحمام يتخلل على الحرم كله فاذا قربت من البيت عرجت عنه يمينا أو شمالا والطيور سواها كذلك وفي أخبار مكة أنه لا ينزل عليها طائر إلا عند مرض يصيبه فاما يموت لحينه أو يبرأ فسبحان من أورثه التثريف والتكريم ، ومن آياته أيضا أن بابه الكريم يفتح في أيام معلومة والحرم قد غص بالخلق فيدخله

الجميع ولا يضيق عنهم بقدره الله عز وجل ولله الآيات البينات
البراهين المعجزات . سبحانه وتعالى : ومن عجائب اعتناء الله تبارك
وتعالى به أنه لا يخلو من الطائفين ساعة في نهار ولا وقتا من ليل فلا
تجد من يخبر أنه رءاه دون طائف به فسيحان من كرمه وعظمه ، وموضوع
الطواف مفروش بالرخام البديع وقد اتسع عن البيت بمقدار تسع خطى
وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء في
آخر الرخام المفروش ، وقد جدد ترصيعه ونمق تنميقا بديعا غيه تواريخ
مرسومة ومنها ما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف
الشريف سيدنا ومولانا الامام الاعظم ، المفروض الطاعة على سائر
الامم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ، بلغه الله آماله ،
وزين بالصلحات أعماله ، وذلك في شهر وسنة احدى وثلاثين وستمئة
وصلى الله على سيدنا محمد وآله (والحجر) من الركن العراقي الى
الركن الشامي يقابل الصفح الذي فيه الميزاب ، وفي ارتفاع جدار الحجر
ستة أشبار ، وسمته أربعة أشبار ونصف وداخل الحجر مفروش
بالرخام المجزع المقطع في دور الكف الى دور الدينار الى ما فوق ذلك
ودونه . ثم الصق بانتظام بديع وتأليف عجيب معجز الصنعة غريب
الانتقان رائع الترصيع والتجزيع وفي صحن الحجر بمقربة من جدار البيت
المكرم قبر اسماعيل عليه السلام ، والى جانبه مما يلي الركن العراقي
قبر أمه هاجر رضى الله عنها ، والميزاب في أعلى الصفح الذي على
الحجر المذكور من صفر مذهب يغشى الابصار ، وقد خرج عن صفح
البيت بمقدار أربعة أذرع وسعته مقدار شبر ، وهذا الموضع تحست
الميزاب ، وهو أيضا مظنة استجابة الدعوة (بفضل الله تعالى) (152)
وموضوع المقام الكريم وهو الذي يصلى خلفه يقابل ما بين الباب
الكريم والركن العراقي ، وعليه قبة خشب مركنة محدودة بديعة
النقش ، قد نصبت على الموضع الذي كان فيه المقام وبازاء المقام

(152) هذه الجملة لا توجد في نسخة 2 .

الكريم منبران كبيران حسان فيهما ضروب من قطع الخشب الملون (153) المتخير المنتقى المستجاد ، والجديد منها منقش من جميع جهاته ووجوه درجه وتاجه المذهب بأبداع نقش وأحده ، وصنائه مقسومة على تصنيف وتشجير منطبعة كانطباع نسيج الديباج الهاشمي واليوسفى فى الاعتدال والرونق مسمر بمسامير الفضة الخالصة المذهبة ، مقضب بصفائح الفضة المرفشة منقوش عليه برسم الذهب ما نصه : (مما عمل برسم الحرم الشريف فى شهور سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة) .

ومن فضائل البيت الشريف ما خصه الله تعالى به من بئر زمزم وما جعله الله فى هذا الماء . من الفوائد والمنافع لكل ما شرب له فمن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء زمزم لما شرب له ومنها ما رواه ابن العباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التطلع من ماء زمزم براءة من النفاق ، ومنها ما رواه الضحاك بن مزاحم قال : بلغنى أن التطلع من ماء زمزم براءة من النفاق وان ماءها يذهب بالحمى والصداع وان الاطلاع فيها يجلو البصر وانه سيأتى عليها زمان تكون فيه أعذب من النيل والفرات وقبة بئر زمزم تقابل الركن الاسود ، ومنها اليه أربع وعشرون خطوة وداخلها مفروش بالرخام الابيض الناصع البياض (وتنور البير) المباركة فى وسطها وهو من رخام قد ألصق الصاقا لا تحيله الايام وقد حف به من أعمدة الرصاص الملتصقة ابلاغا فى قوة لزه ورصه اثنان وثلاثون عمودا قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البير دائرة بالتنور كله ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة أشبار ونصف وغلظه شبر ونصف وقد استدارت بداخل القبة سقاية لملأ ماء للوضوء وحولها مصطبة دائرة يرتفع الناس اليها ويتوضئون عليها وفى ماء زمزم أمر عجيب وذلك أنه اذا شرب عند خروجه من

قراراته يوجد حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئاً وهو لما شرب له ، وإذا صب منه من يجد أعياؤه أو كسلاً من أمر متعب للبدن وجد الراحة والنشاط عليه وبظاهر جدار القبلة المباركة مكتوب بالخط الرائق المذهب ما نصه ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين وشرب من ماء زمزم غفر الله ذنوبه كلها بالغلة ما بلغت تقبل الله ممن عمل بهذا الحديث ، ودعا لمن أسس هذه السنة الحسنة من هذا الحرم الشريف في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وتلى قبة بير زمزم من ورائها قبة الشراب وهي المنسوبة للعباس رضى الله عنه لأنها كانت سقاية الحاج ، وهي كذلك له لان فيها يبرد ماء زمزم وتلى هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة أخرى وهاتان القبتان مخزنان لاوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك والمسجد الحرام تطيفه به من جهاته الاربع ثلاث بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد ، ذرعها في الطول أربعمائة ذراع وفي العرض ثلاثمائة ذراع فيكون تكسيه محققا ثمانية وأربعين مرجعا وعدد سواريه الرخامية أربعمائة سارية وأربع وثمانون سارية حاشا الجبسية التي منها في دار الندوة وعند باب ابراهيم . (وللحرم الشريف) أربعة أئمة وكل واحد من الأئمة الاربعة صلاته تحت حطيم له مصنوع من الخشب البديع النجارة ، فالمالكية تصلى قبالة الركن اليماني ، والشافعية خلف المقام والحنفية قبالة الميزاب في البلاد الآخذ من المغرب الى الجنوب والحنبلية تقابل ما بين الحجر الاسود والركن اليماني في البلاط الآخذ من المغرب الى الشمال . ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق وعلى بعد منه يسيرا مشاعيل توقد في صحاف من حديد فوق خشب مركوزة فينتقد الحرم الشريف كله نورا ، وتوضع بين أيدي الأئمة في محاريبهم وللحرم الشريف سبع صوامع أربع في الاربعة الجوانب وواحد في دار الندوة ، وأخرى على باب الصفا وأخرى على باب ابراهيم وللحرم الشريف نيف وأربعون

بابا ، ولها أسماء منها باب القائد ويسمى أيضا باب الخياطين وباب العباس رضى الله عنه وباب على رضى الله عنه وباب بنى ثبيه وباب الرباط وباب الندوة وباب دار المجلة وباب السدة وباب العمرة وباب ابراهيم عليه السلام وباب جزورة وباب جياذ وباب غزوة ، ومن باب الصفا الى باب الصفا ست وسبعون خطوة والصفا أربعة عشر درجا ، وهو على ثلاثة أقواس مشرفة والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة وقد أهدقت به الديار وفي سعته سبع عشرة خطوة ، والميل سارية خضراء وهى خضرة صياغية وهى الى ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم الشريف وفيها يرمل فى السعى الى المئين الاخضرين ، وهما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة الواحدة منهما بازاء باب على رضى الله عنه فى جدار الحرم الشريف وعن يسار الخارج من الباب والميل الآخر يقابله فى جدار دار وعلى كل واحد منهما بأزاء لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج منقوش فيه برسم مذهب « ان الصفا والمروة من شعائر الله » (الآية) ، وبعدها أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره ، سنة ثلاث وسبعين وخمسماية . فجميع خطا الساعى من الصفا الى الروة أربعماية خطوة وثلاث وتسعون (154) خطوة ، وادراج المروة خمسة وهى بقوس واحد كبير ، وسعته سعة الصفا سبع عشرة خطوة والخطوة ثلاثة أقدام ، وما بين الصفا والمروة (مسيل) هو اليوم سوق حافلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب والمبيعات وغيرها . ومكة شرفها الله تعالى هى بلدة قد وضعها الله تعالى بين جبال محدقة بها وهى بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق عددا لا يحصيه الا الله عز وجل وهى البلد المباركة التى سبقت لها ولاهها الدعوة الخيلية الابراهيمية ، قال الله عز وجل : « أو لم نمكن لهم حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شئ » فبرهان ذلك فيها ظاهر الى يوم القيامة ، وذلك أن أفئدة الناس تهوى

(154) ن 2 وثلاث وسبعون ، وهو خطأ .

اليها من الاصقاع النائية ، والاقطار الشاحطة ، فالطريق اليها ملتقى
الصادر والوارد ممن بلغت الدعوة المباركة والثمرات تجبى اليها من كل
مكان ، فهي أكثر البلاد نعما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر ، ولو لم
يكن لها من المتاجر الا أوان الموسم ، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب
فيبيع فيها في يوم واحد فضلا عما يتبعه من الايام من البر الى الدر ،
ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الاحجار من أنواع
الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعقاقير الهندية الى غير ذلك من جلب
الهند والحبشة الى الامتعة العراقية واليمانية الى السلع الخراسانية ،
والبضائع المغربية ، الى ما لا ينحصر ولا ينضب ، ما لو فرق على البلاد
كلها لا قام لها الاسواق النافقة ، وعم جميعها بالمنفعة التجارية حاشا
ما يطرأ بها مع طول العام من اليمن وسواها فما على الارض سلعة من
السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهي موجودة فيها وهي تغص بالنعم
والفواكه والخضر على اختلافها ولا تنقطع منها مع طول العام ولكل
نوع من هذه الانواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق فيفضل فيها
أنواعه الموجود في سائر البلاد فهذه بركة لا خفاء لها (ولها ثلاثة أبواب)
أولها باب المعلى ومنه يخرج الى الجبانة المباركة وهي بالموضع الذي
يعرف بالحجون وعن يسار المار اليها جبل في أعلاه ثنية عليها علم
شبيه البرج يخرج منها الى طريق العمرة وتلك الثنية تعرف بكداء بفتح
الكاف والمد وهي التي عنى حسان بقوله (تثير النقع موعدها كداء) .
وعن يمينك اذا استقبلت الجبانة المذكورة مسجد في مسيل بين جبيلين
يقال أنه المسجد الذي بايعت فيه الجن النبي صلى الله عليه وسلم وبهذه
الجبانة المباركة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين ، والاولياء والصالحين
رضوان الله عليهم أجمعين ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا وقال عليه السلام
الحجون والبقيع يوخذ بأطرافهما وينتشران في الجنة ووقف عليه السلام
على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه

البقعة ومن هذا الحرم يوم القيامة سبعين ألفا غيدخلون الجنة بغير حساب . يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا وجوهم كالقمر ليلة البدر . وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف وطريق العراق والصعود الى عرفات ، وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال وهو للشرق أميل ، (ثم باب المنفل) وهو الى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن ومنه كان دخول خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح . ثم باب الزاهر ويعرف أيضا بباب العمرة وهو غربى ، وعليه طريق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وطريق الشام وطريق جدة ومنه ينوجه الى التنعيم وهو أقرب ميقات المعتمرين ، يخرج من الحرم اليه على باب العمرة ، ولذلك خصص بهذا الاسم ، والتنعيم من البلد على فرسخ وهو طريق حسن فسيح فيه الآبار العذبة التى تسمى بالشبيكة ، وعندما تخرج من البلد بنحو ميل تلقى مسجدا بازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة يعلاوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم يقال انه الموضع الذى جلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مستريحا عند مجيئه من العمرة ، فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه وحق لهم ذلك ، وعلى جانبى الطريق من هذا الموضوع جبال أربعة جبالان من هنا وجبالان من هنا عليها أعلام من الحجارة ، يقال انها الجبال المباركة التى جعل ابراهيم عليه السلام اجزاء الطير عليها ، ثم دعاهن حسبما ذكرنا الله فى كتابه ، ثم بعد هذا الموضوع بمقدار غلوة تلقى على قارعة الطريق المتوجهة الى العمرة من جهة اليسار قبرين قد عاتهما أكوام من الصخر العظام يقال أنهما قبر ابى لهب وامرأته فما زال الناس فى القديم الى هلم جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبالان عظيمان ، وعند اجتيازك الزاهر وهو مبنى على الطريق يحتوى على ديار وبساتين تمر بالوادي المعروف بذى طوى الذى نزل النبى صلى الله عليه وسلم عند دخول مكة ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يغتسل فيه وحينئذ يدخلها وحولها أبار تعرف بالشبيكة وفيه مسجد يقال أنه فيه مسجد

ابراهيم عليه السلام فتأمل بركة هذا الطريق ومجموع هذا الآثار المقدسة
التي اكتتفتها ثم تجيء الوادي الى مضيق تخرج منه نى الاعلام التي
وضعت حجازا بين الحل والحرم وما هو داخلها الى مكة حرم وما هو
خارجها حل وهي كالابراج مصفوفة كبار وصغار ، واحد بأزاء آخر
على مقربة منه تأخذ من أعلى جبل يعترض عن يمين الطريق في التوجه
الى العمرة وتتشق الطريق الى أعلى جبل عن يساره ، ومنه ميقات
المعتمرين وفيها مساجد مبنية يصلى المعتمرون فيها ويحرمون منها
ومسجد عائشة رضى الله عنها خارج هذه الاعلام بمقدار غلوتين واليه
يصلى المالكيون ومنه يحرمون وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد
التي حول الاعلام المذكورة قال الشيخ محيي الدين النوري رحمه
الله تعالى جاء عن الحسن البصري رضى الله عنه أنه قال في رسالته
المشهورة الى أهل مكة ان الدعاء يستجاب هناك في خمسة عشر موضعا ،
في الطواف وعند المنتزم وتحت الميزاب وفي البيت وعند زمزم وعلى
الصفا وعلى السعى وفي المروة وفي السعى وخلف المقام وفي عرفات
وفي المزدلفة وفي منى وعند الجمرات الثلاث ، وأما مشاهدها المقدسة
وأثارها العظيمة فهي أكثر من أن تحصى ، ومكة شرف الله تعالى كلها
مشهد كريم كفاهها شرفا ما خص الله تعالى به من مثابة بيته العظيم
وما سبق لها من دعوة الخليل ابراهيم ، وانها حرم الله وأمنه وكفاهها
أنها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم الامى الذى آثره الله بالتشريف
والتكريم وبعثه بالآيات والبيانات والذكر الحكيم ، فهي مبدأ نزول الوحي
والتنزيل ومهبط الروح الامين جبريل .

وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الاكرمين ، وهي أيضا مسقط رؤوس
جماعة الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين .
ونجوما للمهتدين . فمن مشاهدها التي عايناها قبة الوحي وهي في دار
خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

وفيهما كان أبناء النبي صلى الله عليه وسلم بها ، وقبة صغيرة أيضا في الدار المذكورة .

وفيهما كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وهذه المواضع المقدسة مغلوقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها ، وكتب بداخل القبة الاولى ما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم تقرب الى الله تعالى بعمارة هذا الموضع الشريف المنسوب الى خديجة رضى الله عنها ومسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحي الكريم العبد المفتقر الى رحمة الله تعالى ، مولانا السلطان بن السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن على خادم الحرمين الشريفين بلغه الله تعالى غاية آماله ، وتقبل منه صالح أعماله ، وذلك بتاريخ شهر صفر سنة ست وثمانين وستمئة وكتب بداخل القبة الصغيرة هذا موضع مولد فاطمة رضى الله عنها » وموضع الولادة شبه صهريج صغير وفيها محتبى النبي صلى الله عليه وسلم شبيه القبة وفيه مقعد فى الارض شبيه الحفرة داخله فى الجدار قليلا وقد خرج عليها من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور ، قيل أنه الحجر الذى غطى النبي صلى الله عليه وسلم عند اختبائه فى الموضع المذكور وفى زقاق هذه الدار على مقربة منها مصطبة فيها متكأ يقصد الناس اليها ، ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها لان فى موضعها كان قعود النبي صلى الله عليه وسلم ومن مشاهدتها الكريمة أيضا مولد النبي صلى الله عليه وسلم والتربة التى هى أول تربة مست جسمه الطاهر بنى عليها مسجد لم ير أحفل بناء منه أكثره ذهب منزل وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب أبى النبي صلى الله عليه وسلم .

والموضع المقدس الذى سقط فيه صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة التى جعلها الله رحمة للناس أجمعين محفوف بالغضة كأنه صهريج صغير سطحه فضة فيا لها تربة شرفها الله تعالى بأن جعلها مسقط أطهر الاجسام ومولد خير الانام صلى الله عليه

وعلى آله وأهله وأصحابه الكرام ، وسلم تسليما وعليه مكتوب ما نصه :
هذا ما أمر بعمله عبد الله وخليفته الامام الناصر لدين الله أبو العباس
أحمد أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره ، في سنة ست
وسبعين وخمس مائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وعلى مقربة
منه أيضا يشرف عليه جبل أبي قبيس وهو في الجهة الشرقية يقابل ركن
الحجر الاسود وفي أعلاه رباط مبارك فيه مسجد وعليه سطح مشرف
على البلدة الشريفة ومنه يظهر حسن الحرم واتساعه
وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه ، وهو أول جبل خلقه الله ، وفيه
قبر آدم عليه السلام ، وفيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم عند
انشقاق القمر له بقدره الله تعالى وهو أحد أخشبي (1) مكة ،
والأخشب الثاني الجبل المتصل بقيقعان في الجهة الغربية ، وبسمح أبي
قبيس مسجد محتفل البناء عليه مكتوب هذا المسجد ، هو مولد على
ابن أبي طالب رضوان الله عليه ، وفيه تربى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وكان دارا لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وكافله
ومن جبال مكة المشهورة بعد جبل أبي قبيس جبل حراء وهو في الشرق
منها على مقدار فرسخ أو نحوه وهو جبل مبارك كان النبي صلى الله
عليه وسلم كثيرا ما يتنابه يتعبد في غار فيه وأول آية نزلت في القرآن على
النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الجبل المذكور ومن جبال فيها أثر
كريم ومشهد عظيم ، الجبل المعروف بأبي ثور ، وهو في الجهة اليمنى
من مكة على مقدار فرسخ وأزيد فيه الغار الذي آوى اليه النبي صلى
الله عليه وسلم ومعه صاحبه الصديق رضى الله عنه حسبما ذكر الله
تعالى في كتابه العزيز ، وخص الله نبيه بآيات مبینات ، ومن مشاهدها
الكريمة أيضا دار الخيزران وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه
وسلم يعبد الله فيها سرا مع الطائفة الكريمة المباردة للإسلام من

(1) الخشب : المنحوت من القسي ، الطويل العاري العظام ، والجبل الغليظ
وأخشب مكة أبو حنين .

أصحابه رضى الله عنهم حتى نشر الله الاسلام منها على يد الفاروق
عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكفى بهذه الفضيلة الكريمة ، ومن
مشاهدها أيضا دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهى اليوم دار
سكة الامير ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه يقال
أنه كان يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم متى اجتاز عليه وذكر أنه
صلى الله عليه وسلم جاء يوما الى دار أبى بكر الصديق رضى الله
عنه فنادى به ولم يكن حاضرا فأنطق الله عز وجل الحجر المذكور ، وقال يا
رسول الله ليس بحاضر ، وكانت من احدى آياته المعجزات صلى الله
عليه وسلم .

ثم تلعبت لقاء العلماء والمحدثين واستقرت المجاورين منهم
جماعة جملة يضيق هذا المجموع عنهم ويتسع برنامج روايتى لهم فهم
فيه على الكمال والتمام ومن أعظمهم قدرا وأرفعهم خطرا ، وأشرفهم
مكانة وذكرنا الشيخ الفقيه الخطيب بالحرم الشريف وصاحب الصلاة
به ، فارس المنابر وامام الامة ، ومقتدى فرق الامة . ولى الله عز
وجل أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المكي المالكي
المشتهر بخليل نفع الله تعالى به أحد السبعة الابدال ، ورب المئثر
المبرأة عن الخلاف والجدال والموجود فى بركاته ما يخجل الغيث فى
الانسحاب والانسداد ، والموطأة أكنافة الخاصة والعامة ، فهى معتدلة
الكمال ، كاملة الاعتدال ، فالاعناق متعلقة اليه والركبان منتالة عليه ،
ماثلة بين يديه ، سامعون لامره متبركون بمساس طمره ، معترفون
بفضله متصرفون عن اذن من قوله أو فعله ، وكلهم يرد من احسانه
مناهل الكرم ويروود من فضله مواقع الديم ، ويستترشد من نور عمله
ما هو أوضح من نار على علم ، ويقتدى بآثاره فيسلك شغف الشوق
آداب الخدم ، قد انحلت مواصلة العبادة ، وأكلته الايام بشغف الزهادة
فلم تبق منه الا الرسوم على السجادة ، وهو على ذلك من أصبر الخلق
وأجلدهم على الحاح السائلين ، واختلاف القاصدين اليه والساكنين

والتكفل بحوائج الاغنياء والفقراء والمساكين ، والنظر لجميعهم في جميع أمور الدنيا والدين لقيته بحرم مكة الشريف تجاه الكعبة المعظمة وبمنزله أيضا بقرب حرمة الشريف فاكثرت الاختلاف اليه ، وكنت ممن استفاد في مناسك حجه تفقها ومعينة بين يديه ، فانتفعت به أعظم الانتفاع واستفدت بالالتزام له والاتباع ، وسمعت عليه واجازنى جميع ما يحمله ويرويه اجازة تامة ، مطلقة عامة .

ومن أرجحهم عقلا ، وأوضحهم فضلا ، الشيخ العالم الفاضل أبو العباس أحمد بن ابراهيم الشافعى رضى الله عنه شيخ علم وذكاء ، وشبح حلم وزكاء حسن الشارة (155) مستحسن الاشارة حافظ العلم محافظ على شيم الحلم عبادة موردها صفوزلال ، وزهاده موعدها روض يانع وظلال ، ودراية تعضدها رواية وسماع . وينعقد عليها اتفاق واجتماع وقد أثنى عليه كل من أخذ عنه بما أثنى ، ووردت فضائله على الالسن فرادى ومثنى محامده مطالعة في روض الطرس ، وافق النفس (156) كل زهرة وزهرة ، وأسانيده مكتوبة في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، لقيته بحرم مكة الشريف تجاه الكعبة المعظمة فسمعت عليه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن غير ذلك وانتفعت به وأجازنى الاجازة التامة المطلقة العامة ، ومولده سنة ست وثمانية وستمئة ، ثم تكاملت الركبان بمكة شرفها الله تعالى فخرجنا الى منى يوم التروية وهو اليوم الثامن لذى حجة فى أمم يرتفع لها العجاج ، ويتزاحم بها الفجاج ، وخلائق يغص بهم البسيط الاغبيج ويضيق عنهم المهمة الصحصح (157) ، فترى الارض تميد بهم ميذا وتموج بجمعهم موجا ، فتبصر منهم بحرا طامى العباب مأؤه السراب ، وسفنه الركاب وشرعها الطلائل المرفوعة والقباب ، فمن لم يشاهد هذا

155 الشارة الهيئة .

156 النفس المداد .

157 ما استوى من الارض وكان اجرد صحاصح .

الخروج لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدث به فمن هوادج تسيل
في أباطح مكة وشعابها ، ومن محابر كالقباب المضروبة تسير باربابها ،
والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين ، فتراها تتهادى تهادى العرائس
في الكلل ، وترفل من قلائد الذهب واستار الديباج في الحلى والحلل ،
فلا تبصر الا سجفا ، تسحب على وجه الارض ، وتشبه في وشيها وشى
الروض ، خلائق تملأ من الطول الى العرض ، وتذكر مرأى الحشر
والعرض ، فسبحان من أحصاهم عددا ، وأراد بهم رشدا ثم نزلنا
(بمنى) فعائنا ليلة من لم يعانيتها لم يعاين أعذب ليالى الدنيا ، ولم
يبصر الارض عادت ثريا يوقد فيها من الشمع والمشاعل ، والسرّج ما
ترى الارض تتلأأ به نورا ، وتضىء سهولا ووعورا ، وتفوق كواكب
السما سطوعا وظهورا ، فلاله هى ليلة الدهر وعروس ليالى العمر ،
والبكر التى تهيم بها بنات الفكر ، (ومنى) (1) مدينة عظيمة الآثار واسعة
الاختلاط عتيقة الموضع تملأ النفوس بهجة وانشراحا ، قد درست
الا منازل حسنة محدثة النزول ، تحف بجانبى طريق ممتد الطول ،
كأنه الميدان اتساعا وانفساحا ، فأول ما يلقي المتوجه اليها عن يساره
بمقربة منها مسجد البيعة المباركة التى كانت أول بيعة في الاسلام
عقدها العباس رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم مع الانصار ،
حسبما اشتهر من ذلك ثم يفضى منها الى جمرة العقبة وهى أول منى
للمتوجه الى مكة ، وعن يسار المار اليها وهى على قاعة الطريق مرتفعة
بالمتراكم فيها من حصا الجمرات ، ولولا آيات الله البينات فيها لكانت
كالجبال الرواسى لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالى الازمنة
وعليها مسجد مبارك وبها علم منصوب شبه اعلام الحرم التى ذكرنا

(1) في الرحلة العياشية : وبالجملّة فأيام منى غر في اوجه الزمان ، ومواسم فرح
وسرور والاهل والايمان ، ومناهل رحمة ومغفرة من الله ورضوان ، ومحال
بركة وعافية وامان ، يتجلى فيها الحق لوفده بصفة الجمال ، جزاء على
رضاهم قبل ذلك بتجلى الجلال ، فهناك يستصغر المرء ما قاسى في طريقه من
الشدائد في جنب ما حصل له من النعم والفوائد .

قبل ، وبعد هذه الجمرة العقبية (موضع الجمرة الوسطى) وبها أيضا علم وبينهما قدر الغلوة ، ثم بعدها تلتقى الجمرة الاولى ومسافتها منها كمسافة الاخرى . والصادر من عرفات الى منى أول ما يلقي الجمرة الاولى ثم الوسطى ثم جمرة العقبة ثم بعد الجمرة الاولى يعرج عن الطريق يسيرا ويلقى منحر الذبيح عليه السلام حيث فدى بالذبح العظيم ، وعلى الموضع المبارك مسجد مبنى وهو بمقربة من سفح جبل ثبير ، وفي المسجد المذكور حجر قد ألصق بالجدار فيه أثر قدم صغير يقال أنها أثر قدم الذبيح عليه السلام عند تحركه ، فلان له الحجر بقدرة الله ، فيتبرك الناس بلثمه ومسه ، ثم يفضى من ذلك الى مسجد الخيف المبارك وهو آخر منى من التوجه من المعمر منى بالبنيان ، وأما الآثار القديمة فأخذة الى أبعد غاية أمام المسجد وهو متسع الساحة ، كبير المساحة ، وهو من المساجد المشتهرة بركة وشرف بقعة وكفى بما ورد في الاثر الكريم ، من أن بقعته مدفن لكثير من الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين ثم سعدنا الى عرفات وتكامل الجمع بها فاجتمع فيها من الخلائق جمع لا يحصى عددهم الا الله عز وجل ، ومن مزدلفة بسيط من الارض فسيح بين منى وعرفات من منى اليها ما من مكة الى منى ، وذلك نحو خسة أميال ومنها الى عرفات مثل ذلك ومن مزدلفة تسمى المشعر الحرام ، وقبلها بنحو الميل وادي محسر وجرت السنة بالهرولة فيه وهو حد بين مزدلفة ومنى ، لانه معترض بينهما وعرفات بسيط من الارض مد البصر لو كان محشر الخلائق لوسعهم ، وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة ، وفيه وحوله موقف الناس والعلماء قبله بنحو الميلين فما أمام العلمين الى عرفات حل ومادونهما حرم ، وبمقربة منهما مما يلي عرفات بطن عرنة الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه فى قوله صلى الله عليه وسلم عرفات كلها موقف ، وارتفعوا عن بطن عرنة ، فالواقف فى عرنة لا يصح حجه فيجب التحفظ من ذلك وجبل الرحمة المذكور منقطع عن

الجبال قائم في البسيط وهو حجارة منقطعة بعضها على بعض وكان صعب المرتقى فأحدثت فيه ادراج وطبئة واسعة من أربع جهات أنفق فيها مال عظيم ، وفي أعلى الجبل قبة تنسب الى أم سلمة رضى الله عنها والله أعلم بصحة ذلك وفي وسطها مسجد يتراحم الناس للصلاة فيه ، وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدد به فسيح الساحة ، جميل المنظر يشرف منه على بسيط عرفات وفي جهة القبلة منه جدار قد نصبت فيه محاريب يصلى الناس فيها وفي أسفل هذا الجبل المقدس عن يسار المستقبل القبلة فيه دار عتيقة البنيان في أعلاها غرف لها طيقان تنسب الى آدم صلى الله عليه وسلم ، وعن يسار هذه الدار في استقبال القبلة الصخرات التى كان عندها موقف النبى صلى الله عليه وسلم وهى فى جبل متطامن وحول جبل الرحمة والدار المكرمة المذكورة صهاريج الماء وجباب ، وعن يسار الدار ويسار القبلة مسجد قديم فسيح البناء بقى منه الجدار القبلى ينسب الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة وعن يسار العلمين في استقبال القبلة وادى الاراك وهو أراك أخضر يمتد في ذلك البسيط مع البصر امتدادا طويلا وكان الوقوف بعرفات يوم الاربعاء التاسع لذى حجة فخطب في ذلك المقام العظيم ، والمشهد الكريم الشيخ الخطيب الولي أبو عبد الله خليل المذكور آنفا بعد أن جمع بين الظهر والعصر خطبة محبرة . نظم شذورها ، وأحكم فصولها فذرفت منها العيون . ووجلّت لها القلوب ، وعلا الضجيج ، وارتفع النشيج وتراكم الحجيج ، ووقف جميع الناس خاشعين ، باكين داعين الى الله عز وجل في الرحمة والمغفرة متضرعين ، فما شهدت يوما كان أكثر مدامع ، ولا قلوبا خواشع ، ولا أعناقاً لهيية الله تعالى خوانع خواضع ، من ذلك اليوم ، فما زال على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم . والرحمة بفضل الله تعالى تكنف جميعهم ، حتى سقط قرص الشمس وتمكن غروبها ، ولما حان الوقت أشار الامام بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس

بالنفر دفعا (158) وارتجت منه الارض ورجفت له الجبال فيا له موقفا ما أعظم مرأاه وأرجى في النفوس عقباه ، جعلنا الله تعالى ممن خصه فيه برضاه ، وتعمده برحماء ، انه منعم كريم ، غفور رحيم ، وروى ابن المبارك عن أنس بن مالك قال وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات وكادت الشمس أن تغرب فقال يا بلال انصت لى الناس ، فقام بلال فقال : انصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنصت الناس فقال : معاشر الناس أتانى جبريل آتفا فاقرائنى من ربى السلام وقال ان الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المعشر وضمن عنهم التباعات فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله هذا لنا خاصة ، فقال هذا لكم ولمن أتى بعدكم الى يوم القيامة ، فقال عمر بن الخطاب كثر خير الله وطاب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزء الا الجنة وروى النسائى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة وفى صحيح مسلم عن ابن هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق يرجع كيوم ولدته أمه .

وفى صحيح مسلم أيضا عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة فانه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول ما أدر هؤلاء ، وفى طريق آخر أنه سبحانه يباهى بأهل عرفات ويقول : يا ملائكتى أنظروا الى عبادى جاءوا الى من أقصى الارض شعشا غبرا أشهدكم أنى قد غفرت لهم .

(1) تباعة الامر عاقبته وما يترتب عليه من اثر .
(158) ن بالنفر دفعا : وهو الصواب (المصحح) .

مطبعة فضالة - الحمديّة - المغرب

